مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي
Al-Babtain Central Library for Arabic Poetry

سلسلة مخطوطات مكتبة البابطين (٩)

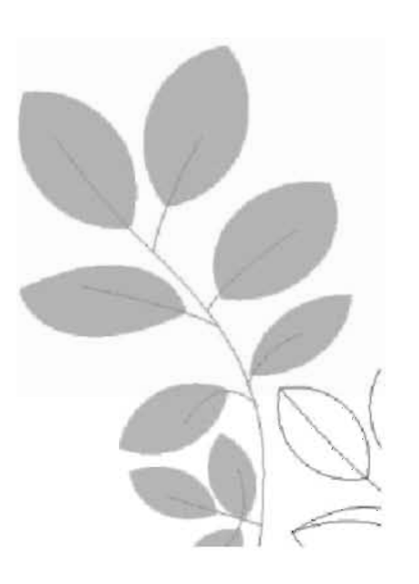
مبادي العشق ومنتهى الغرام

حسين بن عبد الجليل برادة

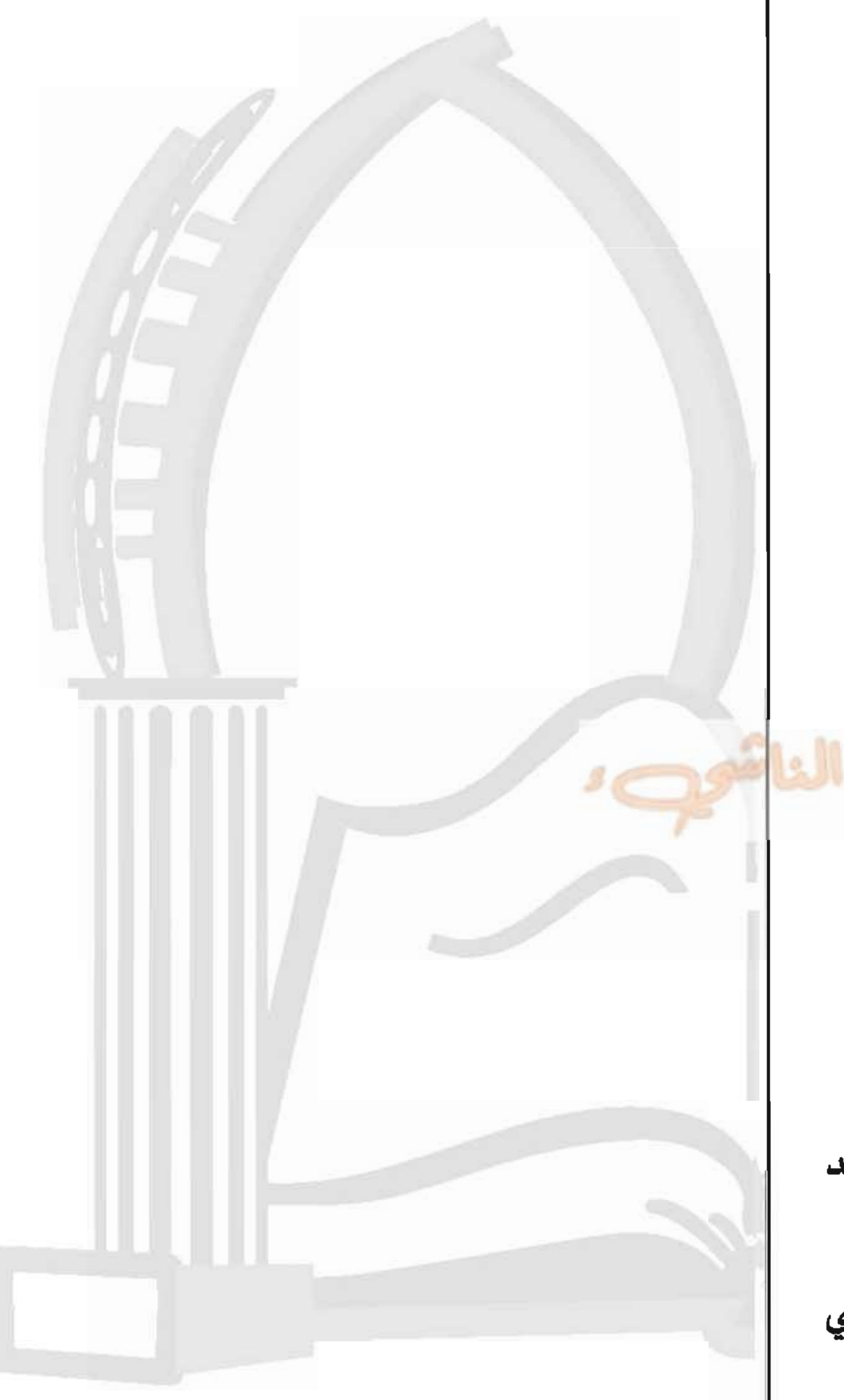
إعداد

مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي

الكويت - ٢٠١٨



مبادي العشق ومنتهى الغرام



مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي

تأسست عام ٢٠٠٢م

افتتحت عام ٢٠٠٦م

مؤسسها ورئيس مجلس إدارتها

عبدالعزيز سعود البابطين

المدير العام

سعاد عبدالله العتيقي

دولة الكويت - شرق - شارع عبدالله الأحمد

بجانب المسجد الكبير ووزارة التخطيط

ص. ب ٢٥٠١٩ - الصفاة - الرمزي البريدي

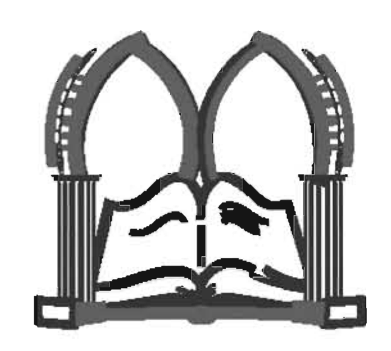
١٣١١١

هاتف: ٢٢٤٧٤٠١٠ - ٢٢٤٧٤٠١١ (٩٦٥+)

فاكس: ٢٢٤٧٤٠١٤ (٩٦٥+)

البريد الإلكتروني:

E-mail:info@albabtainlibrary.org.kw



مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي
Al-Babtain Central Library for Arabic Poetry

سلسلة مخطوطات مكتبة البابطين (٩)

مبادي العشق ومنتهى الغرام

حسين بن عبدالجليل برادة

إعداد

مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي

الكويت - ٢٠١٨

٨١١,٩٥٣١ بَزّادة ، حسين بن عبدالجليل بن عبدالسلام.

مبادي العشق ومنتهى الغرام / حسين عبدالجليل بن عبدالسلام بَزّادة .ـــ ط١

.ـــ الكويت : مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي، ٢٠١٨.

٢٣١ ص ؛ ٢٤ سم. (مخطوطات مكتبة البابطين ؛ ٩)

ردمك: ٩٧٨-٩٩٩٠٦-٨٥-٣٩-٨

١. الموضوع الشعر العربي - دواوين و قصائد - السعودية - العصر الحديث

أ. العنوان ب. مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي . الكويت (ناشر)

ج. السلسلة

رقم الإيداع : ٢٠١٨-٠٢٨٥
ردمك : ٩٧٨-٩٩٩٠٦-٨٥-٣٩-٨

Depository Number: 0285 - 2018
ISBN: 978-99906-85-39-8

الطبعة الأولى

الكويت

٢٠١٨

تصدير

بقلم: عبدالعزيز سعود البابطين

ربما أكثر ما نحتاجه اليوم هي المحبة. في زمن يشتعل صراعات وخلافات بشتى أنواعها البشرية، فإن المحبة إن وجدت ستكون المخلّص لنا من كل ما أشعلته الكراهية في النفوس.

بنظرة تحليلية سريعة، نجد أن المحبة في السابق كان حضورها أكبر من اليوم، فنلاحظ أن الشعراء في العصور الأولى للشعر، كانوا حتى قصائد الحروب يضيفون إليها لواعجهم من الحب والعشق. وأدلّ مثال على ذلك عنترة بن شداد الذي تذكر محبوبته عبلة وهو في خضم المعركة:

ولقد ذكرتكِ والرماح نواهلٌ منّي وبيض الهند تقطر من دمي

المحبة هي مفهوم أشمل وأوسع من كل العواطف الأخرى، ومنها يتفرع الحب والعشق والغرام الذي رصده الباحث العلامة حسين بن عبدالجليل برادة في هذا الجزء بشغف وحرص على نقل الحكاية مع الأبيات الدالة عليها، فنقل إلينا روح الماضي الذي غاب في عصرنا الحالي. هذه الروح التي انغمست في العشق فأبدعت أروع القصائد وأرقّها، ومَن أرق من عمر بن أبي ربيعة وقيس بن ذريح وابن زريق البغدادي وديك الجن الحمصي، وغيرهم ممن كرسوا لغة العشق كمنهج مدرسي في الشعر وحالة عاطفية متأججة

سارت على هديها أجيال من الشعراء.

هذا النمط الشعري الجريء، لم تكن المرأة بمنأى عنه، فقد جاء حضورها على مسارين، الأول وجودها كطرف أساسي في القصيدة كأن تكون هي محبوبة الشاعر أو ملهمته أو حتى وجودها كحالة جمالية التقاها الشاعر مصادفةً فوصفها بقصيدة ظلت تتردد في وجدان التاريخ وتتناقلها العصور. أما المسار الثاني، فكونها شاعرة أيضاً قالت الشعر الغزلي وضمنته عشقها بجرأة عالية. وهذا إن دلّ على شيء فهو يعكس تفهّم الناس آنذاك للكلمة وعمقها الإبداعي قبل الإيحائي. وهو أيضاً يشير إلى التمدن الذي ساد في العصور السابقة ويُحسب لمؤلف هذا الكتاب انفتاحه على أخبار النساء وإن كان بقدر يسير، إلا أنه إشارة واضحة إلى موضوعيته وحياديته ووعيه في عدم حصر حالات العشق في الشعراء الذكور فقط. فتطالعنا حكايات غريبة عن نساء عاشقات أنشدن الشعر بأروع معانيه وأكثرها شفافية وألماً أحياناً، مرة عن الزوج ومرة عن الحبيب الذي هجرها.

رحلة على ورق قديم يأخذنا فيها بن برادة نحو أزمان لن تعود، وكأنه يستدرج فينا عواطفنا التي غيّبها الصخب والهجران والنكران، ونحن على ثقة بأننا لن نعود من هذه الرحلة إلا وقد استفاقت أحاسيسنا ومشاعرنا من جديد.

مقدمة

بقلم: سعاد عبدالله العتيقي

من أهم الموضوعات التي ألهمت الأدباء والشعراء، وأشعلت خواطرهم وخيالاتهم، وداعبت مهجهم وانعكست آثارها على أشعارهم ومصنفاتهم، هو موضوع العشق والغرام، ففي القرب من المعشوق بسط وسكن، وفي البعد انقباض ووجل، كما أن العشق هو انفعال ينبعث من القلب قسراً ولا ينضبط غالباً بضوابط التحكم والإرادة.

وقد صنف الأدباء وكتب الشعراء في ذلك ما يضيق به المكان هنا عن الحصر والإيجاز، فمنهم من كابد الشوق فأعياه، ومنهم من كتب عن الصد والهجر يناجي ويستعطف، فقلبه حب، ولسانه ثناء عذب، ومنهم من أسعده القرب فنال به تمام الرضا والقبول.

حتى أن بعض هؤلاء العشاق قد اقترن اسمه باسم محبوبه في كتب الأدب والشعر، فصار يقال مجنون ليلى، وكثير عزة، وجميل بثينة، ولعل من أشهر ما نقل إلينا في كتب الشعر والأدب أخبار عنترة العبسي ومعشوقته عبلة، وما وقع لهما من أخبار، وما قيل فيهما من أشعار ملأت كتب الأدب والشعر، ومثل هذا كثير ومشتهر.

ومن الكتب المصنفة قديماً في هذا الباب كتاب داود الأنطاكي المسمى «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق»، ومما صنف حديثاً كتاب «معجم أشعار العشق في كتب التراث» لغريد يوسف.

أما الكتاب الذي بين أيدينا فقد تفنن مصنفه بترتيب أبوابه وتفصيل مادته، إذ رتبه على ستة وعشرين باباً، وصف فيها العشق ودواعيه وكيفيته وأحواله، وقارن بين العشق الصادق والكاذب، والعشق بالسماع، وأنواع المحبة والمودة والغرام، والغيرة والعفة، وما وقع للأحباب من هجر ووصال وغدر ووفاء، وغير ذلك.

وهذا المخطوط من ضمن محفوظات خزانة المخطوطات بمكتبة البابطين للشعر العربي برقم (١٤١٥خ) تحتوي على (٨٥) ورقة، وهي نسخة نادرة نفيسة بخط مصنفها، غير أن النسخة تعرضت لنقص من بدايتها وفي عدة مواضع من وسطها، ومن آخرها.

وهنا لابد من الشكر والعرفان لكل من ساهم في إضاءة سطر فوق صفحات هذه المجموعة ، سواء من الباحثين أو الفنيين أو المعدين، وأخص بالشكر الأستاذ عبدالله الكندري والأستاذ ياسر أومري اللذين لم يدخرا جهداً لإظهار هذه المجموعة إلى النور.

١٤١٥
ع ٢
ح

بهند وأتراب لهند اذ الهوى جميع واذلم نخش أن يتصدعا
واذ نحن مثل الماء كان مزاجه كما صفق الساقى الرحيق المشعشعا
واذ لانطيع العاذلين ولانرى لواش لدينا يطلب الصرم مطمعا
تنوعتن حتى عاود القلب سقمه وحتى تذكرت الحديث المودعا
فقلت لمطريهن بالحسن انما ضررت فهل تسطيع نفعا فتنفعا
وهيجت قلبا كان قد ودع الصبا واشياعه فاشفع عسى ان تشفعا
لان كان ماقد قلت حقا لما أرى كمثل الالى أطريت فى الناس أربعا
فقال تعال انظر فقلت وكيف لى اخاف مقاما أن يشيع فيشنعا
فقال اكتفل ثم التثم وأت باغيا فسلم ولاتكثر بأن تتورعا
فانى سأخفى العين عنك فلاترى مخافة ان يفشو الحديث فيسمعا
فأقبلت أهوى مثل ماقال صاحبى لموعده ازجى تعودا موقعا
فلما تلاقينا وسلمت أشرقت وجوه زهاها الحسن ان تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما رأيننى وقلن امرؤ باغ أضل فأوضعا
وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن اصبعا
فلما تنازعن الاحاديث قلن لى اخفت علينا ان نغر ونخدعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالدا اليك وبينا له الشان أجمعا.
فما جئتنا الاعلى وفق موعد على ملأ امنا خرجنا له معا
رأينا خلاء من عيون ومجلسا دميث الربى سهل المحلة ممرعا
وقلنا كريم نال وصل كرائم فحق له فى اليوم أن يتمتعا

كان ابودهبل الجمحى جميلا وضيأً وكان عضيفا فخرج الى الشام ونزل بجيرون فجاءته عجوز وقالت له ان ابنة لى وردها كتاب من حميم لها وليس عندها من يقرؤه فتدخل اليها فى هذا القصر فتقرؤه لها وتحتسب الاجر فيها فقبل كلامها على ظاهره ودخل معها فاغلقت الباب دونه وادخلته على امراة فى القصر كانها فلقة قمر فأعجبها فدعته الى نفسها فأبى فأمرت حشمها فسجنوه فى منزل من الدار ومنع من الطعام

فوجد العرب مجتمعين على جزور ينحر فاستطلعهم عنها فلم يعلموا عن خبرها ثم [illegible] استأذنهم
في البيوت وقال لهم ان النساء ادرى بالمارة فاذنوا له فانصرف يتصفح الحي الى ان اعتلا النهار ولم يظفر
بطلبه فاذا هو بثلاث بنات فسلم عليهن فرددن ثم استنشدهن البكرة فقالت احداهن قد اصبت حاجتك
ثم ادخلته بيتا وأتته بقدح مفضض فيه لبن وصحفة مفضضة فيها تمر وقالت له ان بكرتك تأتي هذه الشجرة
فتطوف بها الليل فرجع الشيخ الى الفتى واخبره فابتهج كالذي اصاب بغيته والشيخ لا يدري فلما انتصف الليل
وظن ان الشيخ قد نام عمد الى رحله فاستخرج بردين ملوكيين فأتزر بأحدهما واتشح بالاخر ومضى فتبعه الشيخ من
لم يشعر به حتى تلاقيا وتحادثا الى ان بدا الصبح وأزمعا الفراق سبقه الشيخ ونام في مضجعه وجاء الغلام في
الصبح ثم نبهه وهو مسرور فاكل معه وشرب ثم اخبره أنه هو جميل وان تلك الطفلة هي بثينة ثم أعطاه
أحد البردين واعتذر وقال له هل لك ان تمضي اليها فتنشدها أبياتا قلتها بعد منصرفي عنها قال نعم فأنشده

وما انس ملأشياء لا أنس قولها وقد قربت نحوي أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التي ترى اتيتك فاعذرني فدتك جدود
خليلي ما اخفي من الوجد ظاهر ودمعي بما أخفي الفؤاد شهيد
اذا قلت مالي يا بثينة قاتلي من الحب قالت ثابت ويزيد
وان قلت ردي بعض عقلي أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد

فمضى اليها وقال لها قد جئت بالامس طالبا واليوم مسلما فهل أنت بارزة الي قالت نعم فسمع جارية تقول لها
يا بثينة ان عليه برد جميل ثم خرجت في زينتها وقالت له يا أخا العرب ان بردك لا يشبه ما عليك واستخرجت
ملاءة معصفرة وأقسمت عليه ان يتشح بها ففعل وانشدها الأبيات وانصرف بملحفة بثينة وبرد جميل

٨٤ عشر

١٨٨

الباب السادس والعشرون في السلو وترك الحب والاشتغال بغيره وفي الخواص والاسماء والاوفاق المتعلقة بالعشق والسلو والعطف والقبول وفي العقاقير والمعادن المجربة في خواص هذا الباب

قال الشيخ عز الدين الموصلي

قد سلونا عن الحبيب بخود ذات حسن فيها الجمال تفنن
ورجعنا عن التهتك فيه ودفعناه بالتي هي أحسن

السلو قد يعرض للعاشق بلا موجب بل من المقدرات الالهية كما انه يعشق الانسان بدون قصد ولا اختيار فكذلك يسلو محبوبه وينسى العشق بغير قصد وهو لا يشعر ولا يدري فيقع او بلا موجب اصلا ويقع السلو احيانا بموجب يقتضي ذلك كغدر اورؤية مكروه من المحبوب تشمئز نفس المحب منه او رؤية جميل آخر فتنتقل المحبة اليه فيسلو المحبوب الأول او غير ذلك ويحصل السلو بعض الاوقات بالمعالجة والمداواة والمداراة والتحفظ من التوغل في العشق والخوف من سطوة الحب والغرام وبعض الاحيان لا ينفع علاج ولا احتذار ولا يدخل السلو قلب المحب ولا يمر بفكر العاشق حتى يدخله القبر ولو عولج باصناف العقاقير وجميع الرقى وكل الملاهي والدواعي لما سلا القلب ولا انتهى فالحب والسلو كلاهما اضطراري لا اختيار للانسان في جلبه او دفعه ولكن توجد اسباب موجبة لذلك فاذا تهيئت الاسباب يكون زيادته ونقصانه ودفعه وجلبه بمقتضى تلك الأسباب وقال الشيخ يحيى بن ابراهيم الجحاف اليمني

انني بعد بُعْدكم قد سقيت من مدام السلو حتى رويت
لم يزل ساقي التسلي يسقيني كؤوسا من بعدها ما ظميت
ابدا يصبح الفؤاد ويضحى صاحيا من هواكم ويبيت
فكأني على الصبابة والتبريح والشوق والهوى ما ربيت
آه مالي على مفارقة الروح لجسمي يوم النوى ما خشيت
نزع الحب من فؤادي فسبحان اله يحيي الورى ويميت
وصحا القلب من هواكم فلم يحل لعيني عين وخد وليت
حب تلك الثغور عني تولى ما كأن يوما عليها وليت
ابلغوا الأعين المراض اللواتي كن أمرضنني بأني شفيت
واخبروا تلكم الخصور جميعا انني بالسلو عنها رضيت

[عمر بن أبي ربيعة]

....[1] بهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذِ الهوى جميعٌ وإذ لم نخشَ أن يتصدَّعا
وإذ نحن مثلُ الماءِ كان مزاجُه كما صفَّق الساقي الرحيقَ المشعشعا
وإذ لا نطيع العاذلين ولا نرى لواشٍ لدينا يطلب الصَّرْم مطمعا
تُنوعتنَ حتى عاودَ القلبَ سُقْمُهُ وحتى تذكّرتُ الحديثَ المودِّعا
فقلتُ لمطريهنَّ بالحسن إنما ضررتَ فهل تسطيع نفعاً فتنفعا
وهيَّجتَ قلباً كان قد ودَّع الصِّبا وأشياعَه فاشفعْ عسى أن تُشفَّعا
لئن كان ما قد قلتَ حقا فما أرى كمثلِ الأُلى أطريتَ في الناس أربعا
فقال تعالَ انظرْ فقلتُ وكيف لي أخاف مَقاماً أن يشيعَ فيشنُعا
فقال اكتفِلْ ثم التثمْ وَأْتِ باغياً فسلِّمْ ولا تُكثرْ بأن تتورَّعا
فإني سأُخفي العينَ عنكَ فلا تُرى مخافةَ أن يفشو الحديثُ فيُسْمَعا
فأقبلتُ أهوي مثلما قال صاحبي لموعده أُزجي قَعوداً مُوقَّعا
فلما تلاقينا وسلَّمتُ أشرقتْ وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتقنَّعا
تبالهنَ بالعرفان لما رأينَني وقلنَ امرؤٌ باغٍ أضلَّ فأوضعا
وقَرَّبنَ أسبابَ الهوى لمتيَّمٍ يقيس ذِراعاً كلما قِسْنَ أُصبعا
فلما تنازعنَ الأحاديثَ قلنَ لي أَخِفتَ علينا أن نُغَرَّ ونُخدعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً إليك وبيَّتنا له الشأنَ أجمعا
فما جئتَنا إلا على وَفقِ موعدٍ على ملأٍ منا خرجنا له معا

---

(١) النسخة ناقصة من بدايتها.

رأينا خلاءً من عيونٍ ومجلساً دميثَ الربى سهلَ المحلةِ مُمرِعا
وقلنا كريمٌ نال وصلَ كرائمٍ فحُقَّ له في اليوم أن يتمتَّعا

** كان أبو دهبل الجمحي جميلاً وضيئاً وكان عفيفاً، فخرج إلى الشام ونزل بجيرون، فجاءته عجوز وقالت له: إن ابنةً لي وردها كتاب من حميم لها، وليس عندها من يقرؤه، فتدخل إليها في هذا القصر فتقرؤه لها وتحتسب الأجر فيها.

فقبل كلامها على ظاهره ودخل معها، فأغلقت الباب دونه وأدخلته على امرأة في القصر كأنها فلقة قمر، فأعجبها فدعته إلى نفسها فأبى، فأمرت حشمها فسجنوه في منزل مِن الدار، ومُنع الطعام والشراب حتى كاد أن يهلك.

ثم أمرت به فأُخرج إليها، ودعته إلى نفسها فأبى وقال: أما الحرام فلا، ولكن إن أردت أن أتزوجك فعلت، فقالت: نعم، وأحسنت إليه حتى ردت له روحه، فتزوجته ومنعته من الخروج حتى طال ذلك عليه.

ثم قال لها ذات يوم: قد أثمتِ في ولدي وأهلي، فَأْذني لي في أن أطالعهم وأرجع إليك، فقالت: لا أستطيع فراقك، فعاهدها أن لا يغيب عنها أكثر من ستة أشهر، فقبلت ذلك وأعطته مالاً كثيراً وتحفاً وهدايا.

فخرج حتى قدم على أهله بمكة، فوجدهم قد نُعي لهم، واقتسم ولده ماله وزوجوا بناته، ووجد زوجته لم تأخذ من ماله شيئاً، ولم تزل تبكي حتى عمشت، فقال لبنيه: أما أنتم فحظكم ما أخذتم من مالي، وقال لزوجته: هذا المال كله لك فاصنعي به ما شئت.

وأقام عندها حتى قربت المدة ثم مضى إلى الشام، فوجد زوجته الثانية قد ماتت حزناً عليه وأسفاً لفراقه، فقال فيها:

صاحِ حيّا الإلهُ حيّاً ودوراً عند أصل الفتاة من جيرونِ
عن يساري إذا دخلتُ إلى الدا رِ وإن كنتُ خارجاً فيميني
فبتلكَ اغتربتُ بالشام حتى ظنَّ أهلي مُرجّماتِ الظنون
وهي زهراءُ مثلُ لؤلؤةِ الغَوْ وَاصِ مِيزَتْ من جوهرٍ مكنون
وإذا ما نسبتَها لم تجدها في سناءٍ من المكارم دُون
تجعل المسكَ واليلنجوج والنَّدْ دَ صلاءً لها على الكانون
ثُمَّ ماشيتُها إلى القبة الخَضْـ راءِ تمشي في مرمرٍ مسنون
قُبّةٍ من مراجلٍ ضربَتْها عند برد الشتاءِ في قيطون
ثم فارقتُها على خير ما كا نَ قرينٌ مفارقاً لقرين
فبكتْ خشيةَ التفرُّقِ للبَيْـ نِ بكاءَ الحزين إثْرَ الحزين
فسلي عن تَذكُّري واطمئنّي بإيابي وإن هُمُ عذلوني

** غضبت عائشة بنت طلحة يوماً على زوجها مصعب بن الزبير، وكانت من أحب الناس إليه، فتكدر عيشه وشكا ذلك إلى أشعب، فقال: ما لي منك إذا رضيتْ أصلح الله الأمير؟ قال: حكمك، قال: عشرة آلاف درهم، قال: ذلك لك.

فانطلق أشعب حتى أتاها فقال لها: جُعِلت فِداك، قد علمت حبي لك وميلي إليك قديما وحديثاً على غير منال أنلتنيه ولا فائدة أفدتنيها، وهذه حاجة

عرضت ترتهنين بها شكري وتقضين بها حقي بغير مرزية، قالت: وما هي؟ قال: قد جعل لي الأمير إن رضيت عنه عشرة آلاف درهم، قالت: ويحك لا يمكنني ذلك أبداً، فقال لها: بأبي أنت وأمي، إرضي عنه حتى يعطيني العشرة آلاف درهم ثم عودي إلى ما عودك الله من سوء خلقك، فضحكت من كلامه ورضيت، واصطلحت مع زوجها وأخذ أشعب الصلة.

** كان نصر بن الحجاج بن عِلاط من أجمل أهل المدينة المنورة وجهاً، بهر النساء جمالاً وتيمهن غراماً، وكان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعشقته الذلفاء وكانت جميلة باهرة في الحسن، فأرسلت إليه ودعته إلى نفسها، فزجرها ولم يوافقها على ذلك، فضنيت من أجله ودنفت من الوجد به، ولهجت بذكره حتى صار ذكره هجيرها.

فبينا عمر ذات ليلة يعس في بعض سكك المدينة إذ سمع نشيد شعر من دار فوقف يسمع، فإذا هي الذلفاء:

ألا سبيلَ إلى خمرٍ فأشربَها ... أم لا سبيلَ إلى نصر بن حَجّاجِ
إلى فتىً ماجد الأعراقِ مقتبلٍ ... تضيء صورتُه في الحالك الداجي
نِعْمَ الفتى في سواد الليلِ نصرتُه ... لبائسٍ أو لملهوفٍ ومحتاج
يا منيةً لم أُرَبْ فيها بضائرةٍ ... والناسُ من صادقٍ منها ومن راجي

فقالت لها امرأة كانت معها: من نصر بن حجاج؟ قالت: رجل وددت أنه معي في ليلة من ليالي الخريف في أطول ليلة من ليالي الشتاء وليس معنا أحد، فقال عمر: من هذه المتمنية؟ قيل له: الذلفاء، فأمر بإخراجها وحبسها، فعلمت أنه سمعها وهي تنشد الشعر، فأنفت أن يعاقبها فكتبت إليه:

قـل لـلإمـام الـذي تُـخشى بـوادرُه ما لي وللخمر أو نصر بن حجاجِ
إنـي عـنـيـتُ أبـا حـفـص يعذُهما شربُ الحليبِ وطرفٌ قاصرٌ ساجي
لا تـجـعـلِ الـظـنَّ حـقـاً أو تيقَّنَه إنّ السبيلَ سبيلُ الخائفِ الراجي
إن الـهـوى زمَّـه الـتـقـوى فخيَّسه حـتـى أقـرَّ بـإلـجـامٍ وإسـراجِ

فلما نظر عمر الأبيات سأل عنها فلم يخبر عنها إلا بخير، فأمر بإطلاقها من السجن وقال لها: لم يبلغنا عنك إلا خيرا.

وأرسل إلى المتمنى نصر بن حجاج فأحضره، فلما رآه بهره جماله فقال له: أنت تتمناك الغانيات في خدورهن، لا أم لك، أما والله لأزيلن عنك الجمال، ثم دعا بحجام فحلق جمته، ثم تأمله فقال: أنت محلوقاً أحسن، فقال: وأي ذنب لي في ذلك؟ فقال عمر: صدقت، الذنب لي إذا تركتك في دار الهجرة.

ثم أركبه جملاً وسيره إلى البصرة، وكتب به إلى مجاشع بن مسعود السلمي: بأني قد سيرت المتمنى نصر بن حجاج إلى البصرة، فلما ورد البصرة أنزله مجاشع في داره من أجل قرابته، وأخدمه امرأته شميلة بنت جنادة، وكانت أجمل امرأة بالبصرة، فعلقته وعلقها، وخفي على كل واحد منهما خبر الآخر لملازمة مجاشع لضيفه.

وكان مجاشع أمياً، وأما نصر وشميلة فكانا كاتبين، فعيل صبر نصر فكتب على الأرض في التراب بحضرة مجاشع: إني أحببتك حباً لو كان فوقك لأظلَّك أو تحتك لأقلَّك، فوقَّعت تحته غير محتشمة: وأنا كذلك، فقال لها مجاشع: ما الذي كتب؟ قالت: كتب كم تحلب ناقتكم؟ قال: وما الذي كتبت؟ قالت: كتبت وأنا، فقال مجاشع: ما هذا لهذا بطبق، فقالت أصدقك إنه كتب كم تغل

أرضكم؟ فقال مجاشع: ما بين كلامه وجوابك هذا أيضاً قرابة.

ثم كفأ على الكتابة جفنة، ودعا بغلام من الكتّاب فقرأه عليه، فالتفت إلى نصر وقال: يا ابن عم ما سيَّرك عمر إلى خير، قم فإن وراءك أوسع لك، فنهض مستحياً، وعدل إلى منزل بعض المسلمين ووقع لجنبه، وضني من حب شميلة ودنف حتى صار رحمة، وانتشر خبره وضرب نساء البصرة به المثل، فقلن: أدنف من المتمنى، كما ضرب أهل المدينة بمحبوبته الذلفاء المثل فقالوا: أصبى من المتمنية.

ثم بعد مدة وقف مجاشع على خبر علة نصر فدخل عليه عائداً، فلحقته رأفة لما رأى به من الدنف، فرجع إلى بيته وقال لشميلة: عزمت عليك لما أخذت خبزاً فلبكته بسمن، ثم بادرت به إلى نصر، فبادرت به إليه فلم يكن به نهوض ولا حركة وهو على آخر رمق، فضمته إلى صدرها وجعلت تلقمه بيدها، فعادت قواه وبَرُؤ كأن لم تكن به أدنى علة، فقال بعض عواده: قاتل الله الأعشى حيث يقول:

لو أسندتْ مَيْتاً إلى نَحْرها عاش ولم يُنقَل إلى قابرِ

فلما فارقته عاوده النكس، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لَعمريَ إنْ سيَّرتني أو حرمتَني وما نلتُ ذنباً إنَّ ذا لَحرامُ
وما ليَ ذنبٌ غيرُ ظنٍّ ظننتَه وفي بعض تصديقِ الظنونِ أثام
أإن غنَّتِ الحوراءُ يوماً بمنيةٍ وبعضُ أمانيِّ النساءِ غرام
ظننتَ بيَ الظنَّ الذي ليس بعده بقاءٌ وما لي في النَّدِيِّ كلام

وأصبحتُ منفيّاً على غير رِيبةٍ وقد كان لي بالمكّتين مقام
ويمنعني مما يُظَنُّ تَكرُّمي وآباءُ صدقٍ سالفون كرام
ويمنعها مما تمنّت صلاحُها وطولُ قيامٍ ليلَها وصيام
وهاتان حالانا فهل أنتَ راجعي وقد جُبَّ مني كاهلٌ وسنام

فلما وصلت الأبيات إلى عمر ونظرها سأل عنه فأُخبر بعفته، فكتب إلى أبي موسى الأشعري وأمره بالوصاة به، وأنه إن أحب الإقامة بالبصرة وإن أحب الرجوع إلى المدينة فذاك إليه، ولكن لم يفارقه السقم بعد ذلك، بل عاوده النكس، وبقي أياماً قلائل يتردد في علته إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وشميلة هذه كان يُقال لها خضراء بني سُليم، وهي أول من لبس الشفوف، وكانت من أجمل النساء.

** كانت ماوية من بنات ملوك العرب من أقيال اليمن في الجاهلية، ذات جمال وكمال وحسب ومال، فآلت أن لا تزوج نفسها إلا من كريم جميل، فبعثت يوماً غلماناً لها وأمرتهم أن يأتوها بأوسم من يجدونه من الحيرة، فجاءوا بحاتم فأكرمته.

وبعد أن ارتحل عنها دعته نفسه إلى أن يخطبها، فرجع إليها ليخطبها فلقي النابغة الذبياني ورجلاً من بني النبيت قصداها ليخطباها، فاتفقوا ودخلوا جميعاً عليها، فقالت لهم: مرحباً بكم، ما كنتم زواراً فما الذي جاء بكم؟ قالوا: جئنا زواراً خُطّاباً، قالت: أكفاء كرام، فأنزلتهم وفرقت بينهم وأسبغت لهم القِرى، وقالت: ليقل كل منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه، فإني أتزوج أكرمكم وأشعركم.

فانصرفوا إلى رحالهم، ونحر كل واحد منهم جزوراً، فتنكرت ماوية ولبست ثياباً لأمة لها خلقة وأعقبتهم، فأتت النبيتي فاستطعمته من جزوره، فأطعمها ثَيْلَ جَزوره، أي وعاء قضيبه فأخذته، ثم أتت النابغة فاستطعمته فأطعمها ذنب جمله فأخذته، ثم أتت حاتماً فاستطعمته فقال لها: قري حتى أعطيك ما تنتفعين به، فأعطاها من العجز والسنام ثم انصرفت، فأرسل إليها كل واحد منهم ظهر جمله، وأهدى حاتم إلى جاراتها مثل ما أهدى إليها.

وصبحوها في اليوم الثاني فاستنشدتهم ، فأنشدها النبيتي قائلاً:

هـلّا سـألـتِ النبيتيّينَ مـا حَسَبي عـنـد الـشـتـاءِ إذا مـا هـبّـتِ الـريـحُ

ثم قالت: أنشدنا يا نابغة، فأنشد:

هـلا سـألـتِ بني ذبيـانَ عـن حَسَبي عند الطِّعانِ إذا ما احمرَّتِ الحَدَقُ
وجـاءتِ الخيلُ مُـحـمَـرّاً بـوادرُهـا كـالـمـاء يسفح مـن لَـبّـاتـهـا العَلَق
والـخـيـلُ تعلم أنـي كـنـتُ فارسَها يـومَ الأكـسّ بـه مـن نـجـدةٍ روق
والـجـارُ يعلم أنـي لـسـتُ خـاذلَـه إن نـابَ دهـرٌ لعَظْم الـجـارِ مُعترِق
هــذا الـثـنـاء فـإن تـرضـي فـراضـيـةٌ أو تسخطي فإلى من تُعطَف العُنُق

ثم قالت: يا أخا طيء أنشدنا، فأنشدها:

أمــاويُّ قـد طـال التجنُّبُ والهجرُ وقـد عـذرتْـنـي فـي طـلابـكـمُ عـذرُ
أمـــاويُّ إن الـمـال غـــادٍ ورائـــحٌ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكر

أمــــاويّ إنــي لا أقــول لسائلي إذا جاء يوماً حلَّ في مالنا النَّزْر
أمـــــاويّ إمّــــا مــانـعٌ فمبيِّنٌ وإمـا عـطـاءٌ لا ينهنهه الزَّجْر
أمـاويّ مـا يغني الثـراءُ عـن الفتى إذا حَشرجتْ يوماً وضاقَ بها الصدر
أمـاويّ إن يُصبحْ صـداي بقفرةٍ من الأرض لا مـاءٌ لـديَّ ولا خمر
تَـرَيْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضائري وأن يـدي مـمـا بخلـتُ بـه صِفْر
أمــــاويّ إنــي رُبَّ واحــدِ أمِّه أخــذتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسر
وقـد علـم الأقـوامُ لـو أنَّ حاتماً أراد ثـراءَ المـال كـان لـه وَفْر
أمــاويّ إن المـال مـالٌ بذلتُه فــأوّلُــه شـكـرٌ وآخــره ذِكــر
وإنّــيَ لا آلــو بمـالي صنيعةً فــأولُــه زادٌ وآخــره ذُخْــر
يُفَكُّ به العاني ويُؤكل طيّباً ومـا أن تُعرّيه القِداحُ ولا الخمْرُ
ولا أظلم ابنَ العمّ إن كان إخوتي شُهوداً وقـد أودى بإخوته الدهر
غَنينا زمانـاً بالتصعلك والغنى وكـلاً سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنـا بَــأْواً على ذي قرابةٍ غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
وما ضرَّ جاراً يا ابنةَ القومِ فاعلمي يجاورني أن لا يكون له سِتْر
بعينيَ عن جارات قوميَ غفلةٌ وفي السمع مني عن أحاديثها وَقْر

فلما فرغوا من إنشادهم دعت بالغداء، وكانت أمرت إماءها أن يقدمن إلى كل رجل ما كان أطعمها، فقدمن إليهم ما كانت أمرتهن أن يقدمنه، فنكس النابغة والنبيتي رأسهما، فلما نظر حاتم ذلك رمى بالذي قدمته إليهما وأطعمهما مما قُدِّم إليه.

فقالت: إن حاتم أكرمكم وأشعركم، فتسللا منها، فلما خرجا قالت: يا حاتم خَلِّ سبيل امرأتك فأبى، فزودته وانصرف عنها، ثم بعد ذلك ماتت امرأة حاتم فعاد إليها وتزوجها فولدت له عدياً، وقيل إن عدياً من زوجته نوار.

** كان بشر بن مروان شديداً على العصاة، فكان إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسي وسمّر كفيه في الحائط بمسمار ثم نزع الكرسي من تحته فيضطرب معلقاً حتى يموت.

وكان في زمنه فتى من بني عجل مع المهلب يحارب الأزارقة، وكان الفتى عاشقاً لابنة عم له، فكتبت إليه تستزيره، فكتب إليها:

لولا مخافةُ بشرٍ أو عقوبتُه ... أو أن يُشَدَّ على كفّي بمسمارِ
إذاً لعطَّلتُ ثغري ثم زُرتكمُ ... إن المحبَّ إذا ما اشتاقَ زَوّارِ (١)

فكتبت إليه ابنة عمه:

ليس المحبُّ الذي يخشى العقابَ ولو ... كانت عقوبتَه في إلفه النارُ
بلِ المحبُّ الذي لا شيءَ يمنعه ... أو تستقرَّ ومن يهوى به الدار

فلما قرأ كتابها عطل ثغره وانصرف إليها وهو يقول:

أستغفرُ اللهَ إذ خفتُ الأميرَ ولم ... أخشَ الذي أنا منه غيرُ مُنتصرِ
فشأنُ بِشْرٍ بلحمي فَلْيعذّبه ... أو يعفُ عفوَ أميرٍ خير مقتدر
فما أبالي إذا أمسيتِ راضيةً ... يا هندُ ما نيل من شَعري ومن بَشَري

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «بلغ كتابة».

ثم قدم البصرة، فما أقام إلا يومين حتى وشى به واش إلى بشر، فقال بشر: عليَّ به، فقال له: يا فاسق عطلت ثغرك وأتيت للشر، هلموا الكرسي، فقال: أعز الله الأمير إن لي عذراً، فقال: وما عذرك؟ فأنشده الأبيات، فرق له وكتب إلى المهلب فأثبته في أصحابه.

** كان ببخارى رجل ظريف من طلبة العلم، فدخل يوماً إلى سوق النخاسين فعشق جارية بلغت في الحسن غايتها وفي الملاحة نهايتها، وعجز عن شرائها ولم يتحمل فراقها وصعب عليه بعدها وهجرانها، وكان من الفقر بحيث لم يملك قوت يومه فضلاً عن أن يملك مالاً يجعله ذريعة إلى مواصلتها أو امتلاكها.

فاستعار من بعض أصحابه ثياباً نفيسة، وبغلة لا يركبها إلا أعاظم الملوك، فلبس لباس التلبيس وركب البغلة، وجعل شركاء درسه يمشون في ركابه حتى دخل السوق، فظن النخاس أنه حاكم التجار الملقب بصدر جهان.

فجلس على غرفة ودعا صاحب الجارية وساومها فاشتراها منه بألف دينار، وأعتقها وتزوجها في المجلس بحضرة العدول، ورجع إلى منزله ببهجة وسرور ورد العواري إلى أصحابها، وبات مع الجارية في ليلة لم ير في عمره مثلها، وبعد يومين جاءه البائع يتقاضى الثمن فلقي المشتري وعرفه وفهم مكره وتفننه، فنتف لحيته ولطم وجهه ورجع خائباً.

** دخل أعرابي على زبيدة ليمدحها فقال:

أزبيدةُ ابنةُ جعفرٍ ... طوبى لزائرك المُثابْ
تُعطينَ من رجليكِ ما ... تُعطي الأكفُّ من الرِّغابْ

فتبادر العبيد ليوقعوا به، فقالت زبيدة: كفوا عنه فلم يرد إلا خيرا، ومن أراد خيراً فأخطأ خير ممن أراد شراً فأصاب، سمع الناس يقولون فقال، أعطوه ما أمل وعرفوه ما جهل.

** كانت تحت أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي، وكان قد أحبها حباً شديداً، ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً، فحلف لها أن لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة فوفى لها بذلك.

فخلا به خالد بن صفوان يوماً فقال: يا أمير المؤمنين فكرت في أمرك وسعة ملكك، وأنك قد ملّكت نفسك امرأة واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت وإن حاضت حضت، وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستظراف الجواري، ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناس التمتع بما يشتهى منهن.

فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، والبضة البيضاء، والعتيقة الأدماء، والذهبية السمراء، والبربرية العجزاء، والمولدات المدنيات اللاتي يفتن بمحاورتهن ويخلبن بحلاوتهن، ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء واللعساء من مولدات البصرة والكوفة، ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المخصرة والثدي النواهد المحققة وحسن زيِّهن وشكلهن لرأيت فتناً ومنظراً حسنا، وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن من الحياء والتخفر والدلال والتعطر.

وأطال خالد وبقي يزيد في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه، فقال له أبو العباس: ويحك يا خالد، والله ما سلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته منك فأعده عليَّ، فأعاده عليه وزاد فيه.

ثم انصرف خالد وبقي أبو العباس متفكراً مغموماً، فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبره كثيراً وتوافقه في جميع ما أراد لتديم مسرته، فقالت له: ما لي أراك مغموماً يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه أو خبر ارتعت له؟ قال: لم يكن شيء من ذلك، قالت: فما قصتك؟ فجعل يكتم عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بما قاله خالد، قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال: سبحان الله، أينصحني وتشتمينه.

فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيداً لها، وأمرتهم بضربه والتنكيل به، قال خالد: وكنت انصرفت إلى منزلي مسروراً بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين إلى كلامي، وإعجابه بما ألقيت إليه، وأنا لا أشك في الصلة، فلم ألبث أن جاء أولئك العبيد، فلما رأيتهم اقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة، فوقفوا عليَّ وسألوا عني، فعرفتهم بنفسي، فهوى إليَّ أحدهم بعمود كان في يده، فبادرت إلى الدار، وأغلقت الباب ومكثت أياماً لا أخرج من منزلي.

وطلبني أمير المؤمنين طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا عليَّ فقالوا: أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت، ولم أر دم شيخ أضيع من دمي، وركبت فلم أصل إلى الدار حتى استقبلني عدة رسل، فدخلت عليه فوجدته جالساً، فأومأ إليَّ بالجلوس فثاب إليَّ عقلي فجلست، وفي المجلس باب وعليه ستور قد أرخيت وخلفه حركة.

فقال لي: يا خالد لم أرك منذ ثلاث، قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين، قال: إنك وصفت لي من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط كلام أحسن منه فأعده عليَّ، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرة من الضرر، وأن أحدكم لم تكن له امرأتان إلا كان في ضرر ونكد وتنغيص.

قال: ويحك لم يكن هذا من حديثك، قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن ثلاثاً من النساء كأثافي القدر تغلي عليها أبدا، وأن الأربع شر مجموع لصاحبه يهرمنه ويسقمنه ويقهرنه، وأن أبكار الإماء رجال ولكن لا خصي لهن.

فقال السفاح: برئتُ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت منك من هذا شيئاً قط، قال خالد: بلى والله يا أمير المؤمنين، وعرفتك أن بني مخزوم ريحانة قريش، وأن عندك ريحانة الرياحين، وأنت تطمح عينك إلى الإماء والسراري، فقال: ويحك أتكذبني وتكذبني، فقلت: يا أمير المؤمنين أتقتلني وتقتلني.

قال خالد: فسمعت ضحكاً من وراء الستر، وقائلاً يقول: صدقت والله يا عماه بهذا حدثته ولكنه بدل وغير، ونطق على لسانك بما لم تنطق به، قال خالد: فقمت عنهما وتركتهما يتراودان في أمرهما، فما شعرت إلا برسل أم سلمة ومعهم المال وتحف وثياب، وقالوا لي: تقول لك أم سلمة إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا.

** كانت أم سلمة تحت عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان فهلك عنها، وكان لها مال عظيم وجوهر كثير، فبينما هي ذات يوم جالسة على قبره إذ مر بها السفاح، وكان وسيماً جميلاً، فسألت عنه فنسب إليها، فأرسلت إليه مولاتها تعرض له بخطبتها، وأرسلت إليه معها بمال، فاعتذر أبو العباس لمولاتها بفقره، فدفعت إليه المال الذي وجهته إليه معها، فقبل المال وتوجه إلى أخيها فخطبها إليه فزوجه إياها، فابتنى بها من ليلته.

ولما دخل عليها وجدها على منصة فصعد إليها، فإذا كل عضو منها مكلل

بالجوهر، فحاول مواقعتها على تلك الحالة فلم تكن له نهضة، فأزالت الجوهر وغيرت لباسها، ودنا منها فلم يستطع لشيء فآنسته وقالت: لا يضرك هذا فلم يزل هذا شأن الرجال، ولم يزل طول ليلته يعالجها إلى أن واقعها، وحظيت عنده وعظمت منزلتها لديه لما صار الأمر له، ووفى لها باليمين المذكور التي قبل هذه الحكاية إلى أن مات، ولم يقرب سرية ولا حرة غيرها.

وقال أحد مواليه: لعهدي به ليلة وأنا صغير، وهو على سريره مع أم سلمة إذ مر به جاريتان صغيرتان لم أر مثلهما قط قد اختمرتا كما تختمر الحرائر، فاستدعى بهما وقال لهما: أنتما إماء أم حرائر؟ فقالتا: بل إماء، قال: فما لكما وللخمار؟ قالتا: إن ذلك شأننا في بلادنا، وكانت أم سلمة أوصتهما بذلك قصداً أن لا ينظر إلى محاسنهما، فقال: انزعا خماريكما، فتأبتا فرقاً من أم سلمة، فأمر بعض الخصيان فنزعهما عنهما، فإذا هما أجمل النساء شعراً وسهولة خد وتمام قد، وقد نهدت الثُدِيّ في صدورهما كأنهما حقان، فنظر إليهما ملياً ثم قال لغلام من خدمه: اذهب بهما إلى فلان وفلان وقل لهما يتخذاهما لأنفسهما ويستوصيان بهما خيرا، فإني سائلهما عن خبرهما وحالهما.

وكل ذلك رضى لأم سلمة، ولكنها لم توف له بعد موته، فإنها تزوجت بعده عمه إسماعيل بن علي سراً، فكان يأتيها مستخفياً، وبلغ خبرها أبا جعفر المنصور فغضب غضباً شديداً وقال: وفى لها في حياته ولم توف له بعد وفاته، وأرسل إلى إسماعيل يحلف له بطلاق أم موسى[1] لئن لم تطلقها لأضربن عنقك فطلقها، وأخذ منها جميع ما صار إليها من أبي العباس من حلي وغيره،

(١) وأم موسى هذه هي زوج الخليفة أبي جعفر المنصور وأم ولديه جعفر ومحمد، وهي أم موسى بنت منصور الحميرية.

وقال: لو وفيت له لوفيناك، وقالوا: لم يكن أحد أحسن من أبي العباس خلقاً إذا خلا مع أهله.[١]

** ومما يقرب من هذا ما وقع للشيخ مهذب الدين ابن منير الطرابلسي، فقد ألجأه حب عبده تتر إلى أن ترك مذهبه الذي هو مذهب الشيعة والرافضة وتبرأ منه، وعزم على التمسك بمذهب أهل السنة والجماعة، وقد ذكرنا قصته مع القصيدة المشهورة التي نظمها في آخر باب العشق الكاذب وهو الباب الخامس من هذا الكتاب، فمن أراد الاطلاع على ذلك يراجعه في الباب المذكور.

** ومما يناسب ذلك ما حصل للشيخ مدرك بن محمد بن علي الشيباني مع محبوبه عمرو بن يوحنا النصراني، فقد ألجأه حبه إلى أن نظم فيه قصيدته المشهورة التي حلف فيها بأنواع أيمان النصرانية وبالإنجيل وبسائر القسس والرهابين.

وها نحن نختم بها هذا الباب للطافتها وانسجامها، وإن اعترض عليه بعضهم في عدم معرفته بتفصيل ديانات النصارى وقواعدهم، فقد ذكر ما خطر بباله من عوائدهم وما بلغه من قواعد ديانتهم، ثم زاد وكمّل على ذلك الحلّي حين خمَّس هذه القصيدة بما فات مدركاً من الإيمان والقواعد، فنقول في بيان ذلك.

كان الشيخ مدرك المذكور من أكابر علماء المغرب المتفقهين، وكان مطبوعاً في نظم الشعر الجيد الرقيق، ونشأ ببغداد وكان يقرىء الأدب، وله مجلس علم مخصوص لا يحضره فيه إلا الأحداث، وإذا دخله شيخ يخرجه، وكان عمرو بن يوحنا النصراني يحضر مجلسه هذا، وعمرو هذا كان من

(١) بعد هذه الورقة سقط واضح في الأصل.

أحسن أهل زمانه جمالاً وأدباً وأخلاقاً وأسلمهم طبعاً، فهام الشيخ مدرك به وعشقه وزاد فيه وجده، فكتب الشيخ رقعة يوماً وطرحها في حجر عمرو في مجلس الدرس، فقرأها فإذا فيها:

بـمـجـالـس الـعـلـمِ الـتـي بـك تَـمَّ حـسـنُ جـموعِـهـا
إلّا رثـيـتَ لـمـقـلـة غـرقـتْ بـمـاء دمـوعـهـا
بـيـنـي وبـيـنـك حـرمـةٌ الله فـي تـضـيـيـعـهـا

فاطلع عليها من في المجلس فاستحيا عمرو من ذلك وانقطع عن المجلس، فاشتد بالشيخ الوجد وترك التدريس، وصار يلزم دير الروم ويتبع عمراً وزاد به الوسواس حتى اختلط عقله ولزم الفراش، ونظم فيه قصيدته المشهورة بالمزدوجة، وقد زاد فيها الشيخ صفي الدين الحلي الشطر الخامس، فكمل بذلك ما نقص على الشيخ مدرك من أسماء المعظمين في دين النصارى وسائر عباداتهم ومواقيتهم، وهي هذه:

مـن عـاشـقٍ نـاءٍ هـواه دانـي نـاطـقُ دمـعٍ صـامـتُ الـلـسـانِ
مُـوثَـقُ قـلـبٍ مُـطـلـقُ الـجـثـمـانِ مـعـذَّبٌ بـالـصـدّ والـهـجـرانِ
(طـلـيـقُ دمـعٍ قـلـبُـه فـي أسـرِ)
مـن غـيـر ذنـبٍ كـسـبـتْ يـداهُ غـيـر هـوىً[1] نَـمَّـت بـه عـيـنـاهُ
شـوقـاً إلـى رؤيـة مـن أشـقـاه كـأنـمـا عـافـاه مـن أضـنـاهُ
(إذ كـان أصـلَ نـفـعِـه والـضـرِّ)

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «لكن هوى»

يا ويحَه من عاشقٍ ما يلقى ... من أدمعٍ منهلّةٍ ما ترقى
ذاب إلى أن كاد يفنى عِشْقا ... وعن دقيق الفكرِ سُقْماً دَقّا
(فكاد يخفى عن دقيق الفِكرِ)

لم يبقَ منه غيرُ طَرْفٍ يبكي ... بأدمعٍ مثل نظامِ السلكِ
تخمد نيرانُ الهوى وتذكي ... منهلّةً قطرَ السماءِ تحكي
(هيهات هل قِيسَ دَمٌ بقَطْرِ)

إلى غزالٍ مِن بني النصارى ... عذارُ خَدّيه سبى العذارى
وغادرَ الأُسْدَ به حيارى ... في ربقة الحبِّ له أسارى
(تُنشد قولَ مدركٍ في عمرِو)

ريمٌ بدار الرومِ رام قتلي ... بمقلةٍ كحلاءَ لا من كُحْلِ
وطُرّةٍ بها استتار عقلي ... وحُسنِ وجهٍ وقبيح فعلِ
(وعُظْمِ رِدْفٍ ونحيل خَصْرِ)

ريمٌ به أيُّ هزبرٍ لم يُصَدْ ... يقتل باللحظ ولا يخشى القَوَدْ
متى يقلها قالتِ الألحاظُ قَدْ ... كأنه[1] ناسوتُه حين اتّحدْ
(أفديه من ريمٍ ومن هزبرِ)

ما أبصرَ الناسُ جميعاً بدرا ... ولا رأوا شمساً وغصناً نَضْرا
أحسنَ من عمرٍو فُدِيت عَمْرا ... ظبيٌ بعينيه سقاني خمرا
(فما أفقتُ ساعةً من سُكري)

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «كأنها».

وهـــا أنـــا بـــقَـــدّه مـقــدودُ والـدمـعُ فـي خَـدّي لـه أُخـدودُ
مـا ضـرَّ مَـنْ فـقـدي بـه مـوجـودُ لـو لـم يُـقـبِّـحْ فـعـلَـه الـصـدودُ
(فـديـتُـه ولـو أطـال هـجـري)
إنْ كـان ذنـبـي عـنـده الإسـلامُ فـقـد سـعـتْ فـي نـقـصـه الآثـامُ
واخـتـلّـتِ الـصـلاةُ والـصـيـامُ وجـاز فـي الـديـن لـه الـحـرامُ
(يـا خيبتي إن لـم أفـز بـغَـفْـرِ)
يـا لـيـتـنـي كـنـتُ لـه صـلـيـبـا أكـون مـنـه أبـداً قـريـبـا
أُبـصـر حـسـنـاً وأشـمّ طـيـبـا لا واشـيـاً أخـشـى ولا رقـيـبـا
(ولا أخـاف أبـداً مـن غـدرِ)
يـا لـيـتـنـي كـنـتُ لـه قـربـانـا ألـثـم مـنـه الـثـغـرَ والـبـنـانـا
أو جـاثـلـيـقـاً كـنـتُ أو مـطـرانـا كـيـمـا يـرى الـطـاعـةَ لـي إيـمـانـا
(فـلا يـزال الـدهـرَ طـوعَ أمـري)
يـا ليتني كنت لـعـمرو مُصحَفا يـقـرأ مـنـي كـلَّ يـوم أَحـرفـا
أو قَـلَـمـاً يـكـتـب بـي مـا ألّـفـا مـن أدبٍ مُـسـتـحـسـنٍ قـد صنَّفا
(ويـجـعـل الـرِّيـقَ بـديـل الـحـبـرِ)
يـا لـيـتـنـي كـنـت لـعـمـروٍ عُـودَهْ أو حـلَّـةً يـلـبـسـهـا مـقـدودهْ
أو بـركـةً بـاسـمـةً مـحـدوده أو بـيـعـةً فـي داره مـشـهـوده
(يـدلـج فـي أرجـائـهـا ويـسـري)

بل ليتني كنت له زُنّارا يُديرني في الخصر كيف دارا
حتى إذا الليلُ طوى النهارا صرتُ له حينئذٍ أزرارا
(أضمّه إلى طلوع الفجرِ)

قَدْ والذي يُبقيه لي أفناني وابتزَّ عقلي والضنى كساني
ظبيٌّ على البعاد والتداني حلَّ محلَّ الروحِ من جثماني
(فليس لي عن قربه من صبرِ)

وا كبدي من خَدّه المضرَّجِ وا كبدي من ثغره المفلَّجِ
لا شيءَ مثلُ الطرفِ منه الأدعجِ أذهبُ للنُّسك وللتحرُّجِ
(إلا نظام ثغرِه بالدرِّ)

إليك أشكو يا غزالَ الإنسِ ما بي من الوحشة بعد الأنسِ
يا من هلالي وجهُه وشمسي لا تقتلِ النفسَ بغير النفسِ
(وجُدْ بوصلٍ لسَقَامي يُبرِي)

جُدْ لي كما جدتَ بحسن الودِّ وارعَ كما أرعى قديمَ العهدِ
واصددْ كصدّي عن طويل الصدِّ فليس وَجْدٌ بكَ مثلَ وجدي
(وليس ذكرٌ لك مثلَ ذكري)

ها أنا في بحر الهوى غريقُ سكرانُ من حبك لا أفيقُ
محترقٌ ما مسّني حريقُ يرثي ليَ العدوُّ والصديقُ
(من حَرِّ صدري وعظيم ضُرِّي)

فليت شعري فيك هل ترثي لي ... من سَقَمٍ بي وضنىً طويلِ
أم هل إلى وصلك من سبيلِ ... لعاشقٍ ذي جسدٍ نحيلِ
(أنحله حبُّكَ طولَ الدهرِ)

في كلّ عضوٍ منه سُقْمٌ وأَلَمْ ... ومقلةٌ تبكي بدمعٍ وبدمْ
شوقاً إلى بدرٍ وشمسٍ وصنمْ ... منه إليه المشتكى إذا ظلمْ
(أفديه من شمسِ ضُحىً وبدرِ)

أقول إذ قام بقلبي وقعدْ ... يا عمرُو يا عامرَ قلبي بالكمدْ
أُقسم بالله يمينَ المجتهدْ ... إنِ امرأً أسعدتَه لقد سعدْ
(وكان من أشقيتَه في حَرِّ)

يا عمرُو ناشدتك بالمسيحِ ... إلا استمعتَ القولَ من فصيحِ
يُخبر عن قلبٍ له جريحِ ... ناح بما يلقى من التبريحِ
(كسيرَ قلبٍ ما له من جَبْرِ)

يا عمرُو بالحق من اللاهوتِ ... والروح روح القدسِ والناسوتِ
ذاك الذي في مهده المنحوتِ ... عوّضَ بالنطق عن السكوتِ
(وأنشرَ المَيْتَ ببطن القبرِ)

بحق ناسوتٍ ببطن مريمِ ... حلَّ محلَّ الريقِ منها في الفمِ
ثم استحلَّ في الأُقنوم الأقدمِ ... فكلَّم الناسَ ولما يُفْطَمِ
(مُصرِّحاً عن أُمّه بالعذرِ)

بحق من بعد الممات قُمِّصا ثوباً على مقداره ما قُصِصا
وكان لله تقيّا مخلصا يشفي ويُبري أكمهاً وأبرصا
(بما لديه من خفيِّ السرِّ)

بحقّ مُحيي صورةِ الطيورِ وباعثِ الموتى من القبورِ
ومن إليه مرجعُ الأمورِ يعلم ما في البرّ والبحورِ
(وما به صَرْفُ القضاءِ يجري)

بحق من في شامخ الصوامعِ من ساجدٍ لربه وراكعِ
يبكي إذا ما نام كلُّ هاجعِ خوفاً من الله بدمعٍ هامعِ
(ويهجر اللذاتِ طولَ العمرِ)

بحق قومٍ حلقوا الرؤوسا وعالجوا طولَ الحياةِ بُوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا مُشْمَعِّلينَ يعبدون عيسى
(قد أخلصوا في سِرّهم والجهرِ)

بحق ماري مريمٍ وبولسِ بحق شمعونَ الصفيْ وبطرسِ
بحق دانيلَ بحق يونسِ بحق حزقيلَ وبيت المقدسِ
(وكلِّ أَوّابٍ رحيبِ الصدرِ)

ونينوى إذ قام يدعو ربَّهُ مطهِّراً من كل سوءٍ قلبَهُ
ومستقيلاً فأقال ذنبَهُ ونال عند الله ما أحبَّهُ
(إذ رام من مولاه شَدَّ الأَزْرِ)

بحق ما في قلّة الميرونِ   من نافع الأدواءِ للمجنونِ
بحق ما يُؤثر عن شمعونِ   من بركات النخلِ والزيتونِ
(خصبِ البلادِ في السنين الغُبْرِ)
بحق أعيادِ الصليبِ الزُّهْرِ   وعيدِ أشموني وعيد الفطرِ
وبالشعانين العظامِ القَدْرِ   وعيد مرماري الرفيعِ الذكرِ
(مواسمٌ تمنع حملَ الإصْرِ)
بعيد شعياءَ وبالهياكلِ   والدُّخَنِ اللاتي بكفّ الحاملِ
يُشفى بها من خَبْل كل خابلِ   ومن دخيل السمِّ في المفاصلِ
(لكونها من كل داءٍ تُبري)
بحق سبعين من العُبّادِ   قاموا بدين الله في البلادِ
وأرشدوا الناسَ إلى الرشادِ   حتى اهتدى من لم يكنْ بهادي
(وحُقِّقَ الحقُّ بكشف السترِ)
بحقّ ثِنْتَيْ عشرةٍ من الأممْ   ساروا إلى الأقطار يتلون الحِكَمْ
حتى إذا صبحُ الهدى جلا الظُّلَمْ   صاروا إلى الله ففازوا بالنِّعَمْ
(ثم استداموها بفَرْط الشُّكرِ)
بحق ما في مُحكم الإنجيلِ   من مُنزل التحريمِ والتحليلِ
وخَبَرٍ ذي نبأٍ جليلِ   يرويه جيلٌ قد مضى عن جيلِ
(يسند زيدٌ علمَه عن عمرِو)

بحقِّ مرعيدِ الشفيقِ الناصحِ بحق لوقا ذي الفعالِ الصالحِ
بحق يوحنّا الحكيمِ الراجحِ والشهداء بالفلا الصحاصحِ
(الراغبين في عظيم الأجرِ)

بحق معموديةِ الأرواحِ والمذبحِ المشهورِ في النواحي
ومن به من لابسي الأمْساحِ من راهبٍ باكٍ ومن نَوّاحِ
(ينثر عِقْداً من دموعٍ حُمْرِ)

بحق تقريبك في الأعيادِ وشُربِكَ القهوةَ كالفِرصادِ
بما بعينيك من السوادِ وطولِ تفتيتك للأكبادِ
(وسلبِكَ العشّاقَ حسنَ الصبرِ)

بالحمد لله وبالتنزيهِ وحقِّ ما قُدِّسَ سعياً فيهِ
بحق نسطورٍ وما يرويهِ عن كل ناموسٍ وعن فقيهِ
(مُتَّبعٍ في نهيه والأمرِ)

بحق جمعٍ من شيوخ العلمِ وبعضِ أركان التقى والحلمِ
لم ينطقوا قَطُّ بغير فهمِ فموتُهم كان حياةَ الخصمِ
(وعنهمُ أخبرَ كلُّ حَبْرِ)

بحرمة الأسقفِ والمطرانِ والجاثليق العالمِ الرباني
والقسِّ والشمّاسِ والديراني والبطركِ الأكبرِ والرهبانِ
(والمغرباني ذي الخصالِ الزُّهْرِ)

بحرمة المحبوسِ في أعلى الجبلْ ومارقولا حين صلّى وابتهلْ
وبالسليح المرتضى وما فعلْ وبالكنيسات القديمات الأُوَلْ
(وبالذي يُتلى بها من ذِكْرِ)

بحرمة الأسقفيا والبيرمِ وما حوى مغفرُ رأسِ مريمِ
بحرمة الصومِ الكبيرِ الأعظمِ وحق كلِّ بركةٍ ومرهمِ
(وبيلسانٍ عندها وعطرِ)

بحق يومِ الذبحِ في الإشراقِ وليلةِ الميلاد والتلاقي
والمذهَب المُذهبِ للنفاقِ والفُصْحِ يا مهذَّبَ الأخلاقِ
(وكلِّ ميقاتٍ جليلِ القَدْرِ)

بكلّ قُدّاسٍ على قُدّاسِ قدّسه القسُّ مع الشمّاسِ
وقرَّبوا يومَ الخميسِ الناسي وقدَّموا الكأس لكل حاسي
(تُوقد في راحته كالجمرِ)

إلا سعيتَ في رضا أديبِ باعدَه الحظُّ عن الحبيبِ
فذاب من شوقٍ إلى المذيبِ أعلى مُناه أيسرُ القريبِ
(من بَسْطِ أخلاقٍ وحُسنِ بِشْرِ)

فانظرْ أميري في صلاح أمري محتسباً فيَّ عظيمَ الأجرِ
مكتسباً مني جميلَ الشكرِ في نشر ألفاظٍ ونظم شِعر
(إذ فيكَ نظمي أبداً ونثري)

** وحُكي أن رجلاً رأى امرأة فوقعت في قلبه، فأظهر لها حبه ورغبته فيها، فقالت له: ما تريد؟ قال: أنا أحبك، فقالت له: إعلم أني مجوسية، فقال: أنا أدخل في دينك، فبصقت في وجهه وقالت له تبيع دينك بشهوة ساعة، إذا لم يكن لك خير في دينك فلا خير لي فيك وتركته ومضت ....[1]

بنفسيَ كلُّ مهضومٍ حَشاها إذا ظلمتْ فليس لها انتصارُ

فقال نصيب: أنا قلته، فقالت له: أغزلت وأحسنت ولا كرمت لأنك صبوت إلى الصغار وتركت الناهضات بأحمالها، خذ هذه السبعمائة درهم فاستعن بها، ثم انصرفت إلى مولاتها، ورجعت إليهم وقالت: أيكم القائل؟

وأعجبني يا عَزُّ منكِ خلائقٌ كرامٌ إذا عُدَّ الخلائقُ أربعُ
دُنُوُّكِ حتى يذكرَ الجاهلُ الصِّبا ودفعُكِ أسبابَ المنى حين يَطمع
فواللهِ ما يدري كريمٌ مطلتِهِ أيشتدّ إن لاقاك أو يتضرَّعُ
وإنك إن أوصلتِ أعلمتِ بالذي لديكِ فلم يُوجد لكِ الدهرَ مَطمعُ

فقال كثير: أنا قلته، فقالت: أغزلت وأحسنت، خذ هذه الثمانمائة درهم فاستعن بها، ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت فقالت: أيكم القائل؟

لكلّ حديثٍ بينهنَّ بشاشةٌ وكلُّ قتيلٍ بينهنَّ شهيدُ
يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ وأيُّ جهادٍ غيرَهنَّ أُريد
وأفضلُ أيامي وأفضلُ مشهدي إذا هِيج بي يوماً وهنَّ قعود

---

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

فقال جميل: أنا قلته، فقالت: أغزلت وأحسنت وكرمت وعففت أدخل، فدخل وبقي أصحابه على الباب ينتظرونه ليعلموا خبره، فلما وصل جميل والجارية أمامه إلى سكينة سلم عليها فردت عليه السلام ثم قالت له: أنت الذي جعلت قتيلنا شهيداً، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوم تذب وتدافع عنا، ولم تتعد ذلك إلى قبيح، خذ هذه الألف درهم، وابسط لنا العذر فأنت أشعرهم.

** ومما يحكى ما وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بين بشر وهند من المحبة:

وذلك أن رجلاً من الصحابة رضوان الله عليهم اسمه بشر من بني أسد، وكان يذهب كل يوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الشريف خصوصاً في أوقات الصلوات ويرجع إلى داره، وكانت في المدينة المنورة امرأة من جهينة اسمها هند، وكانت ساكنة في ممر بشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلقته وشغفت به، فصارت تتعرض له وتنشده الأشعار وترغبه أن يدخل عندها، وأكثرت التشبب والتعرض له.

فلما [رأى] بشر إلحاحها هجر ذلك الممر وصار يأتي من طريق آخر، فلزمت هند الوساد، وهَمّ زوجها أن يدعو لها الأطباء فنهته وقالت: أنا أعرف علتي، فلما علمت الطريق التي يمر منها بشر أخبرت زوجها أنها رأت في نومها بأنها متى سكنت في موضع كذا شفيت، فنقلها زوجها من وقته إلى ذلك الطريق، فكانت تنظر إلى بشر كلما مر إلى الصلاة فبرأت.

وأطلعت عجوزاً على أمرها، فوعدتها أن تجمعها به، ثم وقفت له العجوز بالطريق أمام بيت هند، فلما مر بها سألته أن يأتيها يوماً فيكتب لها كتاباً لترسله إلى ولد لها غائب فأجابها إلى ذلك، وهند تسمع كلامهما من شباك.

ثم قالت له العجوز: أراك مسحوراً وما قلت لك إلا عن يقين، ثم وعدته أن يأتيها يوماً لتنظر فيما يصلح له، ثم دخلت على هند وقالت لها: قد سمعت فتهيئي.

فلما خرج زوجها إلى بعض القرى وعدت العجوز بشراً، فلما جاء أدخلته، وحين جلس أدخلت عليه هند وأغلقت الباب، فجاء زوجها في تلك الساعة، فلما دخل ووجد عندها بشراً طلقها ومضى ببشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله سل هذا لم دخل بيتي؟ فقال بشر: والذي بعثك بالحق ما كفرت منذ أسلمت، ولا زنيت مذ عرفتك، ولكن القصة كذا وكذا، وأحكاه بالحقيقة كما هي تفصيلاً.

فأدّب العجوز وقال لها: أنت أصل البلية، وانصرفوا فلم يمكث بشر حتى ابتلي بحب هند وراسلها ليتزوجها فامتنعت، فلم يزل به حبها حتى مات فجأة، فحين بلغ هنداً موته سقطت ميتة ودفنا معاً، فجاءت العجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم معتذرة تائبة وأخلصت توبتها.

** ومما يحكى عن تنسك مسكين الدارمي في بعض الروايات:

أن رجلاً عراقياً تاجر بز، قدم إلى المدينة المنورة بتجارة عظيمة، ومن جملة بزه خمر سود، غير أنه أكثر من الخمر السود حتى كانت أغلب تجارته منها، فباع جميع ما عنده من البضائع إلا الخمر السود، فما سيمت ولا باع منها ولا خماراً واحداً لكسادها وعدم الرغبة لها، فعزم على أنه يردها معه إلى بلده.

فقال له عبد الله بن مسلمة: ماذا عليك إن نفقتها لك؟ قال: جميع الربح لك، قال: لا ولكني أقنع بنصف الربح، قال: نعم هو لك، فذهب عبد الله إلى

مسكين الدارمي في المسجد، وكان إذ ذاك مسكين قد تنسك وترك الغزل والغناء والملاهي، بل ترك الدنيا بما فيها، واعتكف على العبادة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخرج من باب المسجد أصلاً بل مداوم الاعتكاف صيفاً وشتاءً، مشتغل بالعبادة ليلاً ونهاراً، فأخبره بقصة الخمر السود وصاحبها واتفاقه معه.

وطلب منه وتوسل عليه أن ينظم له أبياتاً في هذا الخصوص، ويخرج إلى باب السلام وينشد الأبيات عند باب المسجد الشريف، ثم يدخل المسجد ويعود إلى تنسكه وعبادته، فأجابه إلى ذلك ونظم هذين البيتين وخرج إلى عتبة باب السلام ....[١]

.... وسمع رجلٌ منشداً ينشد قول الشاعر:

ومن لا يُرِدْ مدحي فإن مدائحي نَوافقُ عند الأكرمين نوامي
نَوافقُ عند المشتري الحمدَ بالندى نفاقَ بناتِ الحارثِ بن هشامِ

فقال له: يا ابنَ أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام؟ قال: كن من أجمل الناس وجوهاً، وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن، فرغب فيهن الرجال، فقال: يا ابن أخي لو فعل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون.

❊❊ وقيل أن صياداً أتى أبرويز ملك الفرس بسمكة فأعجبه حسنها وشكلها، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطّأته شيرين زوجته وقالت له: ليس من الرأي

---

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

أن تدفع هذا المبلغ في سمكة، فقال لها: قد حصل ذلك فماذا أفعل، قالت: إبعث إلى الصياد وقل له أذكراً كانت السمكة أم أنثى؟ فإن قال لك ذكر فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنها أنثى فاطلب منه الذكر، وأجله في أداء المبلغ المذكور له إلى إحضار ذلك.

فلما أتوه بالصياد سأله بما أشارت به زوجته، فقال الصياد: كانت أنثى، فقال: ائتني بذكرها، فقال: أطال الله عمر الملك كانت بكراً لم تتزوج، فقال: زه !!، وأمر له بثمانية آلاف درهم، وقال: اكتبوا في كتاب الحكمة: الغدر ومطاوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل.

** قال الأصمعي للرشيد يوماً في حديثه: يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلاً من العرب طلق في يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك؟ ولا يجوز للرجل غير أربعة، قال: يا أمير المؤمنين كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهن يوماً فوجدهن متنازعات، وكان شريراً فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة لامرأة منهن، إذهبي فأنت طالق، فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح، فقال لها: وأنت أيضاً طالق، فقالت له الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، فقال لها: وأنت أيضاً أيتها المعددة أياديهما طالق، فقالت الرابعة: ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق، فقال لها: وأنت طالق أيضاً.

فسمعته جارة له فأشرفت عليه وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لِما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيتَ إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة، فقال لها: وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيها طالق إن أجازني بعلك، وكان زوجها حاضراً يسمع فأجابه قائلاً: قد أجزت، فطلقت

الجارة أيضاً وهي الخامسة، فتعجب الرشيد من ذلك.

** وقيل أن رجلاً جاء بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم، وهو إذ ذاك وال على الكوفة فقال: أيها الأمير إن امرأتي هذه شجتني، فنظر إليها عبد الرحمن وقد بهره جمالها وسألها عن دعوى زوجها فقالت: نعم يا مولاي إني غير متعمدة لذلك، كنت أعالج طيباً فوقع الفهر من يدي على رأسه وليس عندي علم، ولا يقوى بدني على القصاص.

فقال للرجل: وعلام تمسكها وقد فعلت بك ما أرى؟ فقال: يا مولاي إن صداقها أربعة آلاف درهم صحيحة، ولذلك لا تطيب نفسي بفراقها، فقال: إن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها؟ قال: نعم، قال: هي لك، قال: فهي إذن طالق، فقال لها عبد الرحمن: احبسي علينا نفسك، ودفع المال للرجل وصرفه.

** ويحكى أنه وقع بين الأعمش وزوجته وحشة وتشاجرا، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال لها: إن أبا محمد شيخ كبير وعالم جليل، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه ودقة ساقيه وضعف ركبتيه ونتن إبطيه وبخر فيه وجمود كفيه، فقال له الأعمش: قم قبحك الله، هل أتيت لتصلح بيننا أم لتعدد عيوبي، فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه.

** ويحكى أن اثنين تقدما إلى أبي صمصامة القاضي، فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً فأنكر، فقال للمدعي: لك بيِّنة؟ فقال: لي شاهدان، فأحضر رجلين شهدا له، فقال المدعى عليه: سلهما يا سيدي عن صناعتهما، فأخبر أحدهما أنه نباذ، وقال الآخر أنه قواد، فالتفت القاضي إلى المدعى عليه وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين؟ إدفع إليه طنبوره.

** ويحكى أن شريك بن عبد الله القاضي دخل على المهدي يوماً فأراد المهدي أن يبخره، فقال للخادم: أحضر للقاضي عوداً، فذهب الخادم وجاء بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك، فاضطرب شريك من ذلك وقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: عود أخذه صاحب العسس البارحة، فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضي، فقال شريك: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، ثم أفاضوا في الحديث حتى نُسِيَ الأمر، فقال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلاً له أن يأتي بشيء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشيء، فقال: يضمن يا أمير المؤمنين، فقال للخادم: اضمن ما أتلفت.

** ومما يحكى أيضاً أن جماعة في حلب اتفقوا في فصل الشتاء أن يسهروا كل ليلة في دار رجل منهم، كعادة دورية أهل المدينة، يتحدثون ويقطعون الليل بالمسامرة والألعاب والمأكل، فاتفق أنهم كانوا مجتمعين ليلة كعادتهم فجرى الحديث بينهم إلى أن في حلب خارج باب المقام في طريق الصالحين بئر مسكونة يطرقها الجن، وأنه لا يقدر أحد أن يطرق تلك النواحي ليلاً خصوصاً إذا كان منفرداً.

فقال أحد الحاضرين في المجلس: من منكم أيها الشبان يتوجه إلى البئر المذكورة في هذه الساعة ويصنع لنا هناك حلاوة مأمونية، وله عندي مع هذه الجمعية ليلة مثل هذه الليلة، فقام رجل منهم وقال: أنا لها.

فاتفقت الجماعة معه على الشرط المذكور، وأعطاه صاحب المنزل جميع ما يلزمه لطبخ الحلاوة من حطب وأواني وسكر وغير ذلك، فأخذه وتوجه وكانت ليلة حالكة السواد مظلمة، والوقت نحو نصف الليل، والمحل المقصود كان إذ ذاك منقطعاً مخوفاً.

فلما بلغ البئر أوقد ناراً ووضع عليها القدر، وشرع يجري ما يلزم من مقدمات الحلاوة وجلس، وبينما هو جالس وإذا برأس كبير بهيئة كئيبة وعليه شعر متلبد مَخوفٌ ظهر من فم البئر، وقال لذلك الرجل مخاطباً له: نينه نينه، فقال له الرجل: اصبر فإن الحلاوة لم تستوِ وعند استوائها أطعمك، فغاب الرأس في البئر، وبعد برهة ظهر أيضاً وخاطب الرجل بالكلمات السابقة وهي نينه نينه، فقال له: ما قلت لك لم تستوِ اصبر ولا تعجزني، فغاب الرأس ثم ظهر بالألفاظ المتقدمة، فاستشاط الرجل غيظاً وغضباً وقال للرأس: إلى متى وأنا أقول لك اصبر إلى أن تستوي الحلاوة وأنت تعجزني، هل أنا أعجل من النار؟ وسحب سيفاً كان معه وضربه به فانقطع الرأس وطاح خارج البئر.

ثم رجع إلى إكمال طبخ الحلاوة، وعندما نضجت وضعها في طبق ولف الرأس في مشلح كان معه، وحمل الجميع إلى أصحابه فرآهم في انتظاره، فوضع الحلاوة أمامهم، فقالوا له: ما هذا الذي في المشلح؟ فحدثهم بما جرى وأخرج الرأس وطرحه بين أيديهم، وقال لهم: لا أعلم هل هو رأس حيوان أو جني أو إنسان، فتأملوا فيه فإذا بالشعر الذي عليه مستعار فأزالوه فانكشف لهم عن رأس أحد أفراد جمعيتهم.

وسبب ذلك أنه قصد إرعاب ذلك الرجل الذي توجه إلى البئر، فعمد إلى تغيير هيئته، ووضع عل رأسه زفتاً وشعراً وخلاف ذلك من تغيير الهيئة، وسبق صاحبه إلى المحل، ونزل في البئر واختفى وفعل ما فعل، حتى نفذ القضاء بأجله على يد صاحبه.

ثم أن الجمعية وجدوا أنفسهم قد وقعوا في ورطة عظيمة وخطر جسيم، فتعاهدوا على كتمان الخبر، وقالوا لبعضهم: ذهب الهزل وجاء الجد،

فلنذهب جميعاً ونخرج جثة الرجل من البئر وندفنها، فنهضوا جميعاً وأخذوا معهم الرأس وأخرجوا الجثة من البئر ودفنوها مع الرأس، وعادوا قبل انتشار الضوء لئلا يشعر بهم أحد.

ثم لما أصبح الصباح واعتلى النهار ذهبوا إلى دار المقتول، وأخبروا امرأته بأن زوجها سافر لأمر ضروري وطلب حثيث من بعض شركائه، وقد وجد جماعة مسافرين إلى تلك الجهة فرافقهم، وما قدر أن يرجع ليخبرك أو يأخذ زاداً أو متاعاً خوفاً من أن تفوته الرفقة فلا يجد رفقة أخرى ولا بعد شهر، فلا ينشغل خاطرك من جهته، وقد أوصانا عليك وعلى أولادك بجميع ما يلزمكم إلى أن يعود.

ثم اجتمعوا وتداولوا فيما بينهم وتبرع كل شخص من أفراد الجمعية المذكورة بألف قرش لتربية الأولاد الأيتام ووالدتهم، وكان أفراد الجمعية عشرة أشخاص فجمعوا المال عند رجل تاجر منهم لينميه ويصرف عليهم منه ويقوم بتربيتهم إلى أن يبلغوا رشدهم.

ثم بعد أيام كتبوا للمرأة كتاباً على لسان زوجها، وبينوا فيه اعتذاره عن سفره المستعجل بدون علمها، وأنه وكل فلاناً في صرف ما يلزم لها ولأولادها إلى أن يعود.

وبعد شهر أو شهرين كتبوا جواباً على لسان بعض التجار بأن فلاناً قد تُوفي إلى رحمة الله تعالى، فأخبروا زوجة المقتول بموت زوجها وأطلعوها على الجواب، فأقامت له العزاء واعتدت.

ثم ذهبوا جميعاً إلى المحكمة وأخبروا القاضي بموت الرجل وأثبتوا موته

وورثته، وجعلوا الرجل الذي عنده الدراهم القائم بخدمة الأطفال وصياً عليهم، فجمع تركة القتيل وباع واشترى وتصرف وأنمى المال، وصرف عليهم إلى أن بلغت الأطفال رشدها فأسلمهم حقوقهم، وبقي الأمر مكتوماً بينهم.

** ومثل هذه الحكاية بعينها جرت نادرة أخرى في مكة المشرفة، وذلك يحكى أنه كان رجل شريف من أشراف مكة فقير الحال، له بيت صغير خراب جهة المسفلة يسكنه، وكان خواصاً تعلم صنعة ضفر الخوص وجعله قففاً ومكاتل ويبيعها ويتعيش بثمنها.

وكان ظريفاً لطيفاً شجاعاً كريماً، إلا أن عيبه الفقر، وكان له عشرة أصحاب من أصحاب الأموال المعتبرين وأعيان البلدة المشهورين، بعضهم من الأشراف وبعضهم من العوام، وكلهم يحبونه ويميلون إليه طبعاً لظرفه ولطفه وحسن حديثه، ويسهرون عنده كل ليلة لطيب سمره وفضله وأدبه، وهو يتحدث معهم ويضفر في الخوص.

ففي ليلة من الليالي جرت المذاكرة في الشجاعة والخوف والجن والأماكن التي سكنتها الجن فلا يقدر أحد أن يسلكها ليلاً، ومن الجملة ذكروا بِركة ماجد المشهورة، وأنه لا يقدر أحد أن يصل إليها ليلاً.

فقال لهم الشريف صاحب البيت: أنا أذهب إليها ليلاً، فعارضوه ولم يصدقوا قوله، فقال لهم: اشترطوا لي شرطاً وأنا أذهب الآن في هذه الساعة، فتشاوروا مع بعضهم ثم قالوا له: إن أخذت هذا المنديل وذهبت في هذه الساعة إلى البركة ونزلت فيها ووضعت هذا المنديل في ركن من أركانها ووضعت عليه حجراً ورجعت فلك من كل واحد منا عشر ريالات، فرضي ورضوا بذلك.

وكان الوقت نصف الليل فقالوا له: الوعد بيننا في الحرم صلاة الفجر نصلي الفجر جميعاً ونخرج معك إلى البركة لنرى المنديل وموضعه، فتفرق مجلسهم على ذلك، وأخذ هو المنديل وعصاه وسيفه وذهب إلى البركة، ونزل إلى أسفلها حيث لها درج، ووضع المنديل في ركن منها وجعل فوقه حجراً عظيماً يحفظه.

وانفتل ليصعد وإذا بيد هوت عليه من أعلى البركة وخبطته في صدره فقال: ما هذا؟ فلم يجبه أحد، وصعد درجتين وإذا بيد أخرى خبطته في صدره فقال: إن هذا مزح باسل، ثم وقف قليلاً وصعد درجة وإذا برجل إنسان ضربته في وجهه فقال: أما مزح بارد أنا لا أريد هذا المزاح، ووقف قليلاً وإذا برأس إنسان هوى من أعلى البركة على رأسه ونزل عليه نزلة قوية آلمته، فأخذ الرأس وحسحس عليه في الظلام فوجده ثقيلاً حاراً ليناً فصاح وقال: ألم تتركوا هذا المزاح الذي لا معنى له؟

وطلع مسرعاً فإذا بجثة إنسان تدحرجت عليه من أعلى الدرج أرادت أن تقلبه معها إلى نهاية البركة، إلا أنه كان قوياً فقبض الجثة النازلة عليه بيديه واتكأ بعزمه عليها وثبت قدميه في الأرض لئلا تقلبه الجثة.

ثم أسرع وطلع من البركة فرأى شبحاً أمامه في الظلام، فأسرع فلحقه ومسكه وقال له: من أنت؟ فقال له: مالك ولي إذهب إلى حالك، فقال له: إما تخبرني عن حقيقة أمرك وإلا قتلتك، فقالت له: إني أنا امرأة، ولما رأيتك أنا خفت منك فأردت إرهابك وإزعاجك لتهرب عني فزعاً وخوفاً، وحيث لم تنزعج ولم تخف مما شاهدت فأنا أخبرك بقصتي.

فلا يخفى عليك أني بنت فلان الشريف، وإذا هو شريف مشهور من أشراف

مكة يعرفه، ولي ابن عم لي وهو فلان، قد أرسل إليَّ مراراً يريد أن يجتمع بي بالحرم، فكنت أنهر رسله، فصار يتردد إلى داري ولا يخجل ولا يرتدع.

وقد خفت من الفضيحة وأردت اختباره فقلت: إن كان قصدك الاجتماع بي فلا يمكن إلا في بركة ماجد في نصف الليل فقبل ذلك، فتواعدنا على هذه الليلة، فأتيتُ إلى هنا فوجدته في انتظاري، فجلسنا وتحادثنا ساعة، ثم أراد موافقته على الحرام فزجرته فلم ينزجر، وأراد أن يفتض بكارتي بالجبر قوةً وقهراً، فلما لم أجد منه خلاصاً أخرجت هذا الخنجر من وسطي لأني كنت متسلحة به ففريت به كرشه حتى تخلصت منه وأمنت من شره.

وإذا بك أنت مقبل فخفت منك أيضاً لئلا تتسلط عليَّ وتؤذيني، فأردت أن أرهبك لتخاف وتهرب عني، فصرت أقطع يدا المقتول ورجليه ورأسه وأرميك به لتنخلع وتهرب، فلم تفزع من شيء، فحيث أنك بهذا الثبات فأنا اخترتك بأن تكون زوجي وأن تخطبني من والدي.

فقال لها: أنا وإن كنتُ من الأشراف إلا أني فقير وأبوك من الأغنياء ومن كبار الأشراف فلا يمكنني أن أخطبك لفقري، فقالت له: لا تفكر في شيء من ذلك، المهر عندي وإذا خطبتني من والدي فهو يسألني فإن رضيت قبل وإلا فلا، فإذا سألني عن خطبتك أنا أظهر له الرضا والقبول.

فقال لها: إذاً يلزم الآن أن ندفن هذا المقتول لئلا يظهر خبره، فجعل يحفر في الرمل بسيفه وعصاه، وهي جمعت أوصال الرجل ودفناه، ورجعا إلى مكة وأوصلها إلى دارها، فقالت له: اجلس على الباب إلى أن أطلع وآتيك، فانتظرتها فصرّت له ألف مشخص ذهباً وقالت له: هذا المهرأوبقشة خاصة له فيها بدلة مكملة.

فأخذه منها وذهب إلى بيته، وتوضأ وذهب إلى الحرم فوجد أصحابه في انتظاره، فبقي معهم حتى صلوا الصبح وذهبوا إلى البركة فوجدوا المنديل تحت الحجر كما أخبرهم، فوفوا له بالوعد ودفع كل واحد منهم عشر ريالات فاجتمع عنده مائة ريال، فذهب إلى السوق وصار يشتري السمن والتمر والعسل ويبيعه، ثم يشتري الإبل والغنم والخيل ويبيعها وغير ذلك.

إلى أن اشتهر في التجارة، فاستأجر بيتاً جديداً متسعاً واشترى له فرشاً لائقاً به وتحول إليه، واشترى ملبوساً جميلاً وتهيأ، وداخل التجار والرؤساء، وكل ذلك وهو يجتمع مع أصحابه العشرة كل ليلة بداره على عادته القديمة معهم.

وبعد أن اشتهر بالتجارة والمال قال لأصحابه: أريد أن تذهبوا معي إلى الشريف الفلاني تخطبوا لي ابنته ففعلوا، وزوجه أبوها ونقلها إلى داره وعاش معها عيشة هنية.

** ويُحكى أيضاً أنه كان بالبصرة رجل مخنث اسمه عباد، وكان يتزيا دائماً بزي النساء فلذلك دُعي بالمخنث، فاجتمع ليلة مع جماعة وتذاكروا الشجاعة فقالوا هازئين به: هل تقدر أن تذهب إلى المقبرة فتدق هذا الوتد بالضريح الفلاني؟

وكان ذلك الموضع معروفاً بالوحشة بعيداً عن العمار، فأخذ الوتد ومضى حتى صار فوق الضريح، وكان الوقت إذ ذاك نصف الليل، فحين شرع يدق الوتد سمع صرير سلسلة، وكلما دق يدنو منه صوت السلسلة حتى صار عنده، فنظر فإذا هو قرد قد ذهب من صاحبه، فأخذه وهم ليخرج من المقبرة إذ سمع امرأةً تخاطب رجلاً وتقول: ما صنعت لك حتى تقتلني؟ فيقول لها: أقتلك

وأموت خير من أن تصيري إلى زوجك وأموت غماً، فخرج عباد حينئذ عليهما وصرخ على القرد فتعلق القرد بالرجل، فظنهما الرجل جناً فرمى السلاح من يده وطاح مغشياً عليه.

فأخذ عباد السلاح واستخبر المرأة فأخبرته بأبيها فعرفه، وأن هذا الرجل ابن عمها كان يهواها فخطبها إلى أبيها فأبى وهم بتزويجها من غيره، وأنها خرجت مع جماعة من النساء للتنزه والتفرج فكبس عليهن هذا الرجل، فتفرق النساء اللواتي معها، فأخذها هو قهراً وصيرها إلى هذه الحالة.

فلما سمع عباد كلامها أخذها إلى أهلها، وبعد أن أوصلها رجع إلى أصحابه وأخبرهم بالقصة فكذبوه فأراهم السلاح والقرد، وذهب معهم إلى القبر، فلما رأوا الوتد تيقنوا صدقه، فصار يُعد من الشجعان بعد ذلك.

** وخرج أعرابي إلى سفر، وكانت له زوجة تكرهه فأتبعته نواة وقالت: شط نواك ونأى سفرك، ثم أتبعته روثة وقالت: رثتك أهلك وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة وقالت: حاص رزقك وحص أثرك.

** وكان رجل يُحب امرأة ويتردد عليها، فوجد يوماً بيدها خاتماً فطلب منها أن تهب له الخاتم فقالت له: إنه ذهب وأخاف أن تذهب، والتقطت عوداً من الأرض وناولته إياه وقالت له: ولكن خذ هذا العود لعلك أن تعود.

** ومن ذلك ما أخبر به العتبي قال: جلست يوماً وعندي جماعة من أهل الأدب، فنزع بنا الحديث إلى أخبار العشاق، وفي الجماعة شيخ ساكت فسئل فقال: كانت لي ابنة وكانت تهوى شاباً من أبناء عمها ولا نعلم بذلك،

وكان الشاب يهوى قينة، وكانت القينة تهوى ابنتي، فحضرتُ في بعض الأيام مجلساً فيه ذلك الشاب والقينة فغنت:

علاماتُ ذُلّ الهوى على العاشقين البُكا
ولا سيما عاشقٌ إذا لم يجد مُشتكى

فقال لها الشاب: أحسنت يا سيدتي، أتأذنين لي أن أموت؟ فقالت: نعم مت راشداً إن كنت عاشقاً، فاضطجع على ظهره وغمض عينيه ومات، فانصرفنا مهمومين إلى منازلنا، فأخبرت أهلي بما كان من شأن الفتى، فلما سمعت ابنتي كلامي نهضت إلى مجلس لنا مبادرة، فأنكرت ذلك منها فقمت خلفها فوجدتها توسدت كما كنت وصفته عن الفتى، فحركتها فإذا هي ميتة.

فأخذنا في جهازها وغدونا بجنازتها وجنازة الشاب، فإذا بجنازة ثالثة فسألنا عنها فإذا هي جنازة القينة، بلغها فعل ابنتي وموتها، ففعلت مثل ما فعلت وتوسدت فماتت، فدفنا الثلاثة في يوم واحد، ومحبة هؤلاء مسلسلة تشبه محبة المجنون ومحبوبته ليلى، حيث يقول:

جُنِنتُ بليلى وهي جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

وقال آخر:

يا طبيباً بذكره يُتداوى وصفوه لكل داءٍ غريبِ

*** *** *** ***

ليس حزني عليك شيءٌ عجيبٌ إنما الصبر عنك شيءٌ عجيبُ

وقال بعضهم:

تعصي الإلـه وأنـتَ تُظهر حُبَّه ... هـذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبُّكَ صادقاً لأطعتَه ... إن المحبَّ لمن يحبّ مطيعُ

وقال آخر:

يا مدّعي الحبّ لمولاه ... من ادعى صحَّحَ معناهُ[1]
من ادّعى شيئاً بلا شاهدٍ ... لا بدَّ أن تبطلَ دعواهُ

وقال بعضهم:

حَسْبُ المحبين في الدنيا بأن لهم ... من ربهم سبباً يُدني إلى سبب
قومٌ جسومهمُ في الأرض سائرةٌ ... وإن أرواحهم تختال في الحُجبِ
لهفي على خلوةٍ منه تُسدّدني ... إذا تضرَّعت بالإشفاق والرَّغب
يا ربِّ يا ربِّ أنتَ اللهُ معتمدي ... متى أراك جهاراً غيرَ محتجب

** وكان سهل يقول: «الناس ثلاثة أصناف: صنف مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على بابه ينتظر الكرامة، وصنف مضروب بسوط التوبة مقتول بسيف الندامة مضطجع على بابه ينتظر العفو، وصنف مضروب بسوط الغفلة مقتول بسيف الشهوة مضطجع على بابه ينتظر العقوبة».

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «نجواه».

** دخل ذو النون على مريض يعوده، فرأى المريض يئن فقال ذو النون: ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه، فقال المريض: لا ولا صدق في حبه من لم يتلذذ بضربه، فقال ذو النون: لا ولا صدق في حبه من رأى حبه لربه.

*** *** *** ***

يا من أتيتُ حِماه أستغيث به ... لله في كل ما أشكوه من وَجَلي
أنتَ الكريمُ ومن وافاك مفتقراً ... فهو السعيدُ بنيل السؤلِ والأملِ
واللهِ ما قلتُ لا يوماً لسائلكم ... حاشاك من وصمات الردّ والبَخَل
أشكو إليك ديوناً قد بُليت بها ... فاشفعْ إلى الله يقضيها على عجل
واسألْه لي سيدي دنيا موسّعةً ... من الحلال الذي ما شِيب بالعِلل
واسألْه لي سيدي صوناً أبيتُ بهِ ... من شرّ أعدايَ في حِرزٍ من الكَلَل
واسألْه لي راحةً للقلب إنّ به ... همّاً أبيت له سهرانةً مُقلي

** وقال بعضهم:

صِفوا لي حبيباً قد وهبتُ له كسبي ... وأحللته صدري وأسكنته قلبي
فإن تعذلوا فالعذلُ ليس بنافعٍ ... وإن تعتبوني لا يحلّ لكم عَتْبي
وماذا وماذا أن يقولوه في امرئٍ ... إذا ما مشى في الشمس ظُلِّلَ بالسُّحْب
ويكسب بدرُ الأفقِ من نور وجههِ ... ضياءً يعمّ الأرضَ في الشرق والغرب
وتنفجر الأنهارُ بين بنانهِ ... بماءٍ لذيذٍ باردٍ طيّبٍ عذب

وإن تفخرِ الأنـجـادُ يـومـاً بسؤددٍ أثـيـلٍ فهذا سيّدُ العُجْمِ والعُرْب
وهبتُ لـه نفسي ومـا ملكت يدي فـإن كـان يرضاني فذلكمُ حَسْبي
عـلـيـه سـلامٌ عـنـبـريٌّ نـسـيـمُـهُ يفوح كنَشْر المسكِ والمندل الرطب

** قال عبد الله بن محمد الدمشقي: حضرت مع الشبلي في مجلس سماع وحضر المشايخ، فغنى قوال فصاح رجل من بين القوم والقوم سكوت، فقال له بعض المشايخ: يا أبا بكر أليس هؤلاء سمعوا معك كما سمعت؟ فقام من بين الجماعة وتواجد وأنشأ يقول:

لـو يسمعون كما سمعتُ كلامَها خـرّوا لـعـزّةَ رُكّـعـاً وسُـجـودا

ثم قال بعد ذلك مترنماً:

لـي سـكـرتـان ولـلـنـدمـان واحـدةٌ شيءٌ خُصِصتُ به من بينهم وحدي

** ويُحكى أنه يوم نوْح داود عليه السلام يُخرج له منبر إلى البرية، ويؤمر منادياً بأن ينادي قبل ذلك بأيام ليستنفر من في البلاد ومن حولها قائلاً: ألا من أحب أن يسمع نوح داود فليأت، فتأتي السباع والوحوش والطير والرهابين والعذارى وكافة بني إسرائيل نساءً ورجالا.

ويمكث داود عليه السلام قبل ذلك صائماً لا يقرب النساء ولا الطعام ولا الشراب، فيأتي ويصعد المنبر وسليمان قائم على رأسه، والخلق حوله مصطفون يصغون إليه، فيبدأ بالثناء على الله عز وجل، فيضجون بالصراخ والبكاء حوله من كل جانب.

ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت طائفة من الناس والوحوش والطيور، ثم يأخذ في أهوال القيامة فيموت خلق من العذارى والرهابين والسباع والوحوش والإنس رجالاً ونساء، ثم يأخذ في النوح على نفسه فتموت طائفة من هؤلاء الخلق العاكفين حوله من حنانة صوته.

فإذا رأى سليمان عليه السلام كثرة الموتى نادى: يا أبتاه قد مزقت المستمعين وأفنيت بني إسرائيل، فيقطع النوح ويأخذ في الدعاء، فبينما هم كذلك وداود يدعو إذ ناداه بعض عُباد بني إسرائيل: يا داود عجلت على ربك تطلب الجزاء، فيخر داود مغشياً عليه.

فإذا نظر إليه سليمان ورأى ما أصابه أتى بسرير وحمله عليه، ثم أمر منادياً ينادي: من له مع داود قريب فليأت بسرير ليحمله عليه، فإن الذين كانوا معه قتلهم ذكر الجنة والنار وحب الملك القهار، فتأتي المرأة بالسرير فربما تجد ابنها وأباها وأخاها قد ماتوا جميعاً، فيحملون أمواتهم ويتفرقون.

ثم إذا أفاق داود من غشيته يقول: يا سليمان ما فعلت عُبّاد بني إسرائيل؟ فيقول سليمان: قد ماتوا عن آخرهم، فيقوم داود ويدخل بيت عبادته وينادي: يا إله داود أغضبان أنت على داود، كيف لا يموت خوفاً منك؟

** كانت خليدة المكية مولدة سوداء مولاة لابن شماس، وكانت متقنة في الغناء أديبة خفيفة الشمائل لطيفة المنادمة، وكان عند محمد بن هشام بن عروة ليلة جماعة من أصحابه، وأحضروا معهم خليدة المكية تغنيهم، فصعدوا غرفة له وخليدة معهم تغني، وإذا بنفس عال وصفير طالع عليهم، فتحققوه وإذا هو هشام بن عروة طالع عليهم وهو ينشد ويقول:

يـا قــدمــيَّ ألــحــقــانــي بــالــقــومِ   لا تَـعــدانــي كــسـلاً بـعـد الـيــومِ

فلما رآهم جلس معهم وقال لخليدة: غني فغنت فأعجبه غناؤها وقال لها: اكتبي في صدرك «قل هو الله أحد» وبين كتفيك المعوذتين لأن لا تصيبكِ العين وخرج وتركهم.

** وقال إسماعيل بن جامع المغني المشهور: كان أبي يعظني في الغناء ويضيق عليَّ، فهربت منه إلى أخوالي باليمن، فأنزلني خالي في غرفة له مشرفة على نهر في بستان، وإني مشرف منها ذات يوم إذ طلعت سوداء معها قربة فنزلت إلى المشرعة، ووضعت قربتها وجلست تغني صوتاً بهذين البيتين:

إلـى الله أشـكـو بخلَها وسماحتي   لـهـا عـسـلٌ مـنـي وتـبـذل علقما

فَـرُدّي مُـصـابَ القلبِ أنـتِ قتلتِهِ   ولا تتركيه هـائـمَ الـقـلـبِ مغرما

فذرفت عيناي واستفزني ما لا قوام لي به، ورجوت أن تردده فلم تفعل، بل ملأت القربة ونهضت، فنزلت أعدو خلفها وقلت: يا جارية بأبي أنت وأمي ردي الصوت، قالت: ما أشغلني عنك، قلت: بماذا؟ قالت: عليَّ خراج كل يوم درهمان، فأعطيتها درهمين، فغنت وجلست أستنصت لآخذه عنها وجعلت تردد الصوت حتى أخذته وانصرفت.

ولهوت يومي ذلك، وكرهت أن أتغنى به لأن لا يسمع خالي، فأصبحت وما أذكر منه حرفاً، وإذا أنا بالسوداء قد طلعت وفعلت كفعلها بالأمس، إلا أنها غنت غير ذلك الصوت، فنهضت وعدوت في إثرها وقلت لها: قد ذهب عليَّ من الصوت نغمة وأريدك أن تعيديه عليَّ، فقالت: مثلك لا يذهب عليه

نغمة فإنك تبين بعضه من بعض، وأبت أن تعيده إلا بدرهمين، فأعطيتها ذلك فأعادته، فتذكرته فقلت لها: حسبك، قالت: كأنك استكثرت فيه أربعة دراهم، فإني والله بك وقد أصبتَ به أربعة آلاف دينار ....(١)

** وقصة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ابنة الجودي، فإنه لما دخل دمشق في الجاهلية رأى ليلى بنت الجودي كأنها مهرة عربية وحواليها جوار كأنهن الأقمار يفدينها ويقلن: لا وحق ابنة الجودي، فوقعت بقلبه وشغف بحبها وقال فيها:

تذكّرتُ ليلى والسماوةُ دونها ... وما لابنة الجوديِّ ليلى وماليا

وكيف تُعنّي قلبَه حارثيّةٌ ... تُدمّن بُصرى أو تحلّ الجوابيا

وكيف تُلاقيها بلى ولعلها ... إنِ الناسُ وافوا موسماً أن تُوافيا

ولا زال يشبب بها، فلما كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرسل جيشه إلى الشام قال لهم: إن افتتحتم دمشق فادفعوا ابنة الجودي إلى ابن أبي بكر، فأُعطيها فآثرها على نسائه حتى شكونه إلى عائشة رضي الله عنها، فعاتبته على ذلك وقالت له: إن لنسائك عليك حقا، فقال: كأنما أترشف برضابها حب الرمان، ثم ملها وهانت عليه حتى صار يسيء إليها، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا عبد الرحمن إما أن تنصفها وإما أن تجهزها إلى أهلها، فكان غاية إحسانه إليها أن ردها إلى أهلها.

** وأما قصة كثير مع عزة كما رواها الجمحي قال: أرادت عزة أن تعرف

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل، وتمام الحكاية في كتاب «الأغاني للأصفهاني».

ما لها عند كثير، فتنكرت له وأتت متعرضة له، فقام وتبعها حتى قرب منها وكلمها، فقالت له: فأين حبك من عزة؟ فقال: أنا الفداء لك لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك، قالت: ويحك لا تفعل فقد بلغني أنها لك في صدق المودة ومحض المحبة على حسب الذي كنت تبدي لها وأكثر فأين قولك:

إذا وصلتنا خلّةٌ كي نُزيلَها ... أبينا وقلنا الحاجبيّةُ أولُ

فقال كثير: بأبي أنت وأمي أقصري عن ذكرها واسمعي ما أقول:

ما وصلُ عزّةَ إلا وصلُ غانيةٍ ... في وصل غانيةٍ من وصلها خَلَفُ

ثم قال لها: هل لك في المخاللة؟ فقالت له: وكيف بما قلت في عزة من الغزل وسيرته لها؟ قال: أقلبه فيتحول إليك ويصير لك، فأسفرت عن وجهها وقالت: أغدراً وانتكاثاً يا فاسق، وإنك لهاهنا يا عدو الله، فبهت وخجل وتحير ولم يجد جواباً.

ثم بعد أن لامته وعرّفته غدره بها وقلة محافظته لها، ونقضه للعهد والميثاق الذي بينهما قالت له: قاتل الله جميلاً حيث يقول:

لحى اللهُ من لا ينفع الودُّ عنده ... ومَن حبلُه إن مُدَّ غيرُ متينِ
ومن هو ذا وجهين ليس بدائمٍ ... على العهد حَلّافٌ بكل يمينِ

ولما طال عتبها أنشأ كثير يقول متعذراً إليها ويتنصل مما كان منه بانكسار وخضوع ليتحايل في دفع زلته وتلافي خجلته قائلاً:

ألا ليتني قبل الذي قلتُ شِيبَ لي ... من الذَّعَفِ القاضي سمامُ الذرارحِ

فمتُّ ولم تُعْلَمْ عليَّ خيانةٌ ألا رُبَّ باغي الربحِ ليس برابح
فلا تحمليها واجعليها خيانةً تروَّحتُ منها في مياحة مائح
أبوء بذنبي أنني قد ظلمتُها وأني بباقي سِرِّها غيرُ بائح

** وحكي أنه كان في بني إسرائيل رجل اسمه عبود، كلف بابنة عمه حتى كان لا يصبر عنها ساعة، فتزوج بها وأقاما مدة فماتت فاشتد وجده وطار عقله، فحملها ومضى بها إلى المسيح عليه السلام وسأله أن يحييها له، فقال: لا يتيسر إلا أن تهبها من عمرك شيئاً، فقال: قد وهبتها نصف ما بقي من عمري، فأحياها الله له ومضيا.

وقد لحق عبود تعب شديد فجلسا يستريحان في أثناء الطريق، ووضع رأسه على ركبتها فنام، فمر ملك الناحية بهما فلما رآها علقت بقلبه وهو أيضاً بقلبها، فعرض عليها أن تكون معه فأجابته لذلك، فحملها في هودج كالقبة وسار بها.

وانتبه عبود فلم يجد أحداً فقام مرعوباً ملهوفاً، فوجد قوماً من المارة ينعتون حسنها فسألهم عنها فأخبروه بأنها مع الملك ودلوه على الطريق، فلحقها وجعل يذكرها بما كان بينهما وما صنع معها وهي ساكتة عنه ولا تجيبه ولا تلتفت إليه.

فلما علم أنها كرهته ولا لها رغبة فيه ولم تلتفت إليه قال لها: قد كنتِ متِ وإني سألت المسيح في إحيائك ووهبتك نصف عمري على أن تكوني معي، فحيث لم ترض بي فردي عليَّ ما وهبتك، فقالت: قد رددته، فما خرجت الكلمة من فمها حتى ماتت.

** وحُكي أيضاً أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح يعمل بالمسحاة لفقره، وكان عنده امرأة مفرطة في الجمال، وكان إذا قدم قامت لخدمته من فرش وتقديم طعام ونحوه، وكانت في غاية الطاعة والاستقامة له، فدخلت عليها عجوز ذات يوم وتأملت حسنها، ثم ذهبت إلى الملك فوصفتها له فعشقها بالسماع، ووعد العجوز بمال كثير على أن تخلصها له من زوجها.

فذهبت العجوز إلى امرأة الصالح وقالت لها: كيف تذهبين هذا الجمال مع رجل يعمل بالمسحاة، ولو طاوعتني لزوجتك بالملك، ولا زالت تغريها حتى أطاعتها وقبلت منها، فأمرتها أن تعصي زوجها وترجع عن خدمته، فجاء فلم تقم إليه على العادة ولم تقدم له شيئاً فقال: ما هذا يا هناه؟ قالت: هو ما تراه، فقال: أطلقك؟ قالت: نعم ففعل.

وتزوج بها الملك فحين نظر إليها كف بصره ومد يده إليها فشلت والمرأة أيضاً فلجت وماتت بعد سبعة أيام، فرفع الملك الأمر إلى نبي ذلك الزمان، فجاءه الوحي: إن بعيني ما فعل بصاحب المسحاة.

** ويُحكى أنه في سنة خمس وستين وخمسمائة كان بحلب رجل تركي له جارية رومية يهواها، وقد أحبت شاباً خياطاً، فعملت الحيلة لوصاله فلم تقدر على الوصول إليه، فطلبت من سيدها أن يعتقها ويتزوجها، فلشدة حبه وطاعته لها فعل بحسب أمرها وأعتقها، ثم أراد أن يتزوجها، فأنظرته حتى أرسلت إلى الخياط وتزوجته عند القاضي، فلما بلغ ذلك الخبر إلى سيدها التركي اختلط عقله ووسوس وجن، فحُمل إلى البيمارستان فأقام مقيداً خمسة أيام لا يأكل ولا يشرب حتى مات.

** ولما قَتل هدبة بن الخشرم زيادة بن زيد أتوا به للقصاص وهو مقيد التفت فرأى زوجته، وكانت من أجمل النساء، فقال يخاطبها:

أقلي عليَّ اللومَ يا أمَّ بَوْزعا ... ولا تجزعي مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحي إن فرَّقَ الدهرُ بيننا ... أغمَّ القفا والوجهِ ليس بأنزعا
كليلاً سوى ما كان من جدّ ضرسِه ... أُعَيبِدَ مبطانَ العشيّاتِ أروعا
ضروباً بلَحْيَيْهِ على عظم زَورهِ ... إذا الناسُ هشّوا للفعال تَقَنَّعا
ولا قَرْزلا وَسْط الرجالِ جنادفاً ... إذا ما مشى أو قال قولاً تبلتعا
وحلّي بذي أُكرومةٍ وحميّةٍ ... وصبرٍ إذا ما الدهرُ عضَّ فأسرعا

فلما سمعت زوجته منه هذه الأبيات مالت إلى جزار وأخذت شفرته، فجدعت بها أنفها وجاءته تدمى مجدوعة وقالت: أتخاف أن يكون بعد هذا نكاح، فرسف في قيوده وقال: الآن طاب الموت، ثم صلى ركعتين وقدم للقتل، فضربه المسور بن زيادة بالسيف ضربتين، قتله فيهما قصاصاً عن أبيه.

قال رجل من بني عذرة: كنت يوماً في بعض المياه فإذا أنا بامرأة تمشي أمامي وهي مدبرة ولها خلق عجيب من عجز وهيئة وتمام جسم وتمام قامة، وإذا صبيان قد اكتنفاها يمشيان فتقدمتها والتفت إليها، وإذا أقبح منظر وإذا هي مجدوعة الأنف مقطوعة الشفتين، فسألت عنها فقيل هذه امرأة هدبة بن الخشرم، تزوجت بعده رجلاً أولدها هذين الصبيين، وتأتي بعض حكايات من هذا القبيل في باب النوادر والحكايات إن شاء الله تعالى.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَعُلَيُّ ما ماءُ الفراتِ وبردُهُ منّي على ظمأٍ وفقدِ شرابِ
بألذَّ منكِ وإن نأيتُ وقلّما يرعى النساءُ أمانةَ الغُيّاب

وقال ابن أبي الحديد:

متغيّرٌ متلوّنٌ مُتعنّتٌ مُتعتّبٌ مُتمنّعٌ مُتدلّلُ
استعذبَ التعذيبَ فيه كأنما جَرْعُ الحميمِ هي البرودُ السلسلُ

وقال أبو فراس:

نَعَمْ دعتِ الدنيا إلى الغدر دعوةً أجاب إليها عالمٌ وجهولُ
وفارقَ عمرُو بنُ الزبيرِ شقيقَه وخلّى أميرَ المؤمنين عقيلُ

وقال المتنبي:

غاضَ الوفاءُ فما تلقاه في أحدٍ وأعوزَ الصدقُ في الأخبار والقسمِ

وقال كثير عزة:

ألا إنما ليلى عصا خَيْزرانةٍ إذا غمزوها بالأكفِّ تلينُ
تَمتَّعْ بها ما ساعدتْكَ ولا يكنْ عليكَ شجاً في الصدر حين تبينُ
وإنْ هي أعطتكَ اللِّيانَ فإنها لآخرَ من خُلّانها ستلين
وإنْ حلفتْ لا ينقض النأيُ عهدَها فليس لمخضوب البنانِ يمين

وقال آخر:

خليليَّ كم عاشرتُ في الناس صاحباً فما نالني منهم سوى البؤسِ والعَنا
ومارستُ أبناءَ الزمانِ فلم أجد خليلاً يُوفّي بالعهود ولا أنا

وقال آخر:

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خِلٌّ وَفِيٌّ للشدائد أصطفي
أيقنتُ أن المستحيلَ ثلاثةٌ الغولُ والعنقاء والخِلُّ الوفي

وقال الأحوص:

قالت وقلتُ تحرَّجي وصِلي حبلَ امرئٍ بوصالكم صبِّ
صاحبْ إذاً بعلي فقلتُ لها الغدرُ شيءٌ ليس من ضربي
ثِنتان لا أدنو لوصلهما عرسُ الخليلِ وجارةُ الجنبِ
أما الخليلُ فلستُ فاجعَه والجارُ أوصاني به رَبّي

وقال كعب بن زهير:

أكرمْ بها خُلَّةً لو أنها صدقتْ موعودَها أو لَوَ انَّ النصحَ مقبولُ
لكنها خلةٌ قد سِيط من دمها فَجْعٌ ووَلْعٌ وإخلافٌ وتبديل
فما تدوم على حالٍ تكون به كما تَلَوَّنَ في أثوابها الغول
ولا تَمَسَّكُ بالعهد الذي زعمتْ إلا كما تُمسك الماءَ الغرابيل
فلا يغرَّنْكَ ما منَّتْ وما وعدتْ إن الأمانيَّ والأحلامَ تضليل

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلاً   وما مواعيدُها إلا الأباطيل
أرجو وآمل أن تدنو مودَّتُها   وما إخال لدينا منكِ تنويل

** وقال ابن الدمينة:

قفي يا أميمَ القلبِ نشكو الذي بنا   وفرطَ الهوى ثم افعلي ما بدا لكِ
سلي البانةَ الغنّاءَ بالأجرع الذي   به البانُ هل حيَّيتُ أطلالَ دارك
وهل قمتُ في أطلالهنَّ عشيّةً   مقامَ أخي البأساءِ واخترتُ ذلك
ليهْنِكِ إمساكي بكفّي على الحشا   ورقراقُ عيني رهبةً من زِيالك
ولو قلتِ طأْ في النار أعلم أنه   هوىً لك أو مُدنٍ لنا من نوالك
لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطِئتُها   هدىً منك لي أو ضلّة من ضلالك

وقالت امرأة من بني نصر بن دهمان:

ألا ليتني صاحبتُ ركبَ ابنِ مصعبٍ   إذا ما مطاياه اتلأبَّتْ صدورُها
إذا خدرتْ رجلي دعوتُ ابنَ مصعبٍ   فإن قيل عبدُ اللهِ أجلى فتورُها

وقالت الشقراء:

خليليَّ إنْ أصعدتما أو هبطتما   بلاداً هوى نفسي بها فاذكرانيا
ولا تدعا إنْ لامني ثَمَّ لائمٌ   على سَخَط الواشين أن تعذرانيا
فقد شفَّ جسمي بعد طول تجلُّدي   أحاديثُ من عيسى تُشِيب النواصيا
سأرعى لعيسى الودَّ ما هبَّتِ الصَّبا   وإن قطعوا في ذاك عمداً لسانيا

وقالت امرأة من بني أسد:

بنفسيَ من أهوى وأرعى وصالَه وتنقض مني بالمغيب وثائقُهْ
حبيبٌ أبى إلا اطّراحي وبغضتي وفضّلَه عندي على الناس خالقُهْ

وقال مهيار الديلمي:

أستنجد الصبرَ فيكم وهو مغلوبُ وأسأل النومَ عنكم وهو مسلوبُ
وأبتغي عندكم قلباً سمحتُ به وكيف يرجع شيءٌ وهو موهوب
ما كنتُ أعلم ما مقدار وصلكمُ حتى هُجِرتُ وبعضُ الهجرِ تأديبُ

وقال مهيار الديلمي:

ظنَّ غداةَ البينِ أن قد سَلِما لما رُمِي سهماً وما أجرى دما
فعاد يستقري حَشاه فإذا فؤادُه من بينهم قد عُدِما
يا قاتَلَ اللهُ العيونَ خُلِقتْ لواحظاً فكيف صارت أسهما
أودعني السقمَ وولّى هازئاً يقول قُمْ واستشفِ ماءَ زمزما
ولو أباحَ ما حمى من رِيقهِ لكان أشفى لي من الماء اللَّمى
وا بأبي ومن يبيع بأبي على الظما ذاك الزُّلالَ الشَّبِما
كأنما الصهباءُ في كافورةٍ قد مُزجتْ وجَلَّ عَنْ: كأنما

وقال الشريف الرضي:

نسرق الدمعَ في الجيوب حياءَ وبنا ما بنا من الأشواقِ

لا أذمّ الإسـراءَ في طلب العِزْ زِ ولكنْ في فرقة العشّاق
يومَ لا غيرَ زفرةٍ من فؤادٍ ذي قُروحٍ ورشقةٍ من مآق
كم مَقامٍ خضنا حَشاه إلى اللّهْ وِ جميعاً والليلُ مُلقي الرُّواق
ومزجنا خمرَ الرُّضابين في الرَّشْ فِ برغم المدام تحت العِناق
نحن غصنان ضمَّنا عاطفُ الوَجْ دِ جميعاً في الحبّ ضَمَّ النِّطاق
في جبين الزمانِ منك ومني غُرّةٌ كوكبيّةُ الائتلاق
كلما كرَّتِ الليالي علينا شقَّ منا الوفاءُ جيبَ الشِّقاق
أيها الرائحُ المغذُّ تحمَّلْ حاجةً للمتيَّم المشتاق
اِقرَ مني السلامَ أهلَ المصلّى فبلاغُ السلامِ بعضُ التلاقي
وإذا ما سُئِلتَ عني فقل نِضْ وُ هوىً ما أظنّه اليومَ باقي
وابكِ عني فطالما كنتُ من قَبْ لُ أُعير الدموعَ للعشاق

وقال الشاب الظريف ابن العفيف:

لا تُخفِ ما فعلتْ بك الأشواقُ واشرحْ هواكَ فكلُّنا عشّاقُ
فعسى يُعينك من شكوتَ له الهوى في حَمله فالعاشقون رِفاق
لا تجزعنَّ فلستَ أولَ مُغرمٍ فتكتْ به الوجناتُ والأحداق
واصبرْ على هجر الحبيبِ فربما عاد الوصالُ وللهوى أخلاق
كم ليلةٍ أسهرتُ أحداقي بها وَجْداً وللأفكار بي إحداق
يا رَبِّ قد بَعُدَ الذين أُحبهم عني وقد ألف الرفاقَ فراق

واســودَّ حظي عندهم لما سرى ... فــيـه بــنــار صـبـابـتـي إحــراق
عُــرْبٌ رأيــتُ أصـحَّ ميثاقٍ لهم ... أنْ لا يـصـحَّ لـديـهـمُ ميثاق

وقال عُروة بن حزام:

لَـوَ انّ أشـدَّ الـنـاسِ وَجْـداً ومثلَه ... مـن الـجـنّ بعد الإنـسِ يلتقيانِ
فيشتكيان الـوجـدَ ثُـمَّـتَ أشتكي ... لَأضـعـفُ وجـدي فـوق ما يجدان
فقد تركتني ما أعي لمحدِّثٍ ... حـديـثـاً وإن نـاجـيـتُـه ونَـجـانـي
لقد تركتْ عفراءُ قلبي كأنه ... جـنـاحُ عـقـابٍ دائـمِ الخفقان

ومن الحديث المعنعن قول بعضهم:

حَـدَّثَـنـا عَــرْفُ نسيمِ الصَّبا ... عـن بـان نـجـدٍ عـن رُبـا حـاجـرِ
عـن أثـلات الـحـيّ عـن لـعلعٍ ... عـن دُرِّ ذاك الـمـبـسـمِ العاطر
قالوا سمعنا طائراً في الدجى ... يـنـشـد بـيـتـاً لـبـنـي عـامـر
مـا أقـبـحَ الـسـلـوانَ مـن عاشقٍ ... ومـا ألـذَّ الـوصـلَ مـن هـاجـر

[وقال عروة بن أذينة:]

حـلـلـنـا آمـنـيـن بـخـيـر عيشٍ ... ولـم يـشـعـرْ بـنـا واشٍ يـكـيـدُ
ولـم نـشـعـر بـجـدّ الـبـيـنِ حتى ... أجـدَّ الـبـيـنَ سـيّـارٌ عَـنـود
وحـتـى قِـيـل قَـوّضَ آلُ بِـشْـرٍ ... وجـاءهـمُ بـبـيـنـهـم الـبـريـد
وأبـرزتِ الـهـوادجُ نـاعـمـاتٍ ... عـلـيـهـنَّ الـمـجـاسـدُ والـعُـقـود

فلما وَدَّعونا واستقلّتْ — بهم قُلُصٌ هواديهنَّ قُود
كتمتُ عواذلي ما في فؤادي — وقلتُ لهنَّ ليتهمُ بعيد
فجالت عَبرةٌ أشفقتُ منها — تسيل كأن وابلَها فريد
فقالوا قد جزعتَ فقلتُ كلا — وهل يبكي من الطرب الجليد
ولكني أَصابَ سوادَ عيني — عُوَيدُ قذىً له طَرْفٌ حديد
فقالوا ما لدمعهما سواءٌ — أكِلتا مقلتيكَ أصاب عود؟
لَقبلَ دموعِ عينكَ خَبَّرتْنا — بما جَمْجَمْتَ زفرتُكَ الصَّعود
فقمْ وانظرْ يزدْكَ مطالَ شوقٍ — هنالكَ منظرٌ منهم بعيد

وقال العرجي:

وما أنسَ م الأشياءِ لا أنسَ موقفاً — لنا ولها بالسفح دون ثبيرِ
ولا قولَها وَهْناً وقد بلَّ جيبَها — سوابقُ دمعٍ لا يجفّ غزير
أأنتَ الذي خَبَّرتَ أنك باكرٌ — غداةَ غدٍ أو راحلٌ بهجير
فقلتُ يسيرٌ بعضُ شهرٍ أغيبُهُ — وما بعضُ يومٍ غبتُه بيسير
أحينَ عصيتُ العاذلين إليكمُ — ونازعتُ حبلي في هواك أميري
وباعدني فيكِ الأقاربُ كلُّهم — وباح بما يخفي اللسانُ ضميري
وقلتُ لها قولَ امرئٍ شفّه الهوى — إليها ولو طال الزمانُ فقير
فما أنا إن شطّتْ بكِ الدارُ أو نأتْ — بيَ الدارُ عنكم فاعلمي بصبور

وقال آخر:

وما أنسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ قولَها وأدمعُها يذرينَ حشوَ المكاحلِ
تمتَّعْ بذا اليومِ القصيرِ فإنه رهينٌ بأيامِ الشهورِ الأطاولِ

وقال عمر بن أبي ربيعة:

هل تعرف الدارَ والأطلالَ والدِّمنا زدنَ الفؤادَ على عِلّاته حَزَنا
دارٌ لأسماءَ قد كانت تحلّ بها وأنتَ إذ ذاك قد كانت لكم وطنا
لم يحببِ القلبُ شيئاً مثلَ حبكمُ ولم تَرَ العينُ شيئاً بعدكم حَسَنا
ما إن أبالي أدام اللهُ قربَكمُ من كان شطَّ من الأحياء أو قطنا
فإن نأيتم أصاب القلبَ نأيُكمُ وإن دنت دارُكم كنتم لنا سَكَنا
إن تبخلي لا يُسلّي القلبَ بُخلُكُمُ وإن تَجودي فقد عَنَّيتِني زمنا
أمسى الفؤادُ بكم يا هندُ مرتهناً وأنتِ كنتِ الهوى والهمَّ والوسنا
إذ تستبيكَ بمصقولٍ عوارضُهُ ومُقلتَيْ جُؤذرٍ لم يعدُ أنْ شَدَنا

وقال رجل من بني رياح:

كفى حَزَناً أن لا يزالَ يعودني على النأي طيفٌ من خيالك يا نُعْمُ
وأنتِ مكانَ النجمِ منا وهل لنا من النجم إلا أن يقابلَنا النجمُ

وقال قيس:

كأن القلبَ ليلةَ قِيل يُغدى بليلى العامرية أو يُراحُ
قطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فباتت تُجاذبه وقد علق الجناحُ

وقال آخر:

كتبتُ ولولا أن قلبيَ واثقٌ ... بقرب التلاقي ما حوتْه الأضالعُ
ولو لم أَعِذْ إنسانَ عينيَ أنه ... يراكم قريباً غَرَّقته المدامع

وقال آخر:

ولو أنَّ الغريبَ غدا مليكاً ... ونال من العلى أقصى مُرادِهْ
لبات وقلبُه يُصلى بنارٍ ... لتربة أرضه وهوى بلادِهْ

وقال آخر:

أقول لمِسواك الحبيبِ لكَ الهنا ... بلثم فم ما ناله ثغرُ عاشقِ
فقال وفي أحشائه حرقةُ النوى ... مقالةَ صَبٍّ للديار مُفارق
تذكّرتُ أوطاني فقلبي كما ترى ... أُعلِّله بين العذيبِ وبارق

وقال آخر:

لي بالحمى أهلٌ وبالشِّعب جيرةٌ ... وفي المنحنى خِلٌّ وفي حاجرٍ صَحْبُ
تَقسّمَ ذا القلبُ المتيَّمُ بينهم ... أسائلكم بالله هل يُقسَم القلبُ؟

وقال آخر:

بالشام قومي وبغدادُ الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط جيراني
وما أظنّ النوى تُلقي مراسيَها ... حتى تُبلِّغني أقصى خراسانِ

وقال الأرجاني:

أما الفؤادُ فإنهم ذهبوا به … يومَ النوى فبقيتُ صِفْرَ الأضلعِ
فكأننا لما عقدنا للنوى … حِلْفاً بغير رهائنٍ لم يقنعِ
فرهينتي معهم فؤادي دائماً … والطيفُ من سلمى رهينتُهم معي

وقال الشيخ تقي الدين السروجي:

أنعمْ بوصلكَ لي فهذا وقتُهُ … يكفي من الهجران ما قد ذقتُهُ
أنفقتُ عمري في هواكَ وليتني … أُعطى وصولاً بالذي أنفقته
يا من شُغِلْتُ بحبه عن غيرِهِ … وسلوتُ كلَّ الناسِ حين عشقته
كم جال في ميدان حبكَ فارسٌ … بالصدق فيكَ إلى رضاكَ سبقته
أنتَ الذي جمعَ المحاسنَ وجهُهُ … لكنْ عليه تصبُّري فَرَّقته
قال الوشاةُ قد ادّعى بك نسبةً … فَسُررت لما قلتَ قد صدَّقته
بالله إن سألوكَ عني قل لهم … عبدي ومِلكُ يدي وما أعتقته
أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم … أدري بذا وأنا الذي شَوَّقته
يا حسنَ طيفٍ من خيالك زارني … من عظم وَجدي فيه ما حققته
فمضى وفي قلبي عليه حسرةٌ … لو كان يُمكنني الرقادُ لحقته

وقالت عُلية بنت المهدي:

وأحسنُ أيامِ الهوى يومُكَ الذي … تَروّعَ بالهجران فيه وبالعَتْبِ
إذا لم يكنْ في الحب سُخْطٌ ولا رضىً … فأين حلاواتُ الرسائلِ والكُتْبِ؟

وقال أبو الشيص:

مـا فَـرَّقَ الأحـبـابَ بعـدَ اللهِ إلا الإبـلُ
والـنـاسُ يـلـحـون غُـرابَ الـبـينِ لـمـا جـهـلـوا
ومـا عـلـى ظـهـر غـرابِ الـبـيـنِ تُـطـوى الـرحـل
ولا إذا صـاح غـرابٌ فـي الـديـار احـتـمـلـوا
ومـا غـرابٌ الـبـيـنِ إلْـلَا نـاقـةٌ أو جـمـل

وقال عوف الراهب:

غـلـط الـذيـن رأيـتـهُـم بـجـهـالـةٍ يـلـحـون كـلُّـهـم غـرابـاً يـنـعـقُ
مـا الـذنـبُ إلا لـلأبـاعـر إنـهـا مـمـا يُـشِـتُّ جـمـيـعَـهـم ويُـفـرِّق
إن الـغـرابَ بِـيُـمـنـه تـدنـو الـنـوى وتُـشـتِّـتُ الشملَ الجميلَ الأَنـيـقُ

وقال إسحاق:

ولـمـا رأيـنَ الـبـيـنَ قـد جـدَّ جَـدُّهُ ولـم يـبـقَ إلا أن تـبـينَ الـركـائـبُ
دنـونـا فـسلَّـمـنـا سـلامـاً مُـخـالـسـاً فــردَّتْ عـلـيـنـا أعـيـنٌ وحـواجـب
تـصـدّ بـلا بـغـضٍ وتُـخـلـس لمحةً إذا غفلتْ عنا الـعـيـونُ الـرواقـب
نُــذاد إذا حُـمْـنـا لـنـشـفـيَ غُـلّـةً كما ذِيدَ عن وِرد الحياضِ الغرائب

وقال أبو العباس الناشي:

ولـمـا رأيـنَ الـبـيـنَ زُمَّـتْ رِكـابُـهُ وأيـقـنَّ مـنـا بـانـقـطـاع الـمـطـالـبِ
طلبنَ على الركب المجدّين علّةً فعُجْنَ علينا من صـدور الركائب

فلما تلاقينا كتبنَ بأعينٍ لنا كُتُباً أعجمنَها بالحواجب
فلما قرأناهنَّ سِرّاً طوينَها حذارَ الأعادي بازورار المناكب

وقال آخر:

مَن ذا الذي يختار فرقةَ إلفهِ إلا أنا إخترتُ أن نتفرَّقا
حتى أفوزَ بقُبلةٍ من خَدّهِ عند الوداعِ ومثلِها عند اللِّقا

وقال صفي الدين الحلي:

أتهجرني وما أسلفتُ ذنباً ويظهر منك زُورٌ وازورارُ
وتُعرِض كلما أبديتُ عذراً وكم ذنبٍ محاه الاعتذارُ
فلا واللهِ لا أصفو لخلٍّ سجيّتُه التعتُّب والنِّفار
إذا اختلَّ الخليلُ لغير ذنبٍ فلي في عَوْدِ صحبتِه الخِيار

وقال محمد بن أبي العباس الأبيوردي:

يا ربّةَ البرقعِ كم غُلَّةٍ حامت على ما ضمّه البرقعُ
وفَوَّقتْ عيناكِ لي أَسْهُماً لم تمتنعْ من وقعها الأَدْرُع
هي المطايا فَرَّقتْ بيننا لا فارقتْها أبداً أَنْسُعُ
ونَمَّ ما تُظهره أعينٌ منا بما تُضمره أضلع
فلِمْ قسا قلبُكِ في موقفٍ رقَّتْ به الألفاظُ والأدمعُ؟

الباب الرابع في العشق الصادق

قال بعضهم:

وما الحبُّ من حُسنٍ ولا من سماحةٍ ولكنه شيءٌ به الروحُ تكلفُ

وقال آخر:

ولا خيرَ في الدنيا إذا أنتَ لم تزرْ خليلاً ولم ينظرْ إليكَ حبيبُ

وقال آخر:

وما سرَّني أني خَليٌّ من الهوى ولو أنّ لي ما بين شرقٍ إلى غربِ

وقال آخر:

إذا أنتَ لم تعشقْ ولم تدرِ ما الهوى فأنتَ وعِيرٌ في الفلاة سواءُ

وقال ابن الأحنف:

وما الناسُ إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خيرَ فيمن لا يحبُّ ويعشقُ

وقال ابن أبي كثير لابن أبي الزرقاء: هل عشقتَ حتى تكاتب وتراسل؟ فقال: لا، فقال: لن تفلح والله أبدا.

وقال بعضهم:

ثلاثةُ أحبابٍ فحبُّ علاقةٍ كذا حبُّ تِملاقٍ وحبٌّ هو القتلُ

فهذا البيت يُشعر بأن الحب أشكال ودرجات كما بيناه سابقاً، وأما هذا الباب فهو خاص لنوع واحد منه وهو العشق الصادق، فنقول في بيان ذلك:

العشق الصادق هو غير اختياري، بل يكون من غير تكلف ولا تعلم ولا قاعدة تعرف، بل كما قلنا سابقاً إنه داء يعتري القلب الخالي عن الشواغل المستعد لقبول العشق والانجذاب والتأثر.

وبخلوه عن الشواغل وصفائه يكون قابلاً لانطباع الحب فيه، مستعداً لتأثير العشق عليه، كما أن المعدة بيت الداء إذا كانت مستعدة لقبول الانفعال والتأثير، بأن كان بها أثر تخمة أو لزوجة وتأخر في الهضم، وصادفت مع ذلك أقل برد فإنه يؤثر فيها حالاً تأثيراً قوياً، ويسري ذلك التأثير في سائر الجسد فيتقايأ الإنسان ويمرض مرضاً شديداً بسبب إصابة برد جزئي، لأن المعدة مستعدة والجسد قابل للتأثير، ولولا استعداد المعدة للمرض وتهيؤها لقبول الانزعاج والانفعال لما أثر فيها قليل البرد ولا كثيره.

بل لو دخل الإنسان الصحيح الذي لم يتهيأ جسده ولم تتأهل معدته لقبول المرض في وسط الثلج لما أثر فيه ذلك الثلج، بل يخرج من الثلج في غاية الصحة، ولم يمرضه الثلج ولم يؤثر فيه البرد ولو كان زمهريراً، وكذلك العشق.

والقصد من هذا التوضيح أن أبين لك بأنه يلزم أن يكون القلب مستعداً متهيئاً، ولولا الاستعداد الخلقي الذي في القلب لما عشق ولا مال، ولا انعطف ولا تحرك قلبه، ولو رأى ألف جميل لما بالى بواحد منهم ولو كان من الحور العين.

فالعشق الصادق في الحقيقة هو مختصر جنون، لأنه يكون غشاءً على القلب فيغمي عليه ويستر عنه جميع مساوئ المحبوب فلا يرى منه إلا حسنا، كما يستر عنه أيضاً جميع محاسن العالم، فلا يرى جميلاً غير محبوبه، ولا يستحسن ملبوساً سوى الذي على جسد محبوبه، ولا يناسبه طعام ولا شراب إلا الذي يتناوله بين يدي محبوبه، ولا يعجبه فرش إن لم يكن عليه محبوبه، ولا يأتنس ولا ينشرح في منزل دون منازل محبوبه، وهكذا حاله في جميع الموجودات لا يراها شيئاً إن لم يكن لها أدنى تعلق بمحبوبه، وما هذا إلا مرض وستر على القلب وحجاب على الفؤاد قريب من الجنون.

والذي يظهر لي أن الجنون هو ستر العقل، والعشق الصادق ستر القلب، وأما السكر فهو ستر القلب والعقل معاً، والدليل على ذلك أن الخوف والرعب موضعهما القلب، والفهم والذكاء موضعهما العقل، فمن لا قلب عنده لا يحصل له روع ولا رعب، فلذلك من أغمي على قلبه لا يخاف ولا يهاب أحداً، ومن ليس له عقل لا يحصل له فهم ولا تمييز، فلذلك من أغمي على عقله لا يفهمك ما في ضميره.

فالمجنون لا عقل له بل عقله مستور، ولكن قلبه معه صاح غير مستور، لأنك إن أخفته ونهرته يخاف حالاً ويهاب وينهزم، وهذا دليل على صحو قلبه الذي هو موضع الخوف والفزع والرعب.

وأما العاشق المغرم الهائم فإن عقله صحيح يتكلم معك في أي موضوع شئت، وينظم الشعر ويفهم قصدك ويفهمك قصده، إلا أن قلبه مستور مريض غائب ذاهل لا يحس بشيء، فلذلك تراه لا يهاب ولا يخاف لا من الموت

ولا من السباع ولا من الجن ولا من شيء، لأن القلب الذي هو موضع الخوف مستور غائب ومغمى عليه بألم العشق والغرام، وعلى هذا قول يحيى الأندلسي:

يقولون داوِ القلب تَسْلَ عن الهوى فقلتُ لنعمَ الرأيِ لو أنّ لي قلبا

وقول الباخرزي يحكي قول محبوبته له:

أنا في فؤادك فارمِ طرفَكَ نحوه ترني فقلتُ لها وأين فؤادي؟

وقد ضممت لهذا البيت بيتاً أولاً ليتم معناه فقلت:

لما اشتكيتُ لها الفراقَ ونارَه قالت تُسلِّيني عن الإبعادِ[1]
أنا في فؤادك فارمِ طَرْفك نحوه ترني فقلتُ لها وأين فؤادي؟

فالفؤاد مستور قد أُغمي عليه بالحب، فلذلك ارتفع الخوف والرعب.

وأما السكران فإن عقله وقلبه بالسكر مستوران، فلذلك تراه لا يفهم ولا يعي كالمجنون لاستتار عقله الذي يزن به الكلام ويميز به بين الحق والباطل، ومع ذلك لا يخاف ولا يهاب ويصادم كل عظيم ويقاتل كل من عاكسه، وذلك لاستتار قلبه الذي هو موضع الرعب والخوف والفزع.

لكن السكران يصحو من سكره ويرجع إلى صحوه بعد ساعات بالتدريج، فإن صحا عقله قبل قلبه وارتفع عن عقله حجاب السكر تجده يفهم الكلام ويخاطبك على ما ينبغي، إلا أنه لا يهاب ولا يبالي بأحد، ويرى نفسه أكبر من

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف: أو «قالت بحسن تلطف ووداد» أو «قالت ونحن على شفير الوادي».

الملوك العظام، لأن القلب الذي هو موضع الرعب والخوف معدوم لم يزل مغمى عليه بحجاب السكر، فلذلك يرى نفسه كما قال الشاعر:

شربنا شربةً في ذات عِرقٍ أخا الدهماءِ من حَلَب العصيرِ
وأخرى بالعقنقل ثم سرنا نرى العصفورَ أكبرَ من بعير
كأن الديكَ ديكُ بني نميرٍ أميرُ المؤمنين على السرير
كأن دجاجَهم في الدار رُقْطاً بناتُ الروم في قُمُص الحرير
فصرتُ أرى الكواكبَ دانياتٍ ينلنَ أناملَ الرجلِ القصير
أدافعهنَّ بالكفّين طوراً وأمسح جانبَ القمرِ المنير

هذا إذا صحا قلب السكران ولم يصح قلبه، وأما إن صحا قلبه قبل عقله وبقي عقله مستوراً تحت غشاء السكر ففي تلك المدة التي صحا بها قلبه دون عقله يهاب ويفزع من كل شيء وينهزم من كل صوت ويخضع لكل من قابله، مع أنه لا يعقل شيئاً ولا يفهم ما يقول ولا ما يقال له، وفي هذه الحالة لا يمكنه أن يقول شعراً، ولو أنشد شعراً لغيره لا يمكن أن يأتي به على أصله.

فإذا تعقلت كلامي هذا وأجلت فيه دقيق الفكر تفهم حقيقة نوع أو دقيقة جزء من العشق، وإلا فهو بحر عميق، ونهج واسع سحيق، وأمر غامض دقيق، قال بعض الفضلاء: العشق فضيلة.

وقال آخر:

مالت تودعني والدمعُ يغلبها كما يميل نسيمُ الريحِ بالغُصُنِ
ثم استمرَّتْ وقالت وهي باكيةٌ يا ليت معرفتي إياكَ لم تكنِ

وقال أبو العتاهية:

أبيت مسهَّداً قَلِقاً وِسادي أروّح بالدموع عن الفؤادِ
فراقُك كان آخرَ عهدِ نومي وأولَ عهد عيني بالسهاد
فلم أرَ مثلَ ما سلبتْه نفسي وما رجعتْ به من سوء زادي

وقال سعيد بن حميد:

موقفُ البينِ مأتمُ العاشقينا لا ترى العينُ فيه إلا حزينا
إن في البين فرحتين فأما فرحتي بالوداع للظاعنينا
فاعتناقٌ لمن أحبَّ وتقبيـ ـلٌ ولَمسٌ بحضرة الكاشحينا
ثم لي فرحةٌ إذا قدم النّا سُ لتسليمهم على القادمينا

وقال أعرابي:

ليلُ الشجيِّ على الخليِّ قصيرُ وبَلا المحبِّ على الحبيب يسيرُ
بان الذين أُحبهم فتحمَّلوا وفراقُ من أهوى عليَّ عسير
فلألبسنَّ مَدارعاً مسودَّةً لبسَ الثواكلِ إذ دهاك مسير
ولأذكرنَّكَ بعد موتيَ خالياً في القبر عندي منكرٌ ونكير
ولأطلبنَّكَ في القيامة جاهداً بين الخلائق والعبادُ نُشور
فبجنَّةٍ إن صرتَ صرتُ بجنّةٍ ولئن حواك سعيرُها فسعيرُ
والذنبُ يغفره الإلهُ تكرُّماً والمستهامُ بكل ذاك جدير

** وقال بعض البلغاء: العشق فضيلة تشجّع الجبان وتُسخّي البخيل، وتُصفّي ذهن الغبي، وتطلق لسان الأعجم والعيي، وتشد حزم العاجز الضعيف، والعشق داعية للأدب، وأول باب تفتق به الأذهان والفطن، ويستخرج دقائق المكائد والحيل، يمتع جليسه ويؤنس أليفه، يجول في النفوس سروره ويسكن في القلوب فرحه ونوره، والعشق إذا وقع عن صدق جعل المتحابين كنفس واحدة، وقال بعضهم:

ألا يا حماماتِ اللِّوى عدنَ عودةً ... فإني إلى أصواتكنَّ حزينُ
فعدنَ فلما عدنَ كدن يُمِتْنَني ... وكدتُ بأسراري لهنَّ أُبين
وعدنَ بترداد الهديرِ كأنما ... شربنَ الحميّا أوبهنَّ جنون
فلم ترَ عيني مثلهنَّ حمائماً ... بكينَ ولم تدمعْ لهنَّ عيون

وقالوا: غاية مراد العاشق رضا معشوقه، ورضا المعشوق يكون باتصاف العاشق بما يوجب المدح ويحسن المرتبة، فلذلك ترى العاشق يمرن نفسه على الأخلاق الجميلة كالكرم والشجاعة والأدب والنظافة ليكون مقبولاً عند محبوبه، والدليل على هذا تقدَّم في مقدمة هذا الكتاب، والصادق في المحبة لا يرى وجوداً سوى المحبوب.

وأما أهل العشق الحقيقي الصادقون في محبتهم فكثير، وهم على أنواع وطبقات وأشكال ودرجات، فمنهم الأولياء الأتقياء العاشقون لربهم المتفانون في محبة مولاهم كسيدي عبد القادر الجيلاني وسيدي محيي الدين ابن العربي وأمثالهم، وهم لا يحصون كثرة كالحلاج والبهلول ومن شاكلهم.

ومنهم المتفانون في محبة نبيهم صلى الله عليه وسلم، الباذلون نفوسهم وأرواحهم فداءً له، ككبار الصحابة رضوان الله عليهم، ومنهم العاشقون لأقرانهم من الكواعب الخرد العِين الجميلات الفاتنات بالغنج والكحل، وكسيدي عمر ابن الفارض الذي يقول:

شربنا على ذكـر الحبيبِ مُـدامـةً سكرنا بها من قبل أن يُخلَق الكرمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يُديرها هـلالٌ وكـم يبدو إذا مُـزجـتْ نجمُ
ولـولا شـذاهـا مـا اهـتـديـتُ لحانها ولـولا سناها مـا تـصـوَّرهـا الـوهـم
فـإن ذُكِـرتْ في الحيّ أصبح أهلُه نَـشـاوى ولا عــارٌ عليهم ولا إثـم
وإن خطرتْ يوماً على خاطر امرئٍ أقـامـت بـه الأفــراحَ وارتـحـل الهمُّ

** وقال بعضهم: ولي الله المحب لله لا يخلو قلبه عن ذكر الله تعالى ولا يسأم من خدمته، فإذا أعرض أعرض عنه، وإذا أقبل أقبل الله عليه برأفته ورحمته، وقال صلى الله عليه وسلم: «من علامة حب الله كثرة ذكره» فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره، فطوبى لمن وجد في ذكر الله راحته وأنسه، وجعل في خدمته وليمته وعرسه، وكانت له في رياض مجالس الذكر جلسه، فذاك الذي ملأ بالحسنات طرسه:

إذا طيّبَ الناسُ المجالسَ وابتغوا مُــدامــاً وريـحــانــاً فـذكــرُكَ طيبُنا
وإن كان حبُّ الخَلْقِ بعضُهُمُ بعضاً فـأنــتَ لـنـا ذخــرٌ وأنـــتَ حبيبُنا
وإن كـانـتِ الـدنـيـا نصيباً لأهلها فـحـبُّـكَ مـن دون الأنـــام نصيبُنا

** قيل إن الله تعالى أوحى إلى يحيى عليه السلام، قال: يا يحيى إني

قضيت على نفسي أنه لا يحبني أحد من خلقي أعلم ذلك من نيته إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وفؤاده الذي يعقل به، فإذا كنت كذلك بغضت إليه من يشغله عني فلا يشتغل بغيري، وأدمت فكره وأسهرت ليله وأظمأت نهاره، أنظر إليه في كل يوم سبعين نظرة، وأملأ قلبه نوراً حتى ينظر بنوري، فكيف يسكن يا يحيى وأنا جليسه وغاية أمنيته.

وعزتي وجلالي لأبعثنه مبعثاً يغبطه النبيون والمرسلون، ثم آمر منادياً ينادي هذا حبيب الله وصفيه دعاه إلى زيارته، فإذا جاءني رفعت الحجاب الذي بيني وبينه، فلما ذكر الحجاب صاح يحيى صيحة فلم يفق ثلاثة أيام.

وقال أبو يزيد البسطامي: بالمحبة السابقة من المولى الحبيب يلتجئ العبد في مهماته إليه، ويعول في حال اضطراره عليه.

وقال بعض الصالحين: محبة الله للعبد فضل تكرم وتعطف وزيادة تنعم وتلطف، ورعاية صدرت عن عناية وولاية ظهرت عن سابق ولاية، وملاحظة أزلية ومحافظة سرمدية.

** قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: سمعت رجلاً صادقاً يقول: رأيت شخصين نزلا من السماء بيد أحدهما صحيفة من فضة وقلم من ذهب، والآخر يأمره ويملي عليه، فقال له: أكتب المحبين لله في هذه البلدة، قال: فذكر له نفراً سماهم، وجعل ذلك يكتب، فقلت له: اكتبني معهم، فقال المملي: لست منهم، فبكيت وقلت: والله إني أحبهم، فقال: نعم أنت تحبهم، ثم قال لصاحبه: أكتبه في آخر الصحيفة من محبي المحبين، قال: فبينما هو يخاطبه إذ نزل ملك من السماء فقال: إن الله يأمرك أن تكتبه في المحبين، وتلحقه بهم لحسن نيته وجميل طويته.

وقال الشاعر:

لو شئتَ داويتَ جسماً أنتَ مُسقمُهُ ... ففي يديك من البلوى سلامتُهُ
القلبُ في وَلَهٍ والطَّرْفُ منتظرٌ ... من كان مثلي فقد قامتْ قيامته

قال ابن الوردي:

أخذتَ حبّةَ قلبي ... فصغتَها لك خالا
لقد كستني نُحولاً ... كما كستك جمالا

ومن أوصاف العشق وكيفيته قول النصيبي:

وما في الأرض أشقى من محبٍّ ... وإن وجد الهوى حلوَ المذاقِ
تراه باكياً أبداً حزيناً ... مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إنْ دنوا خوفَ الفراق
فتسخن عينُهُ عند التنائي ... وتسخن عينُه عند التلاقي

وقال محمد البغدادي التميمي:

إن زارني لم أنم من طيبِ رؤيتهِ ... وإن جفا لم أنم من شدة الحُرَقِ
ففي الوصال عيوني غيرُ راقدةٍ ... من السرور وفي الهجران من أَرَق
إني لأخشى حريقاً إن علا نَفَسي ... وأتقي إن جرى دمعي من الغَرَق

وقال آخر:

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كبداً ليستْ بذات قروحِ

أباها عليَّ الناسُ لا يشترونها ومن يشتري ذا علّةٍ بصحيح
أئنّ من الشوق الذي في جوانحي أنينَ غَصيصٍ بالشراب قَريح

وقال يزيد ابن الطثرية:

ألا يا صَبا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ لقد زادني مَسراكَ وجداً على وَجْدِ
أإن هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى على غُصُنٍ غضِّ النباتِ من الرَّنْد
بكيتَ كما يبكي الحزينُ صبابةً وذبتَ من الوجد المبرِّح والجهد
وقد زعموا أن المحبَّ إذا نأى يملّ وأن النأيَ يشفي من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا ولكنَّ قربَ الدار خيرٌ من البعد
على أن قربَ الدار ليس بنافعٍ إذا كان من تهواه ليس بذي وُدٍّ

والعاشق الصادق تراه لا يخلو عن خيال محبوبه، ولا يفتر عن ذكر معشوقه لحظة من اللحظات، متساوية عنده أوقات الشدائد وساعات المسرات، فخيال المحبوب في ذهن المحب، وذكر المعشوق في لسان العاشق متمكن ثابت، لا يزيله بل ولا يضعفه مرض العاشق ولا عذابه ولا كدره ولا سروره ولا موته ولا حياته ولا هجره ولا وصاله، بل المحب الصادق يكون ثابت الحب في جميع الحالات، كما قال عنترة بن شداد العبسي:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبِيضُ الهندِ تقطر بالدمِ
فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعتْ كبارق ثغركِ المتبسِّمِ

وقال آخر:

ذكــرتُ سُلـيـمـى ونــارُ الـوغـى   كـقـلـبـيَ سـاعــةَ فـارقـتُـهـا
وأبـصـرتُ قَـدَّ الـقـنـا شِـبْـهَـهـا[1]   وقــد مـلـنَ نـحـوي فـعـانـقـتُـهـا

يلزم أن نذكر شيئاً من أخبار كثير وجميل وذي الرمة ومي بنت طلحة بن قيس وشيئاً من أشعارهم.

وقال آخر:

ولـقـد ذكـرتُـكِ والـرمـاحُ كأنها   أشـطـانُ بـئـرٍ فـي لِـبـان الأدهـمِ

وقال رسيان العذري:

لـو جُـزَّ بالسيف رأسـي فـي مودتها   لمالَ لا شـكَّ يهوي نحوها رأسي

** وقال جعفر بن علبة الحارثي:

هـوايَ مع الركب اليمانين مُصْعِدٌ   جنـيـبٌ وجـثـمـاني بـمـكّـةَ مُـوثَـقُ
عجبتُ لمسراها وأنّـى تخلَّصتْ   إلـيَّ وبــابُ الـسـجـن دونـيَ مغلَقُ
عجبتُ لمسراها وسـربٍ أتـتْ بهِ   بُعيْدَ الكرى كادت له الأرضُ تشرق
ألـمَّـتْ فحيَّتْ ثـم قـامت فـودَّعـتْ   فلما تـولَّـتْ كـادتِ الـنفسُ تزهق
فـلا تحسبي أنـي تخشَّعتُ بعدكم   لـشـيءٍ ولا أنـي مـن الـمـوت أفـرق
ولا أن نفسي يـزدهـيـهـا وعـيـدُكـم   ولا أنني بالشيء في القصد أخرق
ولـكـنْ عـرتـنـي مـن هــواكِ ضمانةٌ   كما كنتُ أُسقى منكِ إذ أنا مطلق

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «فشبهت سمر القنا قدها».

** تزوج كعب بن مالك الطائي أم عمرو بنت أبي رباح فأحبها وألفها طويلاً، ودخل عليها يوماً فوجدها عريانة فأعجبته وسرته حين نظر إليها بتلك الحالة، فقال لها: أنشدك الله هل تعلمين امرأة أحسن منك؟ فقالت: نعم أختي ميلاء، فقال: ومن لي بأن أنظرها؟ فأرسلت إليها فحضرت، وكانت أصغر أخواتها، فلما رآها وقعت في قلبه موقعاً أدى إلى زوال عقله من العشق، وشغفت أيضاً هي بحبه، وصارا يجتمعان، فتبعتهما أم عمرو يوماً فرأتهما يتشاكيان المحبة، فمضت إلى إخوتها وكانوا سبعة فأخبرتهم وقالت لهم: إما أن تزوجوها كعباً أو تغيبوها عني.

فلما علم أن خبره وصل إلى إخوة ميلاء هرب إلى الشام، وبقي مدة طويلة لا يعلم أحد بمكانه، حتى أن شامياً في بعض السنين خرج يريد الحج فضل عن الطريق فصادف امرأة فاسترشدها، وكان بالقدر المحتوم أنها ميلاء وإلى جانبها أختها أم عمرو، فأنشد الشامي قول كعب متمثلاً به:

أفي كلّ يومٍ أنتَ من بارحِ الهوى إلى الشام من أعلام ميلاءَ ناظرُ
بعمشاءَ من طول البكاءِ كأنما بها حرُّ نارٍ طَرْفُها مُتَحادر
تمنّى المنى حتى إذا قلَّتِ المنى جرى واكفٌ من دمعها مُتبادر
كما ارفضَّ سِلكٌ بعدما ضمَّ ضمّةً بخيط الفتيل اللؤلؤُ المتناثر

فلما سمعت الشعر وفيه اسمها سألته: ممن الرجل؟ قال: من الشام، قالت: أتعرف صاحب هذا الشعر؟ قال: هو أعرابي اسمه كعب، فأقسمتا عليه أن لا يبرح حتى ينظره إخوتهما، فنزل عندهما وجاء إخوتهما فأكرموه ودلوه على الطريق بعد أن استخبروه عن كعب وموضعه.

ثم توجهوا في طلب كعب، ومرضت ميلاء، فلما وصلوا الشام وجدوا كعباً فرجعوا به، ولما وصلوا نزل كعب ناحية، وصادف وقت وصولهم وقت وفاة ميلاء، فرأى الناس عند البيت مجتمعين فأحس بالشر، وقال لصبي بإزائه: من أبوك؟ قال: كعب، وكان تركه صغيراً حين مضى إلى الشام فعرفه وقال له: ما اجتماع الناس على طنب هذا البيت؟ قال: على خالتي ميلاء ماتت هذه الساعة، فلما سمع ذلك وضع يده على قلبه وخر ميتاً، فدفنوه إلى جانبها رحمهما الله تعالى.

** خرج زرعة بن خالد العذري يوماً للصيد، فلما ورد المشرعة وجد النساء يغترفن الماء من الغدير، ودونهن جارية قد انفردت تمشط شعرها على جانب الغدير، وقد أسبلته عليها كالليل ووجهها من خلاله كأنه البدر، فحين أبصرها سقط مغشياً عليه، فقامت إليه ورشت عليه الماء حتى أفاق، فأبصرها ترشه بالماء فقال: وهل مقتول يداويه قاتله؟ فقالت له: كفيت ما تشكو.

ثم حادثته ساعة فثابت نفسه إليه، وقد داخلها ما داخله من الحب، فرجع إلى أهله ولزم الوساد أياماً، ثم أن أمه أقسمت عليه أن يخبرها بحاله فأظهرها على الأمر ووصف لها الجارية فعرفتها وهي ظريفة بنت صفوان، فمضت إليها وأعلمتها بقصة ابنها وقبلت رجليها على أن تزور بيتها، فعسى أن يشفى ولدها إذا رآها، فاعتذرت وقالت: إن الوشاة كثير، ولكن خذي هذا الشعر إليه، فإن أمسكه فإنه يشفى، ثم جزت لها شيئاً من شعرها، فلما ذهبت به إليه جعل يستنشقه فتراجعت نفسه شيئاً فشيئاً، حتى اشتهى الأكل فتناول شيئاً من الطعام وقام.

فكان يأتي قريباً من بيوت الحي فيسارقها النظر وتسارقه هي أيضاً، إلى أن

فطن أهلها فأرادوا قتله ففر إلى اليمن، وصار كلما اشتد شوقه قبّل ذلك الشعر وجعله على وجهه فيرتاح ويسكن بعض ما به، فسقط الشعر منه يوماً فاستنشد عنه أياماً فلم يعثر به.

ولما أيس منه عزم على أن يعود إليها، وعزم على أنه إما أن يظفر بها أو يموت، فارتحل من اليمن ومعه غلام، وجعل يعلم الغلام في الطريق أبياتاً قالها وهي:

مريضٌ بأفناء البيوتِ مُطرَّحٌ   به ما به من لاعج الشوقِ يبرحُ
وقالوا لأجل اليأسِ عُودي لعل ما   تشكّاه من آلام وجدك يُمسَح
وليس دواءُ الداءِ إلا بخيلةً   أضرَّ بنا فيها غرامٌ مُبرِّح
إذا ما سألناها نوالاً تُنيلهُ   فصُمُّ الصفا منها بذلك أسمح

وقال له: إذا حاذيت موضع كذا فانشدها رافعاً صوتك، فلما بلغ الغلام الموضع الذي وصفه له رفع عقيرته وأنشد الأبيات بأعلى صوته، فسمعته ظريفة فأجابته قائلة:

رعى اللهُ من هام الفؤادُ بحبّهِ   ومن كِدتُ من شوقي إليه أطيرُ
لئنْ كثرتْ بالقلب أتراحُ لوعةٍ   فإن الوشاةَ الحاضرين كثيرُ
فيمشون يستشرون غيظاً وشِرّةً   وما منهمُ إلا أبٌ وغيور
فإن لم أزرْ بالجسم خيفةَ معشرٍ   فلَلقلبُ آتٍ نحوكم فيزور

ثم رجع الصبي فأنشده أبياتها فخر مغشياً عليه، ثم أفاق ومضى متنكراً حتى دخل بيته، وبقي أياماً حتى زفت ظريفة إلى ثعلب بن فلان، فلما بلغه

الخبر اضطرب حتى مات، وبلغها موته فلزمت البكاء أياماً ولم تمكن ثعلباً من نفسها.

فخرجت ليلة بعد انتصاف الليل، فتبعها زوجها حتى انتهت إلى النهر فألقت بنفسها فيه، فرمى نفسه وأخرجها وحملها إلى البيت وبها رمق، فأشارت إلى أمها أن تسقى ماء فسقوها فقضت من وقتها.

** قال الأصمعي: بينا أنا سائر إذ دهمني الليل فأويت إلى مقبرة فتوسدت قبراً، فإذا بهاتف من القبر يقول:

أنعمَ اللهُ بالخيالين عينا ... وبمسراكِ يا سعادُ إلينا
وحشةً ما لقيتُ من خلل القَبْـ ... ـرِ عسى أن نراكِ أو أن تَرَيْنا

قال الأصمعي: فدخلت إلى الحي حين طلع الصبح فإذا أنا بجنازة فتبعتها حتى دفنت إلى جانب ذاك القبر الذي سمعت منه الصوت، فحدثتهم بما سمعت البارحة، فأخبروني أن صاحب القبر زوج هذه التي دفنت وابن عمها، تزوج بها فلم يقم معها إلا قليلاً ومات، فاشتد بها الوجد حتى ماتت الليلة.

** مر يوماً عامر بن الملوح على ناقة له بنسوة يتحدثن فأعجبهن فاستنزلنه للمنادمة، فنزل وجعل يحادثهن ويقلب طرفه حتى وقعت عينه على ليلى فشغفت قلبه فلم يطق أن يصرف نظره عنها، وشاغلته النسوة عنها فلم يشتغل، ثم قال: هل عندكن ما تأكلن؟ قالت: لا، فعمد إلى ناقته فنحرها وقطعها.

وجاءته ليلى لتمسك معه اللحم فجعل يحز بالمدية في كفه وهو شاخص فيها لا يدري عن نفسه فجذبت المدية من يده، ثم طرحوا شيئاً من اللحم على النار، فقالت له: انظر إلى اللحم هل استوى؟ فمد يده إلى الجمر وجعل يقلب

اللحم ويحادثها، فاحترقت يده ولم يشعر، فلما علمت ما داخله من الحب صرفته عن النار، وشدت يده بهدب قناعها، ثم ذهب وقد تحكم عشقها في قلبه.

ثم مر بها يوماً وقد داخلها حبه، فقالت: هل لك في محادثة من لا يصرفه عنك صارف؟ فقال: ومن لي بذلك؟ ونزل عن بعيره وتحادثا نهارهما، فتداخلت بينهما المحبة وشاع خبرهما، فشهر بمجنون ليلى وازداد به الوله حتى صار يجلس في نادي القوم يحدثونه وهو باهت ذاهل لا يفهم ما يُحدث به إلا إذا ذكر له ليلى، فمتى ذكروا له ليلى رجع عقله وفهم كلامهم، وحدثه مرة بعض أهله بحديث ثم سأله عنه فلم يعرفه، فقال: إنك لمجنون، فقال:

إني لَأجلس في النادي أُحدِّثهم فأستفيق وقد غالتنيَ الغولُ
يهوى بقلبي حديثُ النفسِ نحوكمُ حتى يقولَ جليسي أنت مخبول

** ولما اشتد حب قيس بن ذريح بلبنى بنت الحباب شكا إلى أبيه ذلك ليزوجه بها، فقال له: دع هذه وتزوج بإحدى بنات عمك، فغُمَّ من كلامه، وذهب إلى أمه فأخبرها فكان جوابها مثل جواب أبيه، فتركهما وجاء إلى الحسين بن علي وأخبره بقصته، فرثى له ومضى معه إلى أبيه واسترضاه، فمضى به إلى أبي لبنى وسأله في ذلك فأجابه بالطاعة، وقال: يا ابن رسول الله لو أرسلت لكفيت، وزوج قيس بلبنى، وأدى الحسين المهر من عنده.

وأقامت عنده عشر سنين، وأم قيس تعنفه كل يوم وتأمره بطلاقها، ثم شددت وحلفت عليه أن يطلقها فطلقها وندم بعد ذلك، ولما وفت عدتها ارتحلت إلى أهلها فأغمي على قيس يوم فارقته، ولما أفاق أنشأ يقول:

وإنـي لَـمُـفْـنٍ دمـعَ عـيـنـيَ بالبُكا حـذارَ الـذي قـد كـان أو هـو كائنُ
وقـالـوا غـداً أو بـعـد ذاك بليلةٍ فـراقُ حبيبٍ لـم يـبـنْ وهـو بائن
ومـا كنتُ أخشى أن تـكـونَ منيّتي بـكـفّـيـكِ إلا أنّ مـا حـان حـائـن

وزاد به الهيام وصار ينشد فيها الأشعار إلى أن تغيرت أحواله، وتزوجت لبنى برجل من قومها غير أن حب قيس شغف قلبها وأضناها أيضاً.

وكان قيس بن ذريح خرج ذات يوم إلى المدينة ليبيع ناقة له، فاشتراها زوج لبنى وهو لا يعرفه، فقال له: انطلق معي أعطيك الثمن، فمضى معه وكل منهما لم يعرفه الآخر، فلما وصلا إلى البيت وفتح صاحب البيت الباب وإذا لبنى وقد استقبلت قيساً، فلما رآها قيس ولى هارباً، وخرج الرجل في إثره بالثمن ليدفعه إليه، فامتنع وقال: لا والله لا تركب لي مطيتين أبداً، قال: أنت قيس بن ذريح؟ قال: نعم، قال: هذه لبنى قد رأيتها فقف حتى أخيرها فإن اختارتك طلقتها، وظن القرشي أنها لا تختار قيساً عليه، فقال له قيس: افعل، فدخل القرشي على لبنى وخيرها فاختارت قيساً فطلقها.

وأقام قيس ينتظر انقضاء عدتها ليتزوجها فماتت في العدة، فلما بلغ قيساً خبر وفاتها خرج حتى وقف على قبرها وأنشد:

مـاتـت لـبـيـنـى فـمـوتُـهـا مـوتـي هـل يـنـفـعـنْ حـسـرةٌ عـلـى الـفـوتِ
إنـي سـأبـكـي بـكـاءَ مـكـتـئـبٍ قـضـى حـيـاةً وجـداً عـلـى مَـيْـتِ

ثم بكى حتى أغمي عليه ومات بعد ثلاث ودفن إلى جانبها.

** ومن قول أهل العشق الصادق:

قفي يا أُمامَ القلبِ نقرأْ تحيّةً ... ونشكو الهوى ثم افعلي ما بدا لكِ
فلو قلتِ طَأْ ناراً وأعلم أنه ... هوىً منكِ لي أو منَّةٌ من نوالك
لقدَّمتُ رجلي نحوها فوطئتها ... هوىً منكِ لي أو هفوة من ملالك
سلي البانةَ العليا من الأجرع الذي ... به البانُ هل حاولتُ غيرَ وصالك
وهل قمتُ في أطلالهنَّ عشيّةً ... قيامَ سقيمِ القلبِ واخترتُ ذلك
ليهْنِكِ إمساكي بكفّي على الحشا ... ورقراقُ دمعي رهبةً من زِيالك

وقال غيره:

أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرِها ... يلذّان في الدنيا ويغتبطانِ
وأُمسي وتُمسي في البلاء كأننا ... أسيران للأعداء مرتهنان
أصلّي فأبكي في صلاتي لذكرها ... ليَ الويلُ مما يكتب الملكان
ضمنتُ لها أن لا أهيمَ بغيرها ... وقد وثقتْ مني بغير ضمان
ألا يا عبادَ اللهِ قوموا تَسمَّعوا ... خصومةَ معشوقين يختصمان
وفي كلّ عامٍ يستجدّان مرّةً ... عتاباً وهجراً ثم يصطلحان
يعيشان في الدنيا غريبين أينما ... أقاما وفي الأعوام يلتقيان

وقال عقبة الكلابي:

إذا اقتسمَ الناسُ الأحاديثَ وانتحوا ... خلا بفؤادي حبُّها وانتحانيا
فكفكفتُ دمعي ثم حوَّلت مضجعي ... فلم يدرِ إلا اللهُ لوعةَ ما بيا
وقالوا نرى هذا عن اللهو مُعرِضاً ... فقلت لهم لا يعنِكم ما عنانيا

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكتمُ ولامــكَ أقــوامٌ ولـومُـهـمُ ظـلـمُ
ونَــمَّ عليك الـكـاشـحون وقبلَهم عليك الـهـوى قـد نَـمَّ لـو نفع النَّـمُّ
وزادك إغــراءً بـهـا طـولُ هجرِها قديماً وأبـلـى لحمَ أعظمِك الهمُّ
فأصبحتُ كالهنديِّ إذ مات حسرةً على إثْـر هندٍ أو كمن سُقِي السمُّ
ألا مـن لنفسٍ لا تـمـوت فينقضي عَـنـاهـا ولا تحيا حـيـاةً لـهـا طعم
تـجـنَّـبـتُ إتـيـانَ الـحـبـيـبِ تـأثُّـمـاً ألا إن هـجـرانَ الحبيبِ هـو الإثـم
فـذقْ هـجـرَهـا قـد كـنـتَ تـزعـم أنه رشـادٌ ألا يـا ربـمـا كـذبَ الـزعـمُ

الباب الخامس في العشق الكاذب

العشق الكاذب هو في الحقيقة محبة وحنو وميل وود، فلذلك قيل له عشق كاذب، وإلا لما قيل له عشق بالكلية، بل كان يسكت عنه أو يقال لا عشق أو يقال عداوة، لأنه إن وجدت ذرة من عداوة لا يمكن أن تكون هناك محبة، ولا يمكن أن يسمى عشقاً لا صادقاً ولا كاذباً، ومحال أن يقال لصاحب ذرة من عداوة عاشق.

وأيضاً إن لم تكن هناك محبة جزئية فلا تكون إذاً علاقة ولا رابطة بالكلية، ولا يمكن حينئذٍ أن يتودد الإنسان بالكذب إلى من لا يشتهيه وينظم فيه الأشعار الرائقة والقصائد الفائقة، بل يلزم أن تكون هناك محبة ورابطة ودية، ولو أنها ضعيفة قليلة جزئية.

وهذه المحبة الزهيدة التي لا تكاد تذكر هي التي أسست التملق الكاذب، وأحوجت المحب إلى الائتلاف والمودة، وتسببت في الربط الودي والإلفة العظيمة التي ظهرت للعالم، حتى قالوا بينهما محبة وعشق، ومع ظهور عشقه وإفشائه وشيوعه في العالم يقولون له كاذباً.

وإنما سميت هذه المحبة كاذبة لصغرها جداً واحتقارها، مع أن صاحبها يجسمها ويعظمها ويجعلها أنها هي المحبة الوحيدة التي لم يخلق في العالم مثلها، ولم يوجد في قلب أعظم عاشق عشرها بجودة شعره ولطافة أسلوب نظمه ورقة ألفاظه وحذقه، لا بشدة غرامه ولا بقوة عشقه، فلذلك سمي هذا العشق الكاذب، وهذه المحبة محبة كاذبة.

وقد وصف أهل هذه المحبة وتعرض لهم سيدي عمر ابن الفارض بقوله:

تَعرَّضَ قومٌ للغرام وأعرضوا بجانبهم عن صحّةٍ فيه واعتلوا
رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحارَ الحبِّ دعوى فما ابتلوا
فهم في السُّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلّوا
وعن مذهبي لما استحبّوا العمى على الـ هدى حسداً من عند أنفسِهم ضلّوا

وهذا النوع في المحبين كثير لا يحصى، لأن أغلب مدعي العشق والمحبة هم من هذا النوع، لأنهم كلما رأوا مليحاً أو لطيفاً ظريفاً مال قلبهم إلى لطفه وجماله ميلاً لطيفا كما ذكرناه لكم الآن.

وبهذا الميل الجزئي يدعون أنهم يعشقونه، فينظمون فيه الأشعار الغريبة بالتراكيب العجيبة، لا لشدة عشقهم له بل لتفننهم وتقدمهم في علم الأدب وتمرنهم على البديع، وتمكنهم من الرقة واللطف، فمن أشعار أرباب العشق الكاذب قول أبي نواس:

كأنّ ثيابَه أطلعْـ نَ من أزراره قمرا
يزيدك وجهُه حُسناً إذا ما زدتَه نظرا
بعينٍ خالطَ التفتيـ رُ من أجفانها الحَوَرا
وخَدٍّ سابريٍّ لو تَصوَّبَ ماؤه قَطَرا

وقال بعضهم:

تَدَّعي مذهبَ الهوى ثم تشكو أين دعواكَ في الهوى يا مُعنّى

لـو وجـدنـاك صـابـراً لـبَلانـا لأنـلـنـاك كـلَّ مـا تـتـمـنّـى[١]

وقال آخر:

إلى الله أشكو جورَ أهيفَ شادنٍ وقعتُ فما لي من يديه خلاصُ
جُرِحْتُ بعينَيْ خَدِّه وهو جارحٌ بعينيه قلبي والجروحُ قِصاص

** وقال والدي المرحوم الشيخ عبد الجليل برادة:

وبمهجتي من سلَّ صارمَ لحظهِ فحمى لورد خدودِه أن يُجتنى
لو أن رقّةَ خَدِّهِ أو لفظهِ أو قَدِّه في قلبه نلتُ المنى

وقال ابن الرومي:

وقفتْ وقفةً بباب الطاقِ ظبيةٌ من مُخدّرات العراقِ
بنتُ سبعٍ وأربعٍ وثلاثٍ أسرتْ قلبَ صبِّها المشتاق
قلتُ من أنتِ يا غزالُ فقالت أنا من لطف صنعةِ الخَلّاق
لا ترمْ وصلَنا فهذا بَنانٌ قد صبغناه من دم العشّاق

وقال آخر:

صدورٌ فوقهنَّ حِقاقُ عاجٍ ودُرٌّ زانه حسنُ اتّساقِ
يقول الناظرون إذا رأوه أهذا الحَلْيُ من هذي الحقاق

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «إلى هنا تم تبييض هذا الكتاب ونسخه، فيلزم إتمام النسخ من بعد هذا ومقابلته ومراجعته وتصحيحه».

وما تلك الحقاقُ سوى ثُديٍّ جُعِلْنَ من الحِقاق على وِفاق
نواهدُ لا يُعدُّ لهنَّ عيبٌ سوى منعِ المحبِّ من العناق

وقال آخر:

لقد فتكتْ عيونُ الغِيد فينا ببِيضٍ مُرهفاتٍ وَهْي سودُ
وتطعننا القدودُ إذا التقينا بسُمْرٍ من أسنَّتِها النهودُ

وقال آخر:

كحُقّينِ كم كعبِ كافورةٍ برأسهما نُقطتا عنبرِ

وقال ابن نفيس الإربلي:

جاءني يسعى وفي يده قدحٌ من لون وجنتِهِ
ونجومُ الليل قد بزغتْ والثريا مثلُ قبضته
فشربنا من يديه على خَدِّه من خمر رِيقته
واتّكى سُكراً فما عبثتْ لي يدٌ إلا بتِكّته

وقال ابن المنشد:

صبوتُ إلى مليحٍ قام يسعى بكأسٍ من رحيقٍ كالحريقِ
فناولني عقيقاً حشوَ دُرٍّ وقَبَّلني بثغرٍ كالشقيق
وقال وقد رأى نظري إليه وعُظْمَ تَشوُّقي قولاً حقيقي
تأمَّلْ وجنتي وفمي وكأسي عقيقٌ في عقيقٍ في عقيق

وقال كشاجم:

وعــذَّبــنــي قـضـيـبٌ فـي كـثـيـبٍ تَـــشـــاركَ فـيـه لـيـنٌ وانـــدمـــاجُ
أغـــارُ إذا دنـــتْ مـن فِـيـه كـأسٌ عـلـى دُرٍّ يُـقـبِّـلـه زُجـــاج
وأُشـفـق إن دنـا الـمـصـباحُ منه عـلـى بـــدرٍ يُـقـابـلـه سِـــراج

وقال آخر:

ظـهـر الـهـوى وتـهـتَّـكـت أسـتـارُهُ والـحـبُّ خـيـرُ سبيلـهِ إظـهـارُهُ
فاعصِ الـعـواذلَ في هـواكَ مُجاهراً فـألـذُّ عـيـشِ الـمسـتـهـامِ جِـهـارُهُ

وقال ابن قلاقس:

كتمتُ الهوى عند الـعـواذلِ ضِنَّةً عليهم بـمـن أصـبـو إلـيـه وأهـــواهُ
ولـو قـلـت إنـي عـاشـقٌ فطـنـوا به لعلمهمُ أن لـيـس يُـعـشَـق إلا هُـو

وقال آخر:

يـقـولـون مـا نــارٌ بقلبكَ أُودعـــتْ ومن أين تأتي النارُ أدركَـكَ السلبُ
فقلتُ لهم بـلّـورةُ الـعـيـنِ قابلتْ أشعةَ شمسِ الحسنِ فاحترقَ القلبُ

وقال المتنبي:

أرخَـــتْ ثـلاثَ ذوائــبٍ من شعرها فــي لـيـلـةٍ فـــأَرتْ لـيـالـيَ أربـعـا
واستقبلتْ قـمـرَ الـسـمـاءِ بوجهها فـأرتـنـيَ الـقـمـريـنِ فـي وقــتٍ معا

وقال آخر:

أرخــتْ ثـلاثـاً يــومَ حَـمّـامِـهـا ذوائــبــاً تـعـبق مـنـهـا الـغـوالـي
فـقـلـتُ والـقـصـدُ ذؤابـاتُـهـا وا سهري في ذي الليالي الطوالِ

وقال ابن المعتز:

تـوارت عـن الـواشـي بليل ذوائـبٍ لها مـن مُـحيّا واضـحٍ تحته فجرُ
يـغـطّـي عـلـيـهـا شـعـرُهـا بظلامه (وفـي الليلة الظلماءِ يُفتقَدُ البدرُ)

وقال آخر:

بــدتْ ثـريـا قُـرطِـهـا وشَـعـرُهـا مـتَّـصِـلٌ بـكـعـبـهـا كـمـا تـرى
يـا عَـجـبـاً لـشَـعـرهـا لـمـا ابـتـدا مـن الـثـريـا فـانـتـهـى إلـى الـثـرى

وقال آخر:

صـادفـتُـهـا والـريـحُ تـضـرب عقرباً مـن فـوق خَـدٍّ مثـلِ قـلـبِ العقربِ
فتمايلتْ عـني وصـدَّتْ وانثنتْ وتـسـتَّـرتْ مـنـي بـقـلـب الـعـقـرب

وقال البحتري:

ولـمـا التقينا والـلِّـوى مـوعـدٌ لنا تعَجَّبَ رائـي الـدرِّ حُسناً ولاقطُهْ
فـمـن لـؤلـؤٍ نجنيه عـنـد ابتسامِها ومـن لـؤلـؤٍ عند الحديثِ تُساقطُهْ

وقال آخر:

وأنسيّةٌ زارت مع النومِ مضجعي فعانقتُ غصنَ البانِ منها إلى الفجرِ
أسائلها أين الوشاحُ وقد سرتْ معطَّلةً منه معطّرةَ النَّشْرِ
فقالت وأومتْ للسّوار نقلتُه إلى معصمي لما تقلقلَ في خَصْري

وقال آخر:

زارت وفي مِعصمها إذ أتتْ سلسلةٌ زادت غرامي وَلَهْ
وبَدَّدتْ عقليَ في نظمها فها أنا المجنونُ في السلسلَهْ

وقال آخر:

وهيفاءُ تهوى الراحَ قالت لصَبِّها بمجلس أنسٍ وهو يخشى مَلالَها
إذا لم تُدِرْ لي الكأسَ ملآنَ إنني أليتكَ مهجوراً فخافَ مَلا لها

وقال طاهر القيسراني:

أشارتْ إليَّ بعُنّابةٍ مخضَّبةٍ من دم الأفئدَهْ
وقالت على العهد يا سيدي فقلتُ إلى الحشر يا سيِّدَهْ

وقال بعضهم مخمساً:

فديتُ من لو رآها الغصنُ مال لها شوقاً ولو قتلتْ صَبّاً لحلَّ لها
حوريةً لو رآها عابدٌ للها (مَرَّتْ بحارس بستانٍ فقال لها)
(سرقتِ رُمانتيْ نهديك من شجري)

قالت وقد بُهِتتْ من قوله خجلا فَتِّشْ قميصي لكي أنْ تُذهِبَ الوجلا
فهمَّ أن يقبضَ النهدين ما مَهَلا (فصاح من وجنتيها الجُلَّنارُ على)
(قضيبِ قامتِها لا بل هُما ثمري)

وقال آخر:

فاقت بقامتها الهيفا على القُضُبِ وليس في الخمر ما في ثغرها الشَّنِبِ
خَوْدٌ عن البدر تروي حسنَها وبها عيناي قد أصبحتْ تروي عن السُّحُبِ
خضراءُ تُشهِر بِيضاً من لواحظها تُكلِّم القلبَ يدعوها فلم تُجِب
ما ضرَّ لو نظرتْ بالعين أو عذرتْ بالقلب لو أمرتْ بالسُّقْم يرفق بي
يا حسرةً متُّ أشواقاً وقاتلتي مسرورةُ القلبِ في لهوٍ وفي لعب

وقال محيي الدين ابن القرماني:

أراق دمي بسيف اللحظ ظلماً وها أثرُ الدماءِ بوجنتَيْهِ
فلمّا خاف من طلبي لثأري أدار عِذارَه زَرَداً عليهِ

وقال إبراهيم بن سهل الإشبيلي:

أخاف عليكِ أن أشكوكِ بَثّي مشافهةً فيُخجلكِ السماعُ
وإنْ عَبَّرتُ عن شوقي بكُتْبٍ تَلَهَّبَ في أناملِيَ اليراع

وقال الأبيوردي:

وعليلةُ الألحاظِ ترقد عن ... صبٍّ يصافح جفنَه الأرقُ
ففؤادُه كسِوارها حَرِجٌ ... ووِسادُه كوشاحها قَلِقُ
عانقتُها والشهبُ ناعسةٌ ... والأفقُ بالظلماء مُنتطِق
فلثمتُها والليلُ من قِصَرٍ ... قد كاد يلثم فجرَه الشفق
بمَضاجعٍ ألفَ العفافَ بها ... كَرَمٌ بأذيال التقى عَلِق
ثم افترقنا حين فاجأنا ... صبحٌ تقاسمَ ضوءه الحدق
وبنحرها من أدمعي بَللٌ ... وبراحتي من نَشْرها عَبَق

وقال أيضاً:

واهاً لجائلة الوشاحِ سرتْ ... ونواشئُ الظلماءِ تعترضُ
وملأتُ مَسحبَ ذيلها قُبَلاً ... ولَديَّ حقُّ الزَّوْرِ مُفترَض
فنأتْ وثغرُ الصبحِ مبتسمٌ ... ودنتْ وطرفُ النجمِ مُغتمِض
والجسمُ مني مُشعِرٌ مرضاً ... مذ دبَّ في ألحاظها المرض
وسهامُها نحوي مُفوَّقةٌ ... أُرمى بها وفُؤاديَ الغرض

وقال أيضاً:

صدَّتْ أميمةُ حين لاح بمفرقي ... شيبٌ يُبرِّح بالمحبِّ الوامقِ
لا تُعرضي عني فأنتِ جنيتِه ... وهواكِ قَنَّعَ بالمشيب مَفارقي
ولقد خلعتُ عليكِ ما استحسنتُه ... وهو الشبابُ وذاك جهدُ الفاسق

فتركتِني أرعى النجومَ بناظرٍ يشكو الغرامَ إلى فؤادٍ خافق
فسمحتُ حتى بالحشاشة في الهوى وبخلتِ حتى بالخيالِ الطارق

وقال أيضاً:

وغادةٍ لو رأتها الشمسُ ما طلعتْ والريمُ أغضى وخُوطُ البانِ لم يَمِسِ
عانقتُها بـرداء الليلِ مشتملاً حتى انتبهتُ ببَرْد الحَلْيِ في الغَلَس
فبتُّ أحميه خوفاً أن يُنبِّهَها وأتقي أن أُذيبَ العِقدَ بالنَّفَس

** قال علي بن الجهم: قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً تُدني إليكِ فإن الحبَّ أقصاني

فأجابتني بقولها: تأتي من باب الذهب، وأنشدت:

اجعلْ شفيعَك منقوشاً تُقدِّمه فلم يزل مُدْنِياً من ليس بالداني

** ويُحكى أن رجلاً جلس على جسر بغداد يتنزه، فأقبلت امرأة بارعة في الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي، فاستقبلها شاب وقال لها: رحم الله علي بن الجهم، فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري، وما وقفا بل سارا مشرقاً ومغربة.

قال الرجل: فتبعت المرأة وقلت لها: بالله عليك إلا ما تقولي لي ما أراد بابن الجهم؟ فضحكت وقالت: أراد به قوله:

عيونُ المها بين الرصافةِ والجسرِ جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

وعنيت أنا بأبي العلاء قوله:

فيا دارَهــا بالـخيفِ إن مـزارَهـا قـريـبٌ ولـكـنْ دون ذلـك أهــوالُ

** ويُحكى أن الشريف الرضي كان يهوى جارية اسمها صدقة، فواعدها يوماً بالقدوم إليه بعد العشاء، فأبطأت عليه فسأل عنها فقيل له إنها ساهرة مع جماعة في الطبقة الفلانية، فمضى لتلك الطبقة وقال:

يـا أهـلَ هـذي الـطـبـقَـهْ هـل عـنـدكـم مـن شـفـقَـهْ
لـسـائـلٍ قـد جـاءكـم يـطـلـب مـنـكـم صـدقـه

فأجابه بعض جلسائها بقوله:

يـا مـن يـروم الـشـفـقـه بـمـهـجـةٍ مـنـحـرقـه
جَـدُّكَ لـم يُـبِـحْ لـنـا أخـذَكَ مـنـا صـدقـه

وقال بعضهم:

قـد عـمَّ خـالـك حُـسـنـاً فـي الـلـون يـحـكـي بـلالا[1]
نَـعـمْ نَـعـمْ أنـتَ سُـؤلـي فـلا تُـجـبْـنـي بـلا لا[2]
جـفـنـي غـريـقٌ وقـلـبـي لا يـسـتـطـيـع بِـلالا[3]
لألاءُ حـسـنِـكَ يُـغْـنـي أن يـحـرسـوك بـلالا[4]

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «عبد أسود».
(٢) جاء في الحاشية بخط المصنف «ضد نعم».
(٣) جاء في الحاشية بخط المصنف «بللاً».
(٤) جاء في الحاشية بخط المصنف «زوزو».

وقال النواجي:

مـا كـنـتُ أقـنـع بـالـوصـال ولـي فـمٌ ... عَـطِـرٌ بِـريـقـكَ لا يـريـد سِـواكـا
فـهـجـرتَـنـي ولـثـمـتَ عـودَ أراكـةٍ ... حـتـى وددتُ بـأن أكـونَ أراكـا

وقال ابن تميم:

بَـنـدُه الأزرقُ لـمـا ... شَـدَّه مَـن قـد سـبـانـي
جـدولٌ فـوق كـثـيـبٍ ... دارَ يـسـقـي غـصـنَ بـانِ

وقال آخر:

خـلـيـلـيَّ إن قـالـت بـثـيـنـةُ مـا لـه ... أتـانـا بـلا وعـدٍ فـقـولا لـهـا لها
أتـى وهـو مـشغوفٌ لعُظْم الـذي بـه ... ومن بات طولَ الليل يرعى السُّها سَها
بثينةُ تُـزري بالغزالة في الضحى ... إذا بـرزتْ لـم تُـبـقِ يـومـاً بِـهـا بَها
لـهـا مـقـلـةٌ نـجـلاءُ كـحـلاءُ خِـلْـقَـةً ... كـأنَّ أبـاهـا الـظـبـيُ أو أُمَّـهـا مَها

وقال صفي الدين الحلي:

رأيـتُـه كـالـهـلال يـبـدو ... ووجـهُـه مـشـرقٌ بـلالا[(١)]
مُـخـالـفٌ مُـخـلِـفٌ لـوعـدٍ ... مـا قـال يـومـاً نَـعْـم بـلا لا[(٢)]
مـا بـلَّ يـومـاً غـلـيـلَ قـلـبـي ... وإن دعـانـي الـهـوى بـلالا[(٣)]
دعـوتُـه سـيِّـدي ويـومـاً ... فـي الـدهـر لـم يَـدْعُـنـي بـلالا[(٤)]

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «نور».
(٢) جاء في الحاشية بخط المصنف «نفي».
(٣) جاء في الحاشية بخط المصنف «اسمه».
(٤) جاء في الحاشية بخط المصنف «خادم».

** ولما هاجر مهذب الدين أحمد بن منير الطرابلسي إلى بغداد كان نقيب الأشراف بها الشريف الموسوي، وكان الشريف المذكور من كبار الشيعة، فأرسل إليه ابن منير بهدية نفيسة مع مملوك له اسمه تتر، وقيل إنه كان يعشقه، فلما وصل المملوك بالهدية إلى الشريف قبل الهدية، واستحسن المملوك وأدخله في الهدية وأبقاه عنده، وأضمر على أن يعوضه عن ذلك بأضعافه، فلما شعر بذلك ابن منير التهبت أحشاؤه على مملوكه تتر، ونظم هذه القصيدة، وأرسلها إلى الشريف المذكور:

عذَّبتَ قلبي يا تترْ وأطرتَ نومي بالفِكَرْ
ومزجتَ صفوَ مودَّتي من بَعدِ بُعدِكَ بالكدر
ومنحتَ جثماني الضنى وكحلتَ جفني بالسَّهر
وجفوتَ صَبّاً ما له عن حسن وجهكَ مُصطبر
أفهل لوجدك من مدىً؟ يُفضي إليه فيُنتظَر
نفسي الفداءُ لشادنٍ أنا من هواه على خطر
قمرٌ يزيّن ضوءَ صُبْحٍ جبينِه ليلُ الشَّعَر
هو كالهلال ملثَّماً والبدرُ حسناً إنْ سفر
ويلاه ما أحلاه في قلبي الشقيِّ وما أمر
نومي المحرَّمُ بعده وربيع لذاتي صَفَر
بالمِشْعَرين وبالصفا والبيتِ أُقسم والحَجَر

الباب السادس في العشق بالسماع

العشق بالسماع قد اشترك فيه الأدباء العقلاء والأغبياء الحمقاء، وسنبين تفصيل أحوال الفريقين وبعض ما وقع لهم، وما يناسب ذلك من قول الشعراء ونوادر الأولياء.

فنقول العشق بالسماع: هو أن يسمع الإنسان وصف جميل فيعشقه بالوصف قبل أن يراه، فهذا هو العشق بالسماع، قد وقع وشوهد في أنواع كثيرة من طبقات العالم الإنساني، خصوصاً في كبار الصوفية وعظماء الأولياء ومشاهير الصلحاء الأتقياء.

فإن كثيراً من الأولياء والصالحين والبررة المخلصين تفانوا في حب الله عز وجل بذكر الوصف الذي وافاهم، فتاهوا في تيهاء محبة مولاهم، وغرقوا في بحار عشق جماله، وماتوا في غرام تجليات جلاله، ومع ذلك ما رأوه ولا نظروه لكن بعقولهم عرفوه وبقلوبهم شاهدوه، وبأرواحهم حضروا حضيرة قدسه، فأشباحهم أشبهت من وصل إلى رمسه، ونفروا من مؤانسة المصنوع بعد مشاهدة الصانع، فلذلك تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

فكل فرد من هؤلاء العشاق رمى به الغرام والاشتياق إلى الدخول في بحار أنوار عزَّ أن تتحمل أو تطاق، فخرج عن ماله وأهله وهام في الجبال والقفار، ليسمع هاتفاً أو يشاهد تجلياً من الواحد القهار، يهتدي به إلى بعض العلوم النورانية والأسرار الربانية.

وأما السبب الموجب لهذا النوع من العشاق أن يتركوا اللذات وينفردوا عن

الخلق في الجبال والفلوات، فهو أن محبوبهم الواحد الأحد، وأن معشوقهم الفرد الصمد، فليست لهم رغبة في مشاهدة غيره من الكائنات، ولا يتحمل قلبهم النظر إلى سواه من الموجودات، ولم يخطر بمجال فكرهم أن في مشاهد العالم لذة من اللذات، ولم تسع عقولهم الائتناس بغير المحبوب، ولم تمل نفوسهم إلى ما تحت الجيوب.

وذلك لأن بين محبوبهم وبين جميع المشاهدات بون بعيد، ومن تشرف بقرب السيد حاشاه أن يرضى بمجالسة العبيد، فهذا أكبر سبب ينفرهم عن مخالطة الخلق ويبعدهم، وإلى الخالق يشوقهم ويقربهم.

ولو كانت هناك مناسبة بين المحبوب الغائب عن العيون الجائل في الأفكار وبين الجليس المؤانس المشاهد بالأبصار لحصل بهذا المشاهد قليل التباس، أوجب السلو والتسلي والإئتناس، ولكن بينهما بون بعيد، والمحبوب فرد وحيد، والوجود ظلام خراب، والموجود نور لا يعرفه إلا أولو الألباب، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، يهدي من يشاء من عباده إلى معرفته، ويقرب من شاء إلى جليل حضرته، فمن عرف المطلوب سخا بالموجود، ومن أراد الواجد لم يلتفت إلى شيء من الوجود، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر، ومن جهل شيئاً عاداه، ومن عرف الحق لم يتعداه.

فبعض هؤلاء الذين هداهم الله إلى محبته وأَهَّلهم لقربه ومؤانسته وقربهم من حظيرة قدسه، واختارهم من جميع خلقه لنفسه، قد تحصل له جذبة من شدة اشتياقهم إلى الله تعالى وحبهم له، إلى أن يصل بهم الحال إلى درجة الجنون، ولكن لا يقال له مجنون، بل يقال له ولي، ولو كان حبه في غير الله لقيل له مجنون، وجن بالعشق كمجنون ليلى وغيره.

وأما الذي حصلت له هذه الحالة في حب الله تعالى فيقال له مجذوب وولي وانجذب ووصل وهكذا، مع أن درجتهما واحدة ومعناهما واحد، وبيان ذلك أن كلا هاتين الحالتين حب زائد وعشق هائل ووله يحيط بالقلب فيستره ويجنه ويغطيه ويكنه.

ومتى استتر القلب لحدوث أمر من الأعراض الشديدة النازلة به، وضعف القلب عن تحمل ذلك يتأثر القلب لا محالة، فيقال لصاحب ذلك القلب المتأثر من نزول هذا الخطب جن أو أغمي عليه أو مرض أو انجذب أو عشق أو اختل أو غير ذلك.

ثم يفصل فإن كان هذا الحادث طرأ بسبب حب الله تعالى فيقال له انجذب واستولى ووصل، وذلك تعظيماً لأنه يزداد نوراً وعلماً وفهماً وكمالاً كلما تفانى في الله تعالى، وأما إن حدث له هذا الحادث بسبب حب إنسان فيقال له عاشق ومتيم ومغرم وما أشبه ذلك، وأما إن حدث له هذا الحادث بسبب خوف أو مرض أو ريح فيقال له جن واختبل والعياذ بالله، وأما إن حدث له هذا الحادث بسبب داء عصبي فيقال أغمي عليه وأصابه القرين وأخذته القرينة وما شابه ذلك.

وأما هذا النوع الذي تكلمنا عنه الآن الذي هو الحب في الله تعالى، وإن كان من العشق الصادق ومن العشق الحقيقي إلا أن له مدخلاً كبيراً في هذا الباب من حيث أنه عشق بالسماع لا بالمشاهدة.

وقد ذكرنا بعض من أدرك هذه الدرجة من الأولياء وغيرهم في باب العشق الصادق، ونذكر الآن هنا شيئاً من ذلك مع شرح بعض أحواله العجيبة، وشيئاً من نوادره الغريبة، وجملة من أشعار الأدباء اللطيفة المناسبة لهذا الباب، فمن

ذلك أن سيدنا موسى عليه السلام لما اشتاق إلى رؤية ربه، حين ما ازداد لاعج قلبه بحبه، قال: «رب أرني أنظر إليك» فقال تعالى: «لن تراني»، وقال ابن حزم يشير إلى ذلك:

لئن أصبحتُ مرتحلاً بجسمي فقلبي عندكم أبداً مقيمُ
ولكنْ للعيان لطيفُ معنىً لذا سأل المعاينةَ الكليم

❊❊ ومن ذلك كان بالموصل رجل نصراني يكنى أبا إسماعيل، فمر ذات ليلة برجل يتهجد على سطحه، ويقرأ في صلاته «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون»، فلما سمع أبو إسماعيل ذلك صرخ صرخة وأغمي عليه، وبقي على تلك الحالة حتى أصبح، فلما أصبح أفاق وأسلم.

ثم أتى فتحاً الموصلي فاستأذنه في صحبته فكان يصحبه، وشهد معه العيد ذات يوم بالموصل، ورجع معه بعد ما تفرق الناس من صلاة المشهد، فنظر إلى الدخان يتصاعد من نواحي المدينة، فبكى ثم قال: قد قرَّب الناس قربانهم فليت شعري ما فعلت في قرباني عندك أيها المحبوب، ثم سقط مغشياً عليه، فجعل فتحاً يرشه بالماء ساعة حتى أفاق، ثم دخلا بعض أزقة الموصل فرفع رأسه إلى السماء وقال: قد علمت طول غمي وحزني وترددي في أزقة هذه الدنيا، فحتى متى تحبسني أيها المحبوب؟ ثم سقط مغشياً عليه، فجعل يرش على وجهه الماء ساعة حتى أفاق، فما عاش بعد ذلك إلا أياماً حتى مات رحمه الله تعالى.

❊❊ وقال إبراهيم المروزي: رأيت الوليد بن عتبة قد سمع قائلاً يقول: يا

من يعز عليَّ ما لي أهون عليك، فصاح صيحة عظيمة ووقع في الطين فبقي أربعين يوماً مريضاً.

** قال الأصمعي: دخلت بعض أحياء العرب فرأيت خباء شعر منفرداً عن البيوت فقصدته، فإذا أنا بفتى حسن الوجه في عنقه سلسلة مشدودة إلى سكة في الأرض، قال: فهالني ما رأيت منه، فقلت: يا فتى ما شأنك؟ فقال: يا ابن عمي يقولون أني مجنون، فقلت: أهو كما يقولون؟ فقال: لا والله ما أنا بمجنون ولكني بحب الله مفتون، قال: قلت فصف لي الحب، فقال: إليك عني يا أخا العرب، الحب جل عن أن يحد وخفي عن أن يرى، كمن في الحشا كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى وإن تركته توارى، ثم صفَّق وأنشأ يقول:

أأنتَ الذي أصفيتُ منكَ مودّةً قلائعُها في ساحة القلبِ تُغرَسُ
وإن كان لي من فقد قلبي مُوحِشٌ فقد ظلّ لي من فكرتي فيك مُؤنس
أناجيكَ بالإضمار حتى كأنني أراك بعينَيْ فكرتي حين أجلس

** وقال بعضهم:

هاتِ لي ذكرَ من أحبّ وخَلِّ كلَّ مَن في الوجود يرمي بسهمِهْ
لا أبالي وإن أصابَ فؤادي إنه لا يضرّ شيءٌ مَعَ اسْمِهْ

** وقال سعيد بن القطان: مررت بعبادان بمكفوف مجذوم، وإذا الزنبور يقع عليه فيقطع لحمه، فقلت: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه، وفتح من عيني ما أغلق من عينيه، قال: فبينا أنا أردد الحمد إذ صرع، فبينا هو يتخبط نظرت إليه فإذا هو مقعد، فقلت: مكفوف يُصرَع ومقعد مجذوم، قال: فما

استتممت كلامي حتى صاح: يا متكلّف ما دخولك فيما بيني وبين ربي؟ دعه يعمل بي ما شاء، ثم قال: وعزتك وجلالك لو قطعتني إرباً وصببت عليَّ العذاب صباً ما ازددت لك إلا حباً.

❊❊ وقال ذو النون: إن الله سقى أحبابه المشتاقين إليه من صرف المودة شربة فماتت شهواتهم في القلوب من خوف عواقب الذنوب، وذهلت أنفسهم عن المطاعم من حذر فوت المناعم، قد أنحلوا الأبدان بالجوع وصفوا القلوب من كل كدر، فهي معلقة بمواصلة المحبوب، وقال:

شوقٌ أضرَّ بمهجة المشتاقِ ... فجرتْ سوابقُ عَبرةِ الآماقِ
لعبتْ يدُ العبراتِ في وجناتهِ ... وكذا به لعبتْ يدُ الأشواق

❊❊ وقال الجنيد: مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار بهذه الأبيات:

إذا قلتُ أهدى الهجرُ لي حللَ الأسى ... تقولين لولا الهجرُ لم يطبِ الحبُّ
وإن قلتُ ما أذنبتُ قالت مجيبةً ... حياتُكَ ذنبٌ لا يُقاس به ذنبُ

فصعقت وصحت وأغمي عليَّ، فبينما أنا كذلك إذ خرج صاحب الدار فقال: ما هذا يا سيدي؟ فقلت له: مما سمعت، فقال: إنها هبة مني إليك، فقلت: قد قبلت وهي حرة لوجه الله تعالى، ثم دفعتها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت منه ولداً نبيلاً حج على قدميه ثلاثين حجة.

❊❊ وأما ما وعدنا به بأن نذكره في آخر هذا الباب من أقوال وأشعار الأولياء والصوفية الأتقياء، الذين تفانوا في حب الله تعالى، فها نحن نذكره الآن، فمن

ذلك قول الشيخ عفيف الدين التلمساني:

لُــذْ بـالـغـرام ولـــذةِ الأشـــواقِ واختـرْ فـنـاءكَ فـي الجمال الباقي
واخـلـعْ سُـلـوَّك فهو ثـوبٌ مخلَقٌ والـبـسْ جـديـدَ مـكـارمِ الأخــلاقِ
وتــوقَّ مـن نـار الـصـدودِ بشَربـةٍ مـن مـاء دمـعـك فـهـو نـعـمَ الـواقـي
وإذا دعـاك إلـى الصِّبا نَفَسُ الصَّبا فـأجـبْ رســولَ نـسـيـمِه الـخـفّـاق
وإذا شربتَ الصرفَ من خمر الهوى إيــاك تـغـفـلْ عــن جـمـال الـسـاقـي
والـقَ الأحـبـةَ إن أردتَ وصالَهم مـتـلـــذِّذاً بـــالـــذلّ والإمــــلاق
أو ليس من أحلى المطامعِ في الهوى عـــزُّ الـحـبـيـبِ وذلــةُ الـعـشّـاق

** وقال سيدي عمر ابن الفارض:

أحـبَّـةَ قـلـبـي والـمـحـبـةُ شـافـعـي لديكم إذا شئتم بها اتّصل الحبلُ
عـسـى عـطـفـةٌ مـنـكـم عـلـيَّ بـنـظـرةٍ فقد تعبتْ بيني وبينكم الرُّسْـل
أحـبّـايَ أنتم أحـسـنَ الـدهـرُ أم أسا فكونوا كما شئتم أنـا ذلـك الخِلُّ
إذا كان حظي الهجرَ منكم ولم يكن بِعادٌ فذاك الهجرُ عندي هو الوصل
أخذتم فؤادي وهو بعضي وما الذي يـضـرّكـمُ لـو كـان عـنـدَكـمُ الـكـلُّ
خفيتُ ضنىً حتى لقد ضلَّ عائدي وكيف يـرى الـعُـوّادُ مـن لا لـه ظلُّ
ومـا عـثـرتْ عيني على أثـري ولم تدعْ ليَ رسماً في الهوى الأعينُ النُّجْل
ولـي هـمّـةٌ تـعـلـو إذا مـا ذكـرتُـهـا وروحٌ بذكراها إذا رخُصتْ تغلو
فنافسْ ببذل النفسِ فيها أخا الهوى فــإنْ قبلتْها مـنـكَ يـا حـبـذا الـبـذل

إذا أنعمتْ نُعْمٌ عليَّ بنظرةٍ ... فلا أسعدتْ سُعدى ولا أجملتْ جُمْل
فمن لم يَجُدْ في حبِّ نُعْمٍ بنفسهِ ... وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

وقال رحمه الله تعالى:

ما لي سوى روحي وباذلُ نفسِهِ ... في حبِّ من يهواه ليس بمسرفِ
فلئن رضيتَ بها لقد أسعفتَني ... يا خيبةَ المسعى إذا لم تُسعِف
يا أهلَ ودي أنتم أملي ومن ... ناداكُمُ يا أهلَ ودّي قد كُفِي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا ... كَرمَاً فإني ذلك الخِلُّ الوفي
وحياتِكم وحياتِكم قسماً وفي ... عمري بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحي في يدي ووهبتُها ... لمبشِّري بوصالكم لم أُنصِف
لا تحسبوني في الهوى متصنِّعاً ... كَلَفي بكم خُلُقٌ بغير تَكلُّف
أخفيتُ حبَّكمُ فأخفاني أسىً ... حتى لَعمري كِدتُ عني أختفي
وكتمتُه عني فلو أبديتُه ... لوجدتُه أخفى من اللطف الخفي
ما للنوى ذنبٌ ومن أهوى معي ... إن غاب عن إنسان عيني فَهْو في

وقال أيضاً رحمه الله تعالى:

نعمْ بالصَّبا قلبي صَبا لأحبتي ... فيا حبذا ذاك الشذا حين هبَّتِ
تُذكّرني العهدَ القديمَ لأنها ... حديثةُ عهدٍ عن أُهَيل مودتي
فلي بين هاتيك الخيامِ ضنينةٌ ... عليَّ بجمعي سمحةٌ بتَشتُّتي

مـحـجَّـبـةٌ بـيـن الأسـنّـةِ والـظُّـبـا إلـيـهـا انـثـنـتْ ألـبـابُـنـا إذ تـثـنَّـتِ
تُـتـيـح الـمـنـايـا إذ تُـبـيـح لـنـا المنى وذاك رخـيـصٌ مُـنْـيَـتـي بمَنيَّتي
متى أوعدتْ أولتْ وإن وعدتْ لوتْ وإن أقسمتْ: لا تُبرئ السُّقْمَ بَرَّت
وإن عـرضـتْ أُطْـرِقْ حـيـاءً وهيبةً وإن أعـرضـتْ أُشـفـقْ فلم أتلفّت
وقـد سَـخِـنـتْ عيني عليها كأنها بها لـم تكن يـومـاً مـن الـدهـر قَـرَّت
فـإنـسـانُـهـا مَـيْـتٌ ودمـعـيَ غُـسْـلُـهُ وأكـفـانُـه مـا ابـيـضَّ حـزنـاً لفرقتي
خـرجـتُ بـهـا عـني إلـيـهـا فـلـم أعـد إلـــيَّ ومِـثـلـي لا يـقـول بـرجـعـة
فوصليَ قطعي واقـترابي تباعدي ووُدّي صَـــدّي وابـتـدائـي نهايتي
وفيها تِـلافُ الجسمِ بالسقم صحّةٌ لـه وتِـــلافُ الـنـفـسِ عـيـنُ الـفـتـوّة
ولــمـا تـلاقـيـنـا عـشـاءً وضـمَّـنـا سـواءُ سبيلَيْ ذي طُـوىً والثنيّة
وضـنَّـتْ ومـا مـنَّـتْ عـلـيَّ بـوقـفـةٍ تُـعـادل عـنـدي بـالـمـعرَّف وقفتي
عَتَبْتُ فلم تُعْتِبْ كأنْ لم يكن لِقاً ومـا كـان إلا أن أشــرتُ وأومــتِ
وبـانـت فأما حسنُ صبري فخانني وأمـــا جـفـونـي بـالـبـكـاء فـوَفَّـت
أغـــار عـلـيـهـا أن أهـيـمَ بحبها وأعــرف مـقـداري فـأُنـكـر غيرتي
وكـنـتُ بـهـا صَـبّـاً فلما تـركـتُ ما أُريـــد أرادتـــنـــي لـهـا وأحـبَّـت
بها قيسُ لبنى هـامَ بـل كـلُّ عاشقٍ كـمـجـنـون لـيـلـى أو كُـثَـيِّـرِ عَــزّةِ
بدت فرأيتُ الحزمَ في نقض توبتي وقـام بها عند النهى عـذرُ محنتي
فـمـوتـي بـهـا وجـــداً حـيـــاةٌ هنيئةٌ وإن لـم أمتْ في الحب عشتُ بغصّتي
تـجـمَّـعـتِ الأهـــواءُ فيها فـلا تـرى بها غيرَ صـبٍّ لا يـرى غيرَ صبوتي

وعـنـديَ عـيـدٌ كـلَّ يـومٍ أرى به جـمـالَ مـحـيـاهـا بـعـيـنٍ قـريـرة
وكـلُّ الليالي ليلةُ القـدرِ إن دنـتْ كـمـا كـلُّ أيـامِ اللـقـا يـومُ جُمعة
وأيُّ بـلادِ الله حـلّـتْ بـهـا فما أراهـا وفـي عيني حَلَتْ غيرُ مَكّة
ومـا سـكـنـتْـه فـهـو بـيـتٌ مـقـدَّسٌ بـقـرَّة عـيـنـي فـيـه أحـشـايَ قَـرَّت
ومسجديَ الأقصى مَساحبُ بُردِها وطيبي ثـرى أرضٍ عليها تَمشَّت
مـواطـنُ أفـراحـي ومَـربـى مـآربـي وأطـوارُ أوطـاري ومـأمـنُ خِيفتي
مـغـانٍ بها لـم يـدخـلِ الـدهـرُ بيننا ولا كـادنـا صـرفُ الـزمـانِ بفُرقة
ولا صـحـبـتـنـا الـنـائـبـاتُ بـنَـبْـوةٍ ولا حـدَّثـتـنـا الـحـادثـاتُ بنكبة
ولا اختصَّ وقـتٌ دون وقـت بطيبةٍ بـهـا كـلُّ أوقـاتـي مـواسـمُ لـذتـي
فـإنْ رضـيـتْ عـنـي فـعـمـريَ كلُّه زمـانُ الصبا طيباً وعـصـرُ الشبيبة
وإن قـربـتْ داري فـعـامـيَ كـلُّـه ربـيـعُ اعـتـدالٍ فـي ريـاضٍ أريـضـة
بها مثلُ ما أمسيتُ أصبحتُ مُغرَماً وما أصبحتْ فيه من الحسن أمستِ
فلو بسطتْ جسمي رأتْ كلَّ جوهرٍ بـه كـلُّ قـلـبٍ فـيـه كـلُّ محبة
وقـد جمعتْ أحـشـايَ كـلَّ صبابةٍ بها وجـوىً يُنبيك عـن كـلّ صبوة
وكـنـتُ أرى أن الـتـعـشُّـقَ منحةٌ لقلبي فـمـا أنْ كـان إلا لمحنتي
ألا في سبيل الحبّ حالي وما عسى بـكـم أن ألاقـي لـو دريـتـم أحبتي
أخذتم فـؤادي وهـو بعضيَ عندكم فما ضرَّكم لو كـان بعضيَ جُملتي
وهي جسدي مما وهي جَلَدي لدى تـحـمُّـلِـه يـبـلـى وتـبـقـى بـلـيَّـتـي
ومنذ عفا رسمي وهِمت وهمت في وجـودي فلم تظفر بكونيَ فكرتي

وبـالـيَ أبـلـى مـن ثـيـاب تَـجـلُّـدي بلِ الـذاتُ في الإعـدام نِيطت بلذتي
كـأنـي هــلالُ الـشـكّ لــولا تـأوُّهـي خفيتُ فلم تُـهْـدَ الـعـيـونُ لرؤيتي
وقالوا جرتْ حُمْراً دموعُكَ قلتُ عن أمـورٍ جـرتْ في كثرة الـشـوقِ قَلَّت
نحرتُ لضيفي[1] السُّهدَ في جِفَنِ الكرى قِـرىً فجرى دمعي دماً فوق وجنتي
فطوفانُ نـوحٍ عند نَـوْحي كأدمعي وإيـقـادُ نـيـرانِ الـخـلـيـلِ كلوعتي
ولــولا زفـيـري أغـرقـتـنـيَ أدمـعـي ولــولا دمـوعـي أحـرقـتـنـيَ زفـرتـي
وحــزنــيَ مـا يـعـقـوبُ بــثَّ أقـلَّـه وكــلُّ بَــلا أيــوبَ بـعـضُ بليَّتي
وكـلُّ أذىً فـي الـحـبّ منك إذا بدا جعلتُ لـه شـكـري مـكـانَ شكيَّتي
وعــنــوانُ مـا بـي مـا أبـثُّـكَ بعضَه ومــا تـحـتـه إظـهـارُه فــوق قـدرتـي
وعن مذهبي في الحب ما ليَ مذهبٌ وإن مِـلْـتُ يـومـاً عنه فـارقـتُ مِلَّتي
هو الحبُّ إن لـم تقضِ لم تقضِ مأرباً من الوصل فاخترْ ذاك أو خَلِّ خلَّتي
ودعْ عنك دعوى الحبِّ واخترْ لغيره فــؤادك وادفــعْ عـنـه غـيَّـك بالتي
وجانبْ جنابَ الوصلِ هيهات لم يكنْ وهـا أنـتَ حـيٌّ إنْ تكنْ صادقاً مُتِ
وقـالـوا تلافى ما بقي منكَ قلتُ لا أرانــيَ إلا لــلـتَّـلافِ تَـلـفُّـتـي
غرامي أقِمْ صبري انصرمْ دمعيَ انسجمْ عدوي انتقمْ دهري احتكمْ حاسدي اشمتِ
ويـا نـارَ أحشائي أقيمي من الجوى حـنـايـا ضـلـوعـي فـهـي غـيـرُ قويمةِ

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «لعله لضيف».

ويا جسدي المضنى تسلَّ عن الشِّفا ويــا كـبـدي مـن لـي بــأن تَتفتَّتي
ويا كلَّ ما أبقى الضنى مِنِّيَ ارتحلْ فـمـا لـك مـأوى فـي عـظـامٍ رميمةِ
ومــاذا عسى عني أناجي تَوهُّماً بياء الـنِّدا أُونسـت منكَ بوحشةِ
فنفسيَ لـم تـجـزعْ بإتلافها أسىً ولـو جـزعـتْ كانت بغيري تأسَّت
فيا سَقَمي لا تُبْقِ لي رمقاً فقد أَبَـيْـتُ لبُقيا الـعـزِّ ذلَّ البقيَّة

وقال رحمه الله تعالى:

أهفو إلى كلِّ قلبٍ بالغرام لهُ شغلٌ وكلِّ لسانٍ بالهوى لَهِجِ
وكلِّ سمعٍ عن اللاحي به صممٌ وكلِّ جفنٍ إلى الإغفاء لم يَعِجِ
لا كان وجدٌ به الآماقُ جامدةٌ ولا غرامٌ به الأشواقُ لم تهجِ
عَذِّبْ بما شئتَ غيرَ البعدِ عنك تجدْ أوفى محبٍّ بما يُرضيكَ مُبتهِجِ
وخذْ بقيَّةَ ما أبقيتَ من رمقٍ لا خيرَ في الحبّ إنْ أبقى على المهجِ
من لي بإتلاف روحي في هوى رشأٍ حلوِ الشمائلِ بالأرواح مُمتزجِ
من مات فيه غراماً عاش مُرتقياً ما بين أهلِ الهوى في أرفع الدرجِ
قُلْ للذي لامني فيه وعنَّفني دعني وشأني وعدْ عن نصحك السَّمِجِ
فاللومُ لؤمٌ ولم يُمدَحْ به أحدٌ فهل رأيتَ محبّاً بالغرام هُجِي
لم أدرِ ما غربةُ الأوطانِ وهو معي وخاطري أين كنّا غيرُ مُنزعجِ
فالدارُ داري وحبي حاضرٌ ومتى بدا فمنعرجُ الجرعاءِ مُنعرجي

وقال سيدي الشيخ أبو مدين قُدِّس سره:

أدِرْهــا لنا صِـرْفاً ودع مزجَها عنا فنحن أنـاسٌ لا نـرى المزجَ مذ كنّا
وغـنِّ لنا فالوقتُ قد طـاب باسمها لأنّـــا إليـهـا قـد رحـلـنـا بـهـا عـنّـا
عرفنا بها كـلَّ الـوجـودِ ولـم نزل إلـى أنْ بها كـلَّ الـمعـارفِ أنكرنا
هي الخمرُ لم تُعْرَف بكرمٍ يخصّها ولـم تَجْلُها راحٌ ولـم تعرف الدنّا
لها كـلُّ روحٍ تعرف العهدَ عهدَها وفي كل قلبٍ جاهلٍ للسّوى مَغنى
مُشَعشعةٌ تكسو الـوجـودَ جمالةً وفـي كـل شـيءٍ مـن لطائفها معنى
حضرنا وغبنا عند دَوْرِ كؤوسها وعـدنـا كـأنـا لا حضـرنـا ولا غِبنا
وأبـــدتْ لـنـا فـي كـل شــيءٍ إشـارةً ومــا احـتـجـبـتْ إلا بـأنـفـسـنـا عنا
فـلـم تـطـقِ الأفـهـامُ تـعـبيرَ كنهها ولكنها لاذت بألطافها الحُسنى
نصحتُكَ لا تقصدْ سوى بابِ حانها فمن وجدَ الأعلى فلم يرضَ بالأدنى
مـوانـعُـنـا عـنـهـا حـظـوظُ نفوسِنـا فـــإنْ قُـطِـعـتْ عـنـا إلـيـهـا تَـوصَّـلـنـا
تـجـلَّـتْ دُنــوّاً واخـتـفـتْ بمظاهرٍ وجلَّتْ فما أغنى ودقَّتْ فما أسنى
ومــا الـكـونُ إلا مـظـهـرٌ لجمالها أرتـنـا بـه فـي كـلِّ شــيءٍ بـدا حُسْنا
لها القدمُ المحضُ الـذي سبقتْ به بـقـاءً غـدا يفنى الـزمـان ولا تفنى
يعيد ويـبـدي فعلَها كـلُّ مـحـدثٍ وكـلُّ قديمٍ فهي قد حـازتِ المعنى
كـفـاكَ بـأعـيـان الـوجـودِ مـنـكّـراً لـكـل مـلـيـحٍ يـمـلأ الـعـيـنَ والأذنــا
فـذلـك عـيـنُ الـعـزِّ إن رُمــتَ عزَّها فمن رام أن يحيا بها دائـمـاً يفنى
إلـيـهـا جـمـيـعُ الـكـائـنـات مَـشـوقـةٌ تزيد افـتـقـاراً وهـي عنهنَّ مـا أغنى

تقول أناسٌ قد تملَّكه الهوى — أجلْ لستُ في ليلى بأول من جُنّا
جُنِنتُ بها عن كلّ ما يعلم الورى — وأُظهر لبنى والمراد سوى لبنى
وإني كما شاء الغرامُ موحِّدٌ — وإن ملتُ تمويهاً إلى الروضة الغَنّا
يذكّرني مَرُّ النسيم بعَرْفِها — ويُطربني الحادي إذا باسمها غنّى
أُوافق قوماً ضمَّهم مقعدُ الهوى — وإن كان كلٌّ قاصدٌ منهمُ فَنّا
فهذا يورّي بالغزالة غيرَها — وهذا بعين العطفِ يستملح الغُصنا
وذا باسمها إذ نال ما هو طالبٌ — وهذا بسيل الدمعِ قد قَرَّحَ الجفنا
وذا خائفٌ من قطعهِ بعد وصلهِ — وذا بالرضا من حاله وجدَ الأمنا
وهذا تساوى الهجرُ والوصلُ عندَه — فقام إليها يقطع السهلَ والحَزْنا
وما ضرَّ هذا الخلفُ والقصدُ واحدٌ — إذا نحن أخلصنا إليها توجَّهْنا
دعا باسمها الحادي ونحن على الغضا — فقلتُ له باالله من ذكرها زِدنا
لَعمرُكَ حتى العيسِ لَذَّ لها السُّرى — ونحن على الأكوار من طربٍ مِلنا
فغنّى إلى أن هَزَّتِ النوقُ نشوةً — عجبتُ لشوقٍ يشمل الرَّكْبَ والبُدْنا
وحتى غصونُ البانِ مالت تَرنُّماً — وغنَّت عليها كلُّ صادحةٍ لحنا
أهل عائدٌ لي رقدةٌ لأرى بها — خيالَ رسولٍ زائراً مَضجعي وَهْنا
حَيينا بها دهراً وقد حكمتْ لنا — ونحن بها نحيا يقيناً إذا متنا
وإني على ما أكَّد العهدُ بيننا — مدى الدهرِ لا خُنّا العهودَ ولا حُلْنا
فقل للذي ينهى عن الوجد أهلَه — إذا لم تذقْ معنى شرابِ الهوى دعنا
إذا اهتزَّتِ الأرواحُ شوقاً إلى اللِّقا — نعمْ ترقص الأشباحُ يا جاهلَ المعنى

أما تنظر الطيرَ المقفَّصَ يا فتى إذا ذكرَ الأوطانَ حنَّ له المغنى
ففرَّجَ بالتغريد ما بفؤادهِ فتضطرب الأعطافُ في الحسِّ والمعنى
ويرقص في الأقفاص شوقاً إلى اللِّقا فتهتزّ أربابُ العقولِ إذا غنّى
كذلك أرواحُ المحبين يا فتى تحرّكها الأشواق للعالم الأسنى

إلى أن قال في آخرها:

فإنّا إذا طبنا وطابت نفوسُنا وخامرنا خمرُ الغرامِ تهتَّكنا
فلا تلمِ السكرانَ في حال سُكرِه فقد رُفِعَ التكليفُ في سكرنا عنا

** وقال يحيى بن معاذ:

أموت بدائي لا أُصيب مُداويا ولا فرجاً مما أرى من بلائيا
إذا كان داءُ العبدِ حبَّ مليكه فمَن دونه يُرجى طبيباً مداويا

** نظرت رابعة العدوية إلى رباح القيسي وهو يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه، فقالت له: أتحبه يا رباح؟ قال: نعم، قالت: ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره، فصاح رباح وسقط مغشياً عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ويقول: رحمة منه تعالى ألقاها في قلوب العباد للأطفال.

** وقال آزاد:

ألا لكلّ حَسينِ الوجهِ أشباهُ ولا نظيرَ لمن أهواه إلا هُو

** ومن ذلك أن كثيراً من الأولياء والصالحين والأتقياء المخلصين لما سمعوا بأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ولم يروه تعلقوا بحبه وتفانوا في الوجد به، واشتغلت قلوبهم بعشقه ولهجت ألسنتهم بذكره ومدحه، وأولعوا بالوصول إلى ربعه وفنائه وتشوقوا إلى الوقوف بين يديه في الروضة المعطرة والمواجهة المشرفة، ومنهم من انتحل وجداً وهياماً ومات شغفاً وغراماً ليجتمع به صلى الله عليه وسلم في الدار الآخرة، ويتمتع بالنظر إلى مشاهدة جماله في دار النعيم، كسيدي عبد الرحيم البرعي حيث يقول:

إذا عهدوا فليس لهم وفاءُ وإن وعدوا فموعدُهم هباءُ

** وقال بعض الزائرين لما وقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم:

بُشراكِ يا نفسُ هذا سيّدُ الرسلِ جُوزي حماه ونادي واطلبي وَسلي
بشراكِ بشراكِ قد زال العنا فردي مناهلَ الصفوِ والأفراحِ والجذلِ
تَأدَّبي وقفي بالباب خاضعةً واذري الدموعَ على أعتابه وقلي
يا سيّدَ الرُّسْلِ أزكاهم وأفضلهم يا أكرمَ الخَلْقِ من حافٍ ومنتعل
يا خِيرةَ اللهِ يا أندى الكرامِ يداً يا مُشتكى الناسِ عند البأس والوجل
يا صاحبَ الجاهِ والأخبارُ شاهدةٌ طوبى لمن ناله في الخلق من رجل
يا من إذا قصد العافون ساحتَه يشكون ضِيقاً بُعَيْدَ الصفوِ كالوشل
أغنى وأقنى وأعطى كلَّ نائلةٍ حتى يُرَوْن وكلٌّ من عُلاه مُلِي[1]

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «يا من أتيت حماه .... غلاق القصيدة».

** ومنهم سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه، فإنه لما اشتاق إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم توجه إلى المدينة المنورة حباً فيه وتشوقاً إليه، فلما دخل المسجد النبوي ووقف في المواجهة الشريفة تجاه القبر الأعطر والمقام الأنور لم يملك نفسه أن قال:

في حالة البعدِ روحي كنتُ أُرسلها   تُقبِّل الأرضَ عني وهي نائبتي
وهذه دولةُ الأشباحِ قد حضرتْ   فامددْ يديكَ لكي تحظى بها شَفتي

** ومنهم سيدي أبو الحسن بن مسعود اليوسي الفاسي، فإنه لما اشتاق إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم نظم هذه القصيدة، وارتحل من فاس قاصداً مشاهدة أنوار المحبوب، فلا زال مرتحلاً سائراً براً إلى أن دخل المسجد النبوي، وأنشدها عند القبر الشريف في الروضة المطهرة، وهي هذه:

جُدَّ في سيرها فلستَ تُلامُ   هذه طيبةٌ وهذا المقامُ
حرمٌ حلَّه نبيٌّ كريمٌ   وهمامٌ بجنبه وإمامُ
وجلالٌ وهيبةٌ ووقارٌ   وبهاءٌ ورفعةٌ واحترام
هاهنا فالصقِ الفؤادَ لتَهدا   حُرَقٌ شَبَّها الهوى وضِرام
نحن في حضرة النبيِّ جلوسٌ   هذه يقظةٌ وإلا مَنام
مُتْ هنا لوعةً ووجداً وشوقاً   وغراماً فما عليك مَلام
فلكٌ في السلوكِ قد حلَّ فيهِ   قمرٌ ظُلِّلتْ عليه الغمام
كيف لا تسكب الدموعَ جفوني   وهي من قبل أن تراك سِجام
كيف لا تذهل العقول وتفنى   أنفسُ العاشقين وهي كرام

يـا رسـولَ الإلـهِ إنـي مـحـبٌّ لـكَ واللهِ عـاشـقٌ مُـسـتـهـام
يـا رسـولَ الإلـهِ فـي كـل حـينٍ لـك مـنـي تـحـيّـةٌ وسـلام
يـا رسـولَ الإلـهِ شـوقـي عظـيـمٌ زائـدٌ والـغـرامُ فـيـك الـغـرام
يـا رسـولَ الإلـهِ جـئـتـكَ أسـعـى قَـيَّـدتـنـي الـذنـوبُ وهـي عِـظـام
يـا رسـولَ الإلـهِ إنـي نـزيـلٌ ونـزيـلُ الـكـرام لـيـس يُـضـام
أنـتـمُ مَـقـصـدي لـفـقـري ومنـكـم يُـعـرَف الـجـودُ والـوفـا والـذِّمـام
ولـكـم حـرمـةٌ وجـاهٌ عـظـيـمٌ ووقـارٌ ورفـعـةٌ لا تُـرام
ولإسـراكَ أهـلُ كـلِّ سـمـاءٍ سـجـدَ الـكـلُّ إذ رأوك وقـامـوا
وتـقـدَّمـتَ لـلـصـلاة فـصـلّـوا كـلُّـهـم مُـقـتـدٍ وأنـتَ إمـام
يـا نـجـيَّ الإلـهِ فـي حـضـرة الـقُـدْ سِ كـريـمـاً لـه هـنـاك مـقـام
أنـتَ نـورُ العيون أنـتَ الـمـرجّـى[1] أنـتَ روحُ الـقـلـوبِ أنـتَ الهمام
أنـتَ يـا سـيّـدَ الـنـبـيّـيـن بـحـرٌ سَـبَـح الـكـلُّ فـي نَـداك وعـامـوا
أنـتَ لـلـكـل أوّلٌ فـي الـمـعـالـي وكـذا أنـتَ لـلـجـمـيـع خِـتـام
ظـهـرتْ كـالـبـدور نـوراً وحـسـنـاً فـي سـمـاء الـعـلـى وأنـتَ الـتـمـام
وتـبـدَّتْ لـنـا كـعِـقْـدٍ نـفـيـسٍ راقَ حُـسـنـاً وأنـت أنـتَ الـنِّـظـام
يـا نـبـيَّ الـعـلـى مـعـالـيـكَ تعلو عـجـزتْ أن تـنـالـهـا الأفـهـام
كيف لا يَرتجي ابنُ مسعودَ عفواً ولـه مـنـك حـرمـةٌ وذِمـام
مـادحٌ فـيـك كـلَّ يـومٍ بـوصـفٍ لـك يـا مَـن بـه يُـزان الـكـلام

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «شفاء».

يـا إلــهَ الـســمـاءِ صَــلِّ عـليه كـلّـمـا دامَ لـلـزمـان دوام
وعــلــى آلــه أجــلِّ الـبـرايـا وعـلـى صـحـبـه الجـمـيـعِ الـسـلام

وقال بعضهم:

أستغفرُ اللهَ إلا من محبتكم فـإنـهـا حـسـنـاتـي حـيـن ألـقـاهُ
فـإنْ يـقـولـوا بـأن الـعـشـق معصيةٌ فالعشقُ أحـسـنُ ما يُعصى بـه الله

** ثم لا يخفى أنه كما أن هؤلاء الفضلاء عشقوا المولى عز وجل وعشقوا النبي صلى الله عليه وسلم بمجرد سماع الوصف، ولم يشاهدوا المحبوب بالعيان، فكذلك كثير من الناس يحبون ويعشقون إنساناً بمجرد وصفه وسماع خبره قبل أن يروه.

كان الجاحظ رحمه الله ألف كتاباً في المعلمين وحماقاتهم وبيان أحوالهم، فمر يوماً بمعلم كتّاب فوجده في هيئة حسنة وملبس مليح، فقام إليه وأجلسه فجلس ليلتقط بعض ما يثبته في كتابه من حماقاتهم المشهورة، ففاتحه في القراءات فوجده فيها ماهراً، فذاكره في النحو فإذا هو فيه ماهر، فحادثه في الروايات وأشعار العرب واللغة وغير ذلك فوجده كاملاً في جميع ما يراد منه، فعزم على تقطيع «كتاب المعلمين» وقال في نفسه: ما دام يوجد في المعلمين مثل هذا والله لا يجوز لي أن أفضحهم.

وبقي الجاحظ كلَّ يوم يتردد على المعلم يزوره ويجالسه ويباسطه، فأتاه يوماً للزيارة على العادة، فوجد الكتّاب مغلقاً، فسأل عنه جيرانه فقالوا: مات عنده ميت، فلزم أن يذهب له إلى داره ليعزيه.

قال الجاحظ: فجئت إلى داره وطرقت الباب، فخرجت إليَّ جاريته فقالت: ما تريد؟ فقلت: أريد مولاك، فقالت: مولاي محزون جالس في العزاء وحده لا يأذن لأحد بالدخول عليه، فقلت: قولي له صديقك فلان يطلبك، فدخلت وخرجت إليَّ وقالت: بسم الله فعبرت إليه، فإذا هو جالس وحده، فقلت: أعظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وهذا سبيل لا بد منه فعليك بالصبر.

قال الجاحظ: ثم قلت له: هذا الذي توفي ابنك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: فأخوك؟ قال: لا، قلت: فمن؟ قال: حبيبتي، فقلت في نفسي: هذه أول نحاسة، ثم قلت له: سبحان الله النساء كثير وتجد غيرها، وتقع عينك على أحسن منها، فقال: وأتظن أني رأيتها؟ فقلت في نفسي: وهذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لا رأيته؟ فقال: إعلم أني كنت في الطاقة وإذا برجل عابر وهو يغني ويقول:

يا أمَّ عمرٍو جزاكِ اللهُ مكرمةً رُدّي عليَّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها ما قيل فيها هذا الشعر، فهويتها واشتغل قلبي بحبها، فلما كان بعد يومين عبر ذلك الرجل وهو يغني ويقول:

إذا ذهبَ الحمارُ بأمّ عمرٍو فلا رجعتْ ولا رجعَ الحمارُ

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، وقعدت في العزاء ثلاثة أيام وهذا اليوم الرابع، قال الجاحظ: فعادت عزيمتي وقويت همتي على إتمام تأليف كتاب الحمقاء بحكاية أم عمرو، وعدلت عن تقطيعه.

** ومن العشق بالسماع قول أبي العز الضرير:

قالوا عشقتَ وأنتَ أعمى ظبياً كحيلَ الطَّرْف ألمى
وحُلاه ما عاينتَها وتقول قد شغلتك وَهْما
وخيالُه بكَ في المنا مِ فما أطاف ولا ألمّا
من أين أَرسلَ للفؤا دِ وأنتَ لم تنظرْه سهما
فأجبتُ أني موسويْـ يُ العشقِ إنصاتاً وفهما
أهوى بجارحة السما عِ ولا أرى ذاتَ المسمّى

وقال الخليل بن أحمد:

إنْ كنتَ لستَ معي فالذكرُ منك معي يراك قلبي وإن غُيِّبْتَ عن بصري
العينُ تُبصر من تهوى وتفقده وناظرُ القلب لا يخلو من النظرِ

وقال بشار بن برد:

قالتْ عقيلُ بن كعبٍ إذ تعلَّقها قلبي فأضحى به من حبها أثرُ
أنّى ولم ترَها تهوى فقلتُ لهم إن الفؤادَ يرى ما لا يرى البصرُ

وله أيضاً:

يا قومِ أُذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ والأذنُ تعشق قبل العينِ أحيانا
قالوا لمن لا ترى تهوى فقلتُ لهم الأذنُ كالعين تُوفي القلبَ ما كانا

** ولابن حزم بيتين لطيفين ليسا من هذا الباب، ولكن لمناسبتهما لهذه الأبيات ذكرتهما، وهما قوله:

لئنْ أصبحتُ مرتحلاً بجسمي فقلبي عندكم أبداً مقيمُ
ولكنْ للعيان لطيفُ معنىً لذا سأل المعاينةَ الكليم

وقال آخر:

سلامٌ على من شاقني بوصالهِ وإن لم أفزْ إلا بطيف خيالهِ
عشقتُ وما أبصرتُه غيرَ أنني سمعتُ من الحاكين وصفَ جمالهِ

وقال غيره:

وردتْ عليَّ صحيفةٌ من مكرمٍ ما زُرتُه إلا بطيف خيالهِ
لكنه شغفَ الفؤادَ بحبه أنْ[1] شاع بين الناس وصفُ جمالهِ

** وقال القاضي الأرجاني:

أحببتكم من قبل رؤياكُمُ لحسن وصفٍ عنكمُ قد جرى
وهكذا الجنّةُ معشوقةٌ لحسنها من قبل أن تُبْصَرا

** ومن هذا النوع بيتان لبعض الفضلاء شطَّرهما والدي المرحوم الشيخ عبد الجليل برادة، وهو عالم المدينة المنورة وأديبها ومحدثها وشيخ علمائها فقال رحمه الله تعالى:

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «إذ».

(ما زلتُ بالوصف طولَ العمرِ أعشقكم) وخاطري دائماً بالوصل في خطرِ
والقلبُ ما زال مشتاقاً لرؤيتكم (على السماع وما شاهدتُ بالنظرِ)
(لما اجتمعنا ولاحت لي محاسنُكم) وفوق ما سمعتْ أذني رأى بصري
ناديتُ ماذا ترى يا قلبُ قال لقد (وجدتُ أضعافَ ما بُلِّغْتُ بالخبرِ)

وقال آخر:

تعشَّقتكم سمعاً ولم أجتمعْ بكم وسمعُ الفتى يهوى لعمري كطَرْفِهِ
وشوَّقني ذكرُ الجليسِ إليكمُ فلما التقينا كنتمُ فوق وصفِهِ

** وهنا بيتان وإن لم يكونا من هذا الباب إلا أن لهما مناسبة بما قبلهما من الأبيات، فذكرتهما استحساناً لهما، وهما:

وما زال من ألقاه يُثْني بطَيِّبٍ عليك ثناءً نَشْرُه يتضوَّعُ
فلما تلاقينا رأيتُ غرائباً من الحسن أضعافَ الذي كنتُ أسمع

وقال المتنبي:

وأستكبر الأخبارَ قبل لقائهِ فلما التقينا صَغَّرَ الخبرَ الخُبْرُ

الباب السابع في عشق السماع

عشق السماع هو أن يسمع الإنسان صوتاً لطيفاً مشجياً، ونغمة حسنة مهيجة، فيعشق ذلك الصوت، ويميل إلى تلك النغمة، ويشتغل فكره بهاتيك الألفاظ، فينجذب ويهيم، فهذا هو عشق السماع.

وهو مشاهد في كثير من ذوي الطباع الرقيقة والنفوس اللطيفة وأرباب الذوق والظرف، فإنهم متى سمعوا الغناء المطرب والصوت المشجي تحصل لهم حالة جاذبية ودورة عصبية، تُعرف أو تُسمى بالعشق والمحبة.

وهذه الحالة توصل بعض أهل المحبة والغرام إلى التهيج والرقص، وبعضهم إلى الفرح والسرور، وبعضهم إلى الحزن والبكاء والنحيب، وبعضهم إلى الإغماء والجنون، وغير ذلك من الأحوال العجيبة المغايرة لبعضها.

ثم اعلم بأن عشق السماع يؤثر في الأجسام مثل تأثير العشق بالرؤية والمشاهدة للجميل، لا فرق بينهما، ومما يدل على تأثير الغناء في الأرواح أن الأطيار في الجو إذا سمعت صوتاً شجياً مطرباً دنت منه وأصغت إليه واستلذت بسماعه.

وبالغناء تُنَوَّم الصبيان، وبه تهيم الإبل في مشيها إذا حدا لها الحادي، وبه تُستخرج الحيات من جحورها، وبه تشرب الخيل والبهائم إذا صفر لها الساقي، والدواب تصغي إذا غنى لها المكاري.

وهـذا يحقق أن السماع يعشق كما يعشق الجمال، وهو سماع الغناء والألحان وإنشاد الأشعار بالصوت الرخيم الذي حرمه بعض العلماء وجوزه بعضهم، وأحله أكثر علماء الدين والشريعة وكبار الصوفية المرشدين إلى خير طريقة.

والدليل على عدم تحريمه هو عدم النهي عن السماع في الكتاب والسنة، فلم يذكر في القرآن الشريف تحريم السماع، ولم ينهنا النبي صلى الله عليه وسلم عنه حتى أننا نستكرهه أو نحرمه.

وأما الدليل على جـوازه وإباحته فإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له ورضاؤه به وعدم نفوره منه، فمن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أهدر دم كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه، وبلغه ذلك فتاب وأسلم ونظم قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ   متيَّمٌ إِثْرَهـا لم يُفْدَ مكبولُ
وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا   إلا أغَنُّ غضيضُ الطرف مكحول
هيفاءُ مقبلةٌ عجزاءُ مدبرةٌ   لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طُول

ثم أتى مستخفياً إلى أن دخل المسجد النبوي وقت الفجر، وأنشدها النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد قبل صلاة الصبح، فما أنكر النبي صلى الله عليه وسلم عليه ذلك، بل استحسنها وأجاره عليها وعفا عنه وخلع عليه بردته، فاشتراها من أولاده معاوية في أيام خلافته بعشرة آلاف درهم وأودعها في بيت المال، وقيل إنها هي البردة الموجودة الآن في الآستانة العلية، المحفوظة من جملة ذخائر الملوك يتبركون بها في كل عام.

** ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة المنورة قابلته بنات النجار والدفوف بأيديهن يضربن بها ويغنين أمام النبي صلى الله عليه وسلم بقولهن:

طـــلـــعَ الـــبـــدرُ عـلـيـنـا مـــن ثـــنـــيّـــات الـــــوداعْ
وجـــبَ الـــشـــكـــرُ عـلـيـنـا مـــــا دعــــــا لله داعْ

إلى أن أوصلنه إلى دار أبي أيوب، وهن على هذه الحالة من الغناء والنشيد والطبول، وما أنكر عليهن في ذلك ولا نهاهن صلى الله عليه وسلم، وهذا لا شك يعد من السماع، ولو كان السماع ممنوعاً شرعاً لنهاهن عليه السلام، وقيل أنهن قابلنه عند رجوعه من غزوة تبوك أيضاً.

** ومن ذلك أن الحبشة كانوا يأتون يوم العيد إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ويرقصون ويغنون ويضربون بالطبول داخل المسجد النبوي، وما نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً قالت عائشة رضي الله عنها: سمعت أصوات الحبشة وهم يلعبون يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتحبين أن تري لعبهم؟ قالت: قلت: نعم يا رسول الله، فأرسل إليهم فجاءوا، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ووضع كفه على الباب ووضعت ذقني على ذراعه، وجعلوا يلعبون وأنظر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبك فأسكت مرتين أو ثلاثاً، ثم قال لي: يا عائشة حسبك الآن؟ فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا، فما نهاهم صلى الله عليه وسلم عن الغناء والرقص، ولا نهى المسلمين والمسلمات عن سماعهم والتفرج عليهم، كما هو في البخاري

وغيره من كتب الأحاديث.

** ومن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: مر النبي صلى الله عليه وسلم على حسان بن ثابت وهو في ظل فارع وحوله أصحابه وجاريته شيرين تغنيه بمزهرها:

هـــل عـــلـــيَّ ويـحَـكـمـا إن لــهــوتُ مـــن بـــاسِ

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: لا حرج إن شاء الله.

** ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم، قال: فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لا، قال: أو علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل، ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحَيّونا نُحيّيكم ولولا الحبّةُ السمرا لم نَحلل بواديكم

وسئل أحد الصالحين عن السماع فقال: إن أبحته فلست من أهله، وإن أنكرته فقد سمعه من هو خير مني.

** ومن ذلك لما تزوج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلس في المسجد النبوي وقال للصحابة رضوان الله عليهم: زفوني، وهذه القصة بتمامها ذكرناها في باب النوادر والحكايات من هذا الكتاب، وهي الحكاية ....[١] والعشرون، والزفاف هو أن يغنى للإنسان باسمه أو كنيته أو لقبه ويضرب له بالدفوف.

---

(١) بياض في الأصل.

** ومن ذلك قال رجل لمحمد بن سيرين وهو بالمسجد: ما تقول في الغزل الرقيق ينشده الإنسان في المسجد؟ فسكت عنه حتى أقيمت الصلاة وتقدم إلى المحراب، ثم التفت إلى الرجل الذي سأله وقال:

وتـبـرد بـردَ رداءِ الـعـرو ... سِ بالصيف رقرقتَ فيه العبيرا
وتسخن ليلةَ لا يستطيعُ ... نُباحاً بها الكلبُ إلا هريرا

ثم قال: الله أكبر، وأحرم بالصلاة، ومعنى هذين البيتين مأخوذ من قول الأعرابي في المدح:

إذا نزل الشتاءُ فأنت شمسٌ ... وإن جاء المصيفُ فأنت ظلُّ

وهذا ابن سيرين أنشد الغزل وتغنى به في المحراب بين الإقامة والصلاة ليفهم السائل أن ليس في ذلك بأس، والبيتان للأعشى.

وقالت الحكماء: من لم يتلذذ بصوت شهي، ومن لم يتعشق بوجه بهي، فهو فاسد المزاج يحتاج إلى علاج.

** سمع أبو تمام جارية تغني بالفارسية، فشجاه صوتها ولم يفهم كلامها فقال:

ولم أفهمْ معانيها ولكنْ ... شجتْ قلبي فلم أحملْ شَجاها
فكنتُ كأنني أعمى مُعنّىً ... يحبّ الغانياتِ ولا يراها

وقال بعضهم:

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ في الضحى ... ذاتِ شَجْوٍ صرختْ في فَنَنِ

ذكـــرتْ إلـفـاً وخِــدْنـاً هـاجـهـا فـبـكـت حُـزْنـاً فـهـاجـت حَـزَنـي
فـــبـــكـــائـــي ربـــمـــا أرَّقـــهــا وبُـــكـــاهـــا ربّـــمـــا أرَّقـــنـــي
ولـــقـــد تـــشـــكـــو فـــمـــا أفـــهـمُـهـا ولـــقـــد أشـــكـــو فـــمـــا تـــفـــهـــمـني
غـــيـــرَ أنـــي بـــالـــجـــوى أعـــرفـــهـــا وهـــي أيـــضـــاً بـــالـــجـــوى تـــعـــرفـــني

...........(١)

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

[الباب الثاني عشر في الغيرة وعدمها]

وقال بعضهم:

خَبَّروها بأنني قد تَزوَّجْـ ... ـتُ فظلَّت تُكاتم الغيظَ سِرّا
ثم قالت لأختها ولأخرى ... جزعاً ليته تزوَّجَ عشرا
وأشارت إلى نساءٍ لديها ... لا ترى دونهنَّ للسرِّ سترا
ما لقلبي كأنه ليس مني ... وعظامي إخال فيهنَّ فترا
من حديثٍ نمى إليَّ فظيعٍ ... خِلْتُ في القلب من تَلظِّيه جمرا

** كانت لإسحاق بن الفضل جارية، وكان شديد الوله والوجد بها، وكان لا يصل إليها هيبة من ابنة عمه، فوجد فرصة ذات ليلة وابنة عمه نائمة، فقام من جنبها قاصداً الجارية، فضربته عقرب في الطريق فرجع يتأوه، فانتبهت ابنة عمه وسألته عن حاله فأخبرها، فضحكت وأنشدت:

وداري إذا نام سُكّانُها ... تقيم الحدودَ بها العقربُ
إذا رام ذو حاجةٍ غفلةً ... فإن عقاربَها ترقبُ

ثم دعت جواريها وقالت لهن: عزمت عليكن أن لا تقتلن عقرباً بقية هذه السنة.

** كانت الورثة بنت ثعلبة امرأة ذهل بن شيبان، وكانت من غيرتها لا تترك لزوجها امرأة، فكلما تزوج امرأة تضربها وتجليها، وكانت رقاش بنت عمرو

بن عثمان زوجة كعب بن مالك بن تيم الله فطلقها زوجها كعب وتزوجها ذهل بن شيبان زوج ورثة ودخل بها.

فخرجت ذات يوم رقاش وفي رجليها خلخالان، فلما رأتها الورثة قالت: بخ بخ ساق بخلخال، فقالت رقاش: أجل ساق بخلخال لا كخلخالك المختال، فوثبت عليها الورثة لتضربها فضبطتها رقاش وطرحتها على الأرض، وضربتها ضرباً مؤلماً وغلبتها، ولم تفتك منها حتى اجتمع النسوة وخلصنها من يدها، فقالت الورثة:

يا ويحَ نفسي اليومَ أدركني الكِبَرْ　　أبكي على نفسي العشيةَ أم أذرْ
فوالله لو أدركتِ فيَّ بقيّةً　　للاقيتِ ما لاقى صواحبُكِ الأُخَرْ

وقال ابن سناء الملك:

أشكو إليها رِقَّتي لترقَّ لي　　فتقول تطمع بي وأنتَ كما ترى
وإذا بكيتُ دماً تقول شمتَّ بي　　يومَ النوى فصبغتَ دمعَك أحمرا
من شاء يمنحها الغرامَ فدونه　　هذي خلائقُها بتخيير الشِّرا

ومن عدم الغيرة قول عبد المحسن الصوري:

تعلَّقتُه سكرانَ من خمرة الصِّبا　　به غفلةٌ عن لوعتي ونحيبي
وشاركني في حبه كلُّ ماجدٍ　　يشاركني في مهجتي بنصيبِ
فلا تلزموني غيرةً ما ألفتُها　　فإن حبيبي من أحبَّ حبيبي

وقال الطغرائي:

زُوِّجتُها ليقلَّ عتبُ وُشاتِها ويكونَ عندي صفوُها ومزاجُها
ما ضرَّني إن كنتُ صاحبَ ضيعةٍ لي دخلُها وعلى سوايَ خراجُها

وفي باب النوادر والحكايات نذكر نوادر وقعت من هذا القبيل، وذلك في القيادة وعدم الغيرة.

الباب الثالث عشر في العفة وأهلها

العفة هي الكف عن المحرمات، وهي في الأصل سجية وطبيعة في النفس من قبيل الشهامة، فالنفس المتحلية بالعفة تأبى الرذائل وتتجنب المحرمات وتتباعد عن النقائص، ودائماً صاحب العفة يخجل من جميع الأمور الدنية ولو وقعت من غيره، وأما منه فلا تصدر أصلاً لأن نفسه تشمئز منها وتستعظمها.

والإنسان لا يقدم على شيء ويفعله إلا إذا كانت نفسه راغبة فيه ومستخفته، وأما الثقيل على النفس لا يقدم عليه الإنسان وإنما يقدم على الشيء الخفيف السهل على النفس.

فالعفيف حتى لو اجتمع بالنساء أو خلا بإحداهن لا تراوده نفسه أن يفعل معها منكرا، بل ولا تطاوعه نفسه أن يتذاكر معها فيما يخل بالمروءة للعفة الثابتة في نفسه الشريفة.

وأغلب العرب أهل عفة وشهامة إلا القليل منهم، كامرئ القيس وأمثاله فإنهم يعدون من أهل العشق الكاذب، كما سبق الكلام عليه في بابه، وقالت الحكماء: العفة لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال النفس.

وسأل رجلٌ رجلاً من بني عذرة: ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة؟ فقال له: لأن في نسائنا جمالاً وفي رجالنا عفة.

وقال نفطويه وهو إبراهيم بن عرفة:

ليس الظريفُ بكاملٍ في ظرفهِ   حتى يكونَ من الحرام عفيفا

فـــإذا تـعـفَّـف عـن مـحـارم ربـهِ فـهـنـاك يُـدعـى فـي الأنـام ظريفا

وقال أعرابي:

مـا إنْ دعـانـي الـهـوى لفاحشةٍ إلا عـصـانـي الـحـيـاءُ والـكـرمُ
فـلا إلـى مُـحْـرَمٍ مـددتُ يـدي ولا مـشـتْ بـي لـزلّـةٍ قـدمُ

وقال آخر:

إذا لـم أُبـرقـعْ بالحيا وجـهَ عفّتي فـلا أشـبـهـتْـه راحـتـي فـي الـتـكـرُّمِ
ولا كنتُ ممن يكسر الجفنَ في الوغى إذا أنـا لـم أغضضْه عن كل محرمِ

وقال آخر:

نـاري ونـارُ الـجـار واحـدةٌ وإلـيـه قـبـلـي تُـنـزَل الـقِـدْرُ
مـا ضـرَّ جـاراً لـي أُجـاوره أن لا يـكـونَ لـبـابـه سِـتْـرُ
أعـمـى إذا مـا جـارةٌ خـرجـتْ حـتـى يـواريَ جـارتـي الـخِـدْرُ

وقال علي بن عبد الغني الكفيف:

قـالـت وهـبـتُـكَ مـهـجـتـي فـخُـذِ فـدعِ الـفـراشَ ونـم عـلـى فَـخـذي
وثـنـتْ إلـى مـثـل الـكـثـيـب يـدي فـأجـبـتُـهـا نِـعـمَ الأريـكـة ذي
وهـمـمـتُ لـكـنْ قـال لـي أدبـي بـالله مـن شـيـطـانِـكَ اسـتـعـذِ
قـالـت عَـفـفـتَ فـعِـفْـتَ قـلـتُ لـهـا مـذ شِـبـتُ بـالـلـذات لـم أَلْـذِ

وقال معن بن أوس:

لَعمرُكَ ما أهويتُ كفّي لريبةٍ ... ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تُصبني مصيبةٌ ... من الدهر إلا قد أصابت فتىً قبلي
ولستُ بماشٍ ما حييتُ بمنكرٍ ... من الأمر ما يمشي إلى مثله مِثلي
ولا مُؤثراً نفسي على ذي قرابةٍ ... وأُوثر ضيفي ما أقامَ على أهلي

وقال آخر:

فواللهِ إني لم أحم حول قُبلةٍ ... ولا ضمَّ صدرٍ لا ولا فعلَ منكرِ
ولكنني حاولتُ لذةَ مسمعٍ ... أفوز بها منها ولذةَ منظرِ

وقالت ليلى الأخيلية لمحبوبها توبة ابن الحمير، تظهر له صيانتها لزوجها:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه ... وأنتَ لأخرى صاحبٌ وخليلُ

وقال عنترة العبسي:

أغشى فتاةَ الحي عند حليلها ... وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغضُّ طَرْفي ما بدتْ ليَ جارتي ... حتى يواريَ جارتي مأواها

وقال آخر:

ولستُ بصادرٍ عن بيت جاري ... صدورَ العِير غَمَّره الورود

ولستُ بسائلٍ جاراتِ بيتي أغُيّابٌ رجالكِ أم شُهودُ
ولا أُلقي لذي الودعاتِ سوطي لأُلهيه ورَبَّته أُريدُ

وقال محمد بن العباس الأبيوردي:

فإنْ أمدحْ إماماً أو هماماً فلا جاهاً أروم ولا نوالا
وأعبث بالنسيب ولست أغشى الْ حرامَ فيقطر السحرَ الحلالا
ومن عَلِق العفافَ ببُردتَيْه رأى هُجرانَ غانيةٍ وِصالا
إذا وسعَ التقى كرمي فأهْونْ بخَوْدٍ ضاق قُلْباها مجالا
فلم أسَلِ المعاصمَ عن سِوارٍ ولا عن حِجْلها القصبَ الخِدالا
ولولا نَوْشةُ الأيامِ مني لما نعمَ اللئامُ لديَّ بالا
ولكني مُنيتُ بدهر سَوْءٍ هو الداءُ الذي يُدعى عُضالا
يُقدِّم من ينال النَّقصَ منه ويُحرِم كلَّ من رُزِقَ الكمالا

..........(١)

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

الباب الخامس عشر في من أسلم وحسن إسلامه

وفي من ارتد والعياذ بالله بسبب العشق وما قارب ذلك:

قد ذكرنا سابقاً أن العشق ستر وغطاء يغمي على القلب والعقل، فإذا ذهل عقله وانستر لبه وقلبه غاب شعور الإنسان، وصار كالجماد الذي لا يدرك شيئاً، فلا يدري ماذا يقول ولا ماذا يسمع، سوى ذكر المحبوب وخبره، وما يشعر بذلك أو يدل عليه.

فإذا اشتد به هذا التخيل يخرجه عن طوره ويحجب عقله عن إدراك المعالي والكمالات، فلا يفرق حينئذ بين حلال وحرام، ولا بين كفر وإسلام ولا ردة والعياذ بالله ولا غير ذلك، إلا إذا عصمه الله وأبقى له بعض قوة مدركة تخييلية في العقل يميز بها، فتمنعه بقية تلك القوة المخيّلة عن التوغل في الجنون بالكلية، وتحميه وتحفظه من التهافت على النقائض كالارتداد وتغيير المذهب وعدم المبالاة بالدين وغير ذلك، حفظنا الله وإياكم مما يشين العرض والدين، ونجانا مما يخدش العقل أو يشكك في العزم واليقين.

فهذه أسباب موجبة للوقوع في مثل هذه المهالك، تجري رغماً عن كل عاقل فطن نبيه حاذق، ليمضي قدر الله في الكائنات وينفذ حكمه على المخلوقات، كما كتب من الأزل وجف القلم، فلا تغيير ولا تبديل في القضاء المبرم، فنذكر في هذا الباب شيئاً مما وقع في الوجود من هذا النوع وظهر أمره ووصل إلينا خبره، واستحسنا ذكره ونشره، فمن ذلك:

** قال رجل من أهل الحديث: دخلت ديراً كنت أعرف فيه راهباً مشهوراً

بمعرفة الأخبار والحوادث، لآخذ عنه بعض الأخبار والآثار والعلوم، فوجدته قد أسلم هو وجميع من في ذلك الدير.

فسألته عن السبب الموجب لإسلامهم، فقال لي: عشقت جارية منا غلاماً مسلماً عابداً وافتتنت به، ودعته إلى نفسها فأبى، فلما زاد بها الوجد ولم يساعفها الغلام أعطت مصوراً مالاً لينقش لها صورة الغلام، فنقش لها الصورة تماماً، فكانت تقبلها وتبكي كل يوم إلى الغروب، فمات الغلام وبلغها خبر موته، فعملت له مأتماً عظيماً، وصرفت في ذلك المأتم أموالاً جسيمة، فلما تم المأتم دخلت إلى حجرتها والتزمت لثم الصورة والبكاء تلك الليلة، فلما أصبحنا وجدناها ميتة، والصورة إلى جانبها وعلى يدها مكتوب:

يا موتُ دونكَ روحي بعد سيّدها ... خذْها إليك فقد أودتْ بما فيها
أسلمتُ وجهيَ للرحمن مُسلِمةً ... ومتُّ موتَ حبيبٍ كان يعصيها
لعلها في جنان الخلدِ يجمعها ... يومَ الحساب ويومَ البعث باريها
مات الحبيبُ وماتت بعده كمداً ... محبَّةٌ لم تزل تَشفي مُحبِّيها

فشاع خبر موتها وما وجد مكتوباً على يدها حتى بلغ المسلمين، فاجتمع المسلمون وأتوا إلى الدير وأخذوها وجهزوها ودفنوها إلى جانب الغلام، فرأيتها في النوم فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فأنشدتني هذه الأبيات:

أصبحتُ في راحةٍ مما جنته يدي ... وبتُّ جارةَ فردٍ واحدٍ صمدِ
محى الإلهُ ذنوبي كلَّها وغدا ... قلبي خليّاً من الأحزان والكمد
لما قدمتُ على الرحمن مسلمةً ... وقلتُ إنك لم تولد ولم تلد

أثـابـنـي رحــمــةً مـنــه وأسـكـنـنـي مَـعْ مـن هـويـتُ جِـنـانـاً آخـرَ الأبـد

فأفقت من منامي وأنا أردد الأبيات وقد حفظتها عنها، فعلمت أن الإسلام حق فأسلمت، وأسلم جميع أهل الدير بسبب ذلك لما أخبرتهم بالرؤية وقرأت عليهم الأبيات.

❊❊ وكان راهب نصراني اسمه عبد المسيح أسلم وحسن إسلامه، فسئل عن سبب إسلامه فقال: كانت عندنا في الدير جارية نصرانية تبيع الخبز، فعشقها شاب مسلم واشتد حبه لها، فصار يتعرض لها في الطريق ويكلمها، فسلطت عليه الصغار فضربوه، فلم يكترث بهم ولم يغضب منها ولم يعاتبها بل زاد ولهاً بها وحباً لها، فلما علمت صدقه عرضت عليه نفسها بالحرام فأبى، فعرضت عليه التنصر ليتزوجها على دين النصرانية فأبى، فأمرت الصغار أن يضربوه ويرموه بالحجارة، فاجتمع عليه الصبيان يضربونه بالحجارة حتى مات، ولم ينزعج منها ولا مما حل به، بل يقول وهو في تلك الحالة: اللهم اجمع بيننا في الجنة اللهم اجمع بيننا في الجنة، ويردد هذه الكلمة إلى أن خرجت روحه.

وفي تلك الليلة بعد أن دفن رأته الجارية في منامها كأنه آخذ بيدها وقد انطلق بها إلى الجنة، فمنعت عن دخول الجنة لأجل الإسلام فأسلمت، فدخل بها الجنة فأراها قصراً من اللؤلؤ وقال: هذا لي ولك وأنك ستأتي بعد خمس ليال، فلما استيقظت أسلمت وأتت إليَّ وأخبرتني بما وقع لها، ثم لزمت قبر الشاب حتى ماتت بعد خمس ليال فأسلمت أنا أيضاً بسبب ذلك.

❊❊ وقال أبو الفرج ابن الجوزي: عشق رجل مسلم امرأة نصرانية وهي

أيضاً عشقته، وزاد بهما الغرام في حب بعضهما، حتى غلب على عقل الرجل العشق فحمل إلى البيمارستان، وكان له صديق يترسل بينهما فلما زاد به الحال ونزل به الموت قال لصديقه: قد قرب الأجل ولم ألق فلانة في الدنيا، وأخشى أن أموت على الإسلام ولا ألقاها في الآخرة فتنصرت لأكون معها في الآخرة ومات عندما تنصَّر والعياذ بالله.

فمضى صديقه إلى النصرانية ليبشرها بأن محبوبها مات على دينها فوجدها عليلة على آخر رمق، فلما رأته قالت له: أنا ما لقيت صاحبي في الدنيا وأريد أن ألقاه في الآخرة، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وشهقت شهقة فماتت في الحال، فكتب الله عليه الشقاوة كما كتب لها السعادة.

** ومن هذا النوع ما رواه يعقوب بن السكيت عن ابن الأزرق: أن رجلاً من أهل البصرة قال له: نزلنا في ظل حصن من الحصون التي للروم، فإذا أنا بقائل يقول من فوق الحصن بصوت رخيم ولسان فصيح هذه الأبيات ويبكي:

فكم بين الأجارع فالمنقّى ... إلى أُحُدٍ إلى مِيقات رِيم
إلى الزوراء من ثغرٍ نُقَمّي ... عوارضَه ومن دَلٍّ رخيم
ومن عينٍ مكحّلةِ الأماقي ... بلا كُحلٍ ومن كَشْحٍ هضيم

فناديته أيها المنشد: فأشرف فإذا هو فتى كأحسن الناس، فقلت: من الرجل وما قصتك؟ فقال: أنا رجل من الغزاة من العرب، نزلت مكانك هذا فأشرفت عليَّ جارية كأحسن الناس فعشقتها فكلمتها، فقالت: إن دخلت في ديني لم أخالفك، فغلب عليَّ الشيطان فدخلت في دينها، فأنا كما ترى، فقلت: أكنت تقرأ القرآن؟ فقال: أي والله لقد حفظته، قلت: فما تحفظ منه اليوم؟ قال: لا

شيء إلا قوله عز وجل «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» قلت: فهل لك أن نعطيهم فداءك وتخرج معنا، قال: ففكر ساعة ثم قال: انطلق صحبك الله. انتهى.

وهذه النادرة شبيهة بما وقع للوابصي فإنه ارتد والعياذ بالله بمثل هذا الحال، ولا فرق بين ما جرى عليه وبين هذه القصة فلا حاجة للتطويل، والوابصي هو الصلت بن العاصي بن وابصة بن خالد المخزومي، وله قصة نذكرها في باب الحكايات من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

** كان عبد الله بن الفضل بن الربيع قد هوي جارية نصرانية رآها في دير مارجرجس، فكان لا يفارق البيع شغفاً بها رجاء أن يواجهها، وكان يراسلها ويعلمها بمحبته لها فلا تقدر على مواصلته والاجتماع به إلا على ظهر الطريق، فخرج في عيد من أعياد النصارى إلى بستان عظيم في دير مارجرجس تجتمع النصارى فيه في الأعياد، ليصادف محبوبته هناك ويتمتع بالنظر إلى وجهها، فلما دخل البستان وجدها مع نسوة كانت تأنس بهن، فلما ظفر بها وكلمها أعرضت عنه وأبت بعض الإباء، ثم عطفت عليه وجلست معه ومعها صواحبها فأكلوا وشربوا، وأقام معها أسبوعاً من السبت إلى الخميس وانصرف يوم الخميس وقال في ذلك:

رُبَّ صهباءَ من شراب المجوسِ قهوةٍ بابليّةٍ خندريسِ
قد تجلَّيتُها بناي وعودٍ قبل ضرب الشمّاس بالناقوسِ
وغزالٍ مكحّلٍ ذي دلالٍ ساحرِ الطرفِ سامريٍّ عروسِ
قد خلونا بطيبه نجتنيه يومَ سبتٍ إلى صباح الخميس

بين وَردٍ وبين آسٍ جَنيٍّ وسطَ بستانِ دير مَرجرجيس
تتثنّى في حسن جيدِ غزالٍ بصليبٍ مفضْفضٍ آبنوس
كم لثمتُ الصليبَ في الجيد منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشموس

وقال أبو بكر الموسوس في نصراني:

أبصرتُ شخصَكَ في نومي تُعانقني كما تعانق لامُ الكاتبِ الألفا
يا من إذا درسَ الإنجيلَ ظلَّ له قلبُ الحنيفِ عن الإسلام منصرفا

وقال فيه أيضاً:

زُنّارُه في خَصره معقودُ كأنه من كبدي مَقدودُ

وقال ابن سراج:

صادَ فؤادي في الهوى شادنٌ سقاه من ريقته فانتشى
أبصرتُه يومَ شعانينهِ يجذبه الرِّدْفُ إذا ما مشى
أشدُّ شيءٍ في الهوى أنه قُضاتُه لا يقبلون الرُّشا

وقال السراج القاري لما كان في بلدة تنّيس:

وبتنّيسَ في كنيسة ديرٍ نِ لحيني أبصرتُ ظبياً أَغنّا
واقفاً يلثم الصليبَ وطوراً بأناجيله يُرجِّع لحنا
فتمنَّيتُ أن أكونَ صليباً يومَ قُربانه فأقرع سِنّا

** نظر الوليد بن يزيد إلى جارية نصرانية من أهيأ النساء وأجملهن يقال لها سفراء، فعشقها وهام وجداً بها، فجعل يراسلها وتتمنع وتأبى وتنفر منه، حتى فشا الخبر وشاع أمره بين الناس، فقال فيها:

ألا حبذا سَفْرى وإنْ قِيل إنني كلفتُ بنصرانيّةٍ تشرب الخمرا
يهون علينا أن نظلَّ نهارَنا إلى الليل لا أُولى نُصلّي ولا عصرا

ثم لم يزل مشغوفاً بحبها حتى داخله الوسواس والذهول، وهي متجنبة عنه لم تقبل مواصلته ولا محادثته، فقيل له إن للنصارى عيد عظيم قد قرب وقته، وإن من عادتهم أن يخرجوا إلى البستان الفلاني الذي في الناحية الفلانية ويقضوا نهارهم هناك، وسفرى أيضاً تكون هناك، فلو ذهبت يوم عيدهم إلى ذلك البستان لتمتعت بالنظر إليها.

فذهب الوليد إلى صاحب البستان وتلطف به وأهدى له بعض تحف، وأخبره أن قصده أن يأتي يوم العيد إلى البستان ليتفرج على عيدهم فساعده على ذلك، فتقشف الوليد وغير هيئته يوم عيدهم، ودخل البستان وجعل يجول بين تلك الأزهار والرياحين والظباء العِين، ويتأمل في تلك النساء والولدان والرهابين.

وبعد برهة دخلت سفرى البستان، وجعلت تمشي مع صواحبها بين تلك التجليات الربانية، وتتمايل على تلك الخميلة الجميلة الإلهية، وتتأمل في تلك العجائب والغرائب، حتى انتهت إلى الوليد فلم تعرفه لتغيير حليته وتقشفه، فسألت صاحب البستان وقالت له: من هذا الرجل؟ فقال: رجل مصاب، فجعلت تمازحه وتضاحكه، فأعجبها كلامه، فجعل يحادثها ويلاعبها طويلاً

إلى أن اشتفى من محادثتها ومن النظر إليها، فقيل لها: ويلك أتدرين من ذلك الرجل الذي كنت تمازحين؟ قالت: لا، قيل لها: هذا الوليد بن اليزيد، وإنما تقشف لينظر إليك ويحادثك، فجنت غراماً به بعد ذلك وكانت أحرص عليه منه عليها، فقال الوليد في ذلك:

أضحى فؤادُكَ يا وليدُ عميدا ... صبّاً كليماً للحسان صَيودا
من حبّ واضحةِ العوارضِ طفلةٍ ... برزتْ لنا نحو الكنيسةِ عيدا
ما زلتُ أرمقها بِعينَيْ وامقٍ ... حتى بصرتُ بها تُقبّل عودا
عودَ الصليبِ فويحَ نفسي من رأى ... منكم صليباً مثلَه معبودا
فسألتُ ربي أن أكونَ مكانَه ... وأكونَ في لهب الجحيم وقودا

قال القاضي أبو الفرج المعافى: لم يبلغ مدرك الشيباني هذا الحد من الخلاعة حيث قال في محبوبه عمرو النصراني:

يا ليتني كنتُ له صليبا ... فكنتُ منه أبدا قريبا
أُبصر حسناً وأشم طيبا ... لا واشياً أخشى ولا رقيبا

وقال ابن المعتز:

سقى المطيرةَ ذاتَ الظلِّ والشجرِ ... وديرَ عبدونَ هطّالٌ من المطرِ
يا طالما نَبَّهتني للصبوح به ... في ظلمة الليلِ والعصفورُ لم يَطرِ
أصواتُ رهبانِ ديرٍ في صلاتهمُ ... سُودِ المدارعِ نَعّارينَ في السَّحَر
مزنَّرين على الأوساط قد جعلوا ... على الرؤوس أكاليلاً من الشَّعَر

كم فيهمُ من مليح الوجهِ مكتحلٍ بالسحر يُطبق جفنيه على حَوَر
لاحظتُه بالهوى حتى استقادَ له طوعاً وأسلفني الميعادَ بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مُستتراً يستعجل الخطوَ من خوفٍ ومن حذر
فقمتُ أفرش خَدّي في التراب له ذُلّاً وأسحب أذيالي على الأثر
فكان ما كان مما لستُ أذكره فظُنَّ خيراً ولا تسألْ عن الخبر

الباب السادس عشر في من جن بالعشق

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم هل لَـذَّ عيشٌ لشخصٍ غيرِ مجنونِ

وقال آخر:

قـالـوا حبيبُك مـجـنـونٌ فقلت لهم مـا لــذّةُ الـعـيـشِ إلا للمجانينِ

فمجانين المحبة شيء كثير، ومن ذهبت عقولهم بسبب العشق والغرام جم غفير، لا يمكن لأحد حصرهم ولا يحيط بإحصائهم وعددهم إلا الله تعالى، ولكنا سنذكر في هذا الباب بعضاً منهم، وشيئاً من أخبارهم بغاية الاختصار.

فمن مشاهيرهم مجنون ليلى، وهو مجنون بني عامر واسمه قيس بن الملوح العامري، كان يشبب بليلى ولم يكن مجنوناً وإنما حصلت له لوثة من شدة العشق، ولهما أخبار كثيرة في الكتب مشهورة، وسنذكر شيئاً من ذلك في باب النوادر والحكايات من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

** قال رجل من مشايخ بني مرة: رحلت مرةً إلى ناحية الشام مما يلي تيماء والشراة في غرض لي، فإذا أنا بخيمة عظيمة قد ظهرت لي مِن بُعد وقد أصابني مطر، فعدلت إلى الخيمة وتنحنحت، فإذا امرأة كلمتني من داخل الخباء وقالت لي: انزل، فنزلت وحططت عن رحلي.

وبعد برهة راحت إبلهم وغنمهم فإذا أمر عظيم ورعاء كثير، فقالت لبعض العبيد: سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقلت: من ناحية اليمامة ونجد، فقالت: أي بلاد نجد وطئت؟ قلت: كلها، قالت: بمن نزلت هناك؟ قلت: ببني عامر،

فتنفست الصعداء وقالت: بأي بني عامر؟ فقلت: ببني الحريش، فاستعبرت ثم قالت: هل سمعت بذكر فتى يُقال له قيس ويُلقب بالمجنون؟ قلت: أي والله ونزلت بأبيه وأتيته حتى نظرت إليه يهيم في تلك الفيافي ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم، إلا أن تذكر له ليلى فيبكي وينشد أشعاراً يقولها فيها، فرفعت الستر بيني وبينها فإذا شقة قمر لم تر عيني مثلها، فبكت وانتحبت حتى ظننت أن قلبها قد انصدع، فقلت لها: أيتها المرأة اتق الله، فوالله ما قلت بأساً، فمكثت طويلاً تبكي ثم قالت:

ألا ليت شعري والخطوبُ كثيرةٌ ... متى رحلُ قيسٍ مُستقِلٌّ فراجعُ
بنفسي من لا يستقلّ برحلهِ ... ومن هو إنْ لم يحفظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتي غشي عليها، فلما أفاقت قلت لها: من أنت بالله؟ فقالت: أنا ليلى المشؤومة عليه غير المساعدة له، فما رأيت مثل حزنها ووجدها، وبت ليلتي ومع الفجر رحلت وتركتها.

** ومنهم جارية منصور زلزل المغني المشهور، قال إبراهيم الموصلي: قال لي منصور زلزل يوماً: عندي جارية من حالها كذا ومن صفتها كذا، وإني قد علَّمتها الغناء وضرب العود حتى برعت وكانت غاية في ذلك، قال إبراهيم: فكنت أشتهي أن أراها فأستحي أن أسأله ذلك.

فلما توفي زلزل بلغني أن ورثته يعرضون الجارية، فصرت إليهم فأخرجوها، فإذا جارية كاد الغزال أن يكونها لولا ما تم منها ونقص منه، فقلت لها: غني صوتاً، فجيء بالعود فوضع في حجرها، فاندفعت تغني وتقول وعيناها تذرفان:

أقــفــرَ مــن أوتــــاره الــعــودُ فــالــعــود لــلإقــفــار مــعــمــودُ
وأوحـــشَ الــمــزمــارُ مــن صــوتــهِ فــمــا لـــه بـــعـــدكَ تــغــريــدُ
مـــن لــلــمــزامــيــر وإســمــاعــهــا وعـــامـــرُ[1] الـــلـــذّاتِ مفقـود
والــخــمــرُ تــبــكــي فــي أباريـقـهـا والــقــيــنــةُ الــخــمــصــانــة الـــرُّود

ثم شهقت شهقة ظننت أن نفسها قد خرجت وغشي عليها، فركبت من ساعتي ودخلت على أمير المؤمنين فأخبرته بخبر الجارية وما سمعت منها، فأمر بإحضارها فلما دخلت عليه قال لها: غني الصوت الذي غنيت به إبراهيم، فغنت وجعلت تريد البكاء فيمنعها إجلال أمير المؤمنين، فرحمها وأعجب بها فقال: أتحبين أن أشتريك؟ فقالت: يا سيدي أما إذ خيرتني فقد وجب نصحك عليَّ، والله لا يشتريني أحد بعد زلزل فينتفع بي، فقال: يا إبراهيم أتعلم بالعراق جارية جمعت ما جمعت هذه؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ولا على وجه الأرض، فأمر بشرائها وأعتقها وأجرى عليها رزقاً.

** ومن ذلك ما رواه المبرد، وهو أنه قال يوماً: قال لي المازني: بلغني أنك تنصرف من مجلسنا فتصير إلى مواضع المجانين والمعالجين، فما معنى ذلك؟ قال: فقلت: أعزك الله تعالى إن لهم طرائف من الكلام، قال: فأخبرني بأعجب ما رأيته من المجانين؟ قال: فقلت: دخلت يوماً إليهم فمررت على شيخ لهم وهو جالس على حصير قصب، فجاوزته إلى غيره فقال: سبحان الله تعالى أين السلام؟ من المجنون أنا أو أنت فاستحييت منه، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد،

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «وعارف».

على أنّا نصرف سوء أدبك على أحسن جهاته من العذر، لأنه كان يُقال: إن للداخل على القوم دهشة، اجلس أعزك الله تعالى عندنا، وأومأ إلى موضع من الحصير.

فقعدت ناحية أستجلب مخاطبته، فقال لي وقد رأى معي محبرة: أرى معك آلة رجلين، أرجو أن لا تكون أحدهما، أمجالس أصحاب الحديث الأغثاث، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ قلت: الأدباء، قال: أتعرف أبا عثمان المازني؟ قلت: نعم، قال: أتعرف الذي يقول فيه:

وفتىً من مازنٍ أستاذ أهلِ البصرَهْ
أمُّهُ مَعرفةٌ وأبوه نكره

فقلت: لا أعرفه، فقال: أتعرف غلاماً له قد نبغ في هذا العصر، معه ذهن وله حفظ وقد برز في النحو يعرف بالمبرد، فقلت: أنا والله عين الخبير به، قال: فهل أنشدك شيئاً من شعره؟ قلت: لا أحسبه يحسن قول الشعر، فقال: يا سبحان الله تعالى، أليس هو القائل:

حبذا ماءُ العناقيدِ بريقِ الغانياتِ
بهما ينبت لحمي ودمي أيَّ نباتِ
أيها الطالبُ أشهى من لذيذ الشهواتِ
كُلْ بماء المزنِ تُفّاحَ خدودِ الفتياتِ

قلت: قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس؟ فقال: يا سبحان الله أولا يستحي أن ينشد مثل هذا حول الكعبة، ثم قال: وما تسمع ما يقولون في نسبه؟

قلت: يقولون هو من الأزد أزد شنوءة ثم من ثمالة، قال: قاتله الله تعالى ما أبعد غوره، أتعرف قوله:

سألنا عن ثُمالةَ كلَّ حيٍّ ... فقال القائلون: ومن ثُماله؟
فقلتُ محمدُ بنُ يزيدَ منهم ... فقالوا: زِدتنا بهم جهاله
فقال لي المبرّدُ: خَلِّ قومي ... فقومي معشرٌ فيهم نذاله

فقلت أعرف هذا لعبد الصمد بن المعَدّل يقولها فيه، فقال: كذب من ادعاها، هذا كلام رجل لا نسب له يريد أن يثبت له بهذا الشعر نسباً، فقلت له: أنت أعلم، فقال: يا هذا قد غلبت خفة روحك على قلبي، وقد أخرت ما كان يجب تقديمه، ما الكنية أصلحك الله تعالى؟ قلت: أبو العباس، قال: فما الاسم؟ قلت: محمد، قال: فالأب؟ قلت: يزيد، قال: قبحك الله تعالى أحوجتني إلى الاعتذار مما قدمت ذكره.

ثم وثب باسطاً يده يصافحني، فرأيت القيد في رجله إلى خشبة فأمنت غائلته، فقال: يا أبا العباس صن نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع فليس يتهيأ أن تصادف مثلي على مثل هذه الحالة، أنت المبرد أنت المبرد، وجعل يصفق وانقلبت عينه وتغيرت حليته، فبادرت مسرعاً خوفاً أن تبدر لي منه بادرة، وقبلت والله منه فلم أعاود إلى مجلس بعدها....[1]

[قيس بن الملوح:]

فلو أنَّ واشٍ باليمامة دارُهُ ... وداري بأعلى حضرموتَ اهتدى ليا

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل، وأول الحكاية موجود في كتب الأدب.

ومــاذا لـهـم لا أحـسـنَ اللهُ حالَهم   من الحظ في تصريم ليلى حِباليا
وقد كنتُ أعلو حبَّ ليلى فلم يزل   بـيَ الـنـقـضُ والإبــرامُ حتى علانيا
فيا ربِّ سَـوِّ الـحـبَّ بيني وبينها   يـكـون كَـفـافـاً لا عـلـيَّ ولا ليا
فما طـلـعَ الـنـجـمُ الـذي يُهـتـدى به   ولا الـصـبـحُ إلا هيَّجا ذكـرَهـا ليا
ولا سِـرتُ ميلاً من دمشقَ ولا بدا   سُـهَـيـلٌ لأهـل الـشـامِ إلا بـدا ليا
ولا سُمِّيَتْ عندي لها من سَمِيَّةٍ   مـن الـنـاس إلا بَـلَّ دمـعي رِدائـيـا
ولا هبّتِ الريحُ الجنوبُ لأرضها   مـن اللـيـل إلا بـتُّ لـلـريـح حانيا
فـإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادَها   عـلـيَّ فـلـن تـحـمـوا عـلـيَّ القوافيا
فـأشـهـد عـنـد الله أنـي أُحـبُّـهـا   فـهـذا لـهـا عـنـدي فـمـا عـنـدهـا ليا
قضى اللهُ بالمعروف منها لغيرنا   وبـالـشـوق مني والـغـرامِ قضى ليا
وإنّ الــذي أمّـلـتُ يـا أمَّ مـالـكٍ   أشـــابَ فُـوَيْـدي واسـتـهـان فـؤاديـا
أعـــدُّ الـلـيـالـي لـيـلـةً بـعـد لـيـلـةٍ   وقـد عـشـتُ دهـراً لا أعـدُّ اللياليا
وأخـــرجُ مـن بـيـن الـبـيـوتِ لعلني   أحـدِّث عنكِ النفسَ بالليل خاليا
أرانـي إذا صلّيتُ يَمَّمتُ نحوها   بوجهي وإن كـان المصلّى ورائيا
ومـا بـيَ إشـــراكٌ ولـكـنَّ حبَّـهـا   وعُظْمَ الجوى أعيا الطبيبَ المداويا
أحـبُّ من الأسماء ما وافـقَ اسمَها   أوَ اشْـبَـهـه أو كـان مـنـه مُـدانـيـا
خليليَّ ليلى أكـبـرُ الـحـاجِ والمنى   فمن لـي بليلى أو فمن ذا لَـهـا بِيا
لَعمري لقد أبكيتِني يـا حمامةَ الـ   عقيقِ وأبـكـيـتِ الـعـيـونَ البواكيا
خليليَّ ما أرجـو من العيش بعدما   أرى حاجتي تُشرى ولا تُشترى ليا

وتُحرَم ليلى ثم تزعم أنني سلوتُ ولا يَخفى على الناس ما بيا
فلم أرَ مِثلَيْنا خليلَيْ صبابةٍ أشدَّ على رغم الأعادي تصافيا
خليلان لا نرجو لقاءً ولا نرى خليلين إلا يرجوان تلاقيا
وإني لأَستَحْييكِ أن تعرِضَ المنى بوصلكِ أو أن تَعرضي في المنى لِيا
يقول أناسٌ علَّ مجنونَ عامرٍ يروم سُلوّاً قلتُ أنَّى لما بيا
بيَ اليأسُ أو داءُ الهيامِ أصابني فإياكَ عني لا يكنْ بكَ ما بيا
إذا ما استطال الدهرُ يا أمَّ مالكٍ فشأنُ المنايا القاضياتِ وشانيا
إذا اكتحلتْ عيني بعينكِ لم تزل بخيرٍ وجلَّتْ غمرةً من فؤاديا
فأنتِ التي إن شئتِ أشقيتِ عِيشتي وأنتِ التي إن شئتِ أنعمتِ باليا
وأنتِ التي ما من صديقٍ ولا عِدىً يرى نِضْوَ ما أبقيتِ إلا رثى لِيا
أمضروبةٌ ليلى على أنْ أزورَها ومتّخذٌ ذنباً لها أنْ ترانيا
إذا سِرتُ في الأرض الفضاءِ رأيتُني أصانع رحلي أن يميلَ حِياليا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا
وإني لأستغشي وما بي نعسةٌ لعل خيالاً منكِ يلقى خياليا
هي السحرُ إلا أنّ للسحر رُقيةً وإنيَ لا أُلفي لها الدهرَ راقيا
إذا نحن أدلجنا وأنتِ أمامَنا كفى لمطايانا بذكراكِ هاديا
ذكتْ نارُ شوقي في فؤادي فأصبحتْ لها وَهَجٌ مُستضرمٌ في فؤاديا
ألا أيها الركبُ اليمانون عَرِّجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
أسائلكم هل سال نَعمانُ بعدَنا وحُبَّ إلينا بطنُ نعمانَ واديا

ألا يا حمامَيْ بطنِ نعمانَ هِجتما عليَّ الهوى لما تغنَّيتما ليا
وأبكيتماني وسطَ صحبي ولم أكن أبالي دموعَ العين لو كنت خاليا
ويا أيها القُمْرِيَّتان تجاذبا بلحنَيْكما ثم اسجعا عَلِّلانيا
فإن أنتما استطربتما أو أردتما لحاقاً بأطلال الغضى فاتبعانيا
ألا ليت شعري ما لليلى وما ليا وما للصِّبا من بعد شيبٍ عَلانيا
ألا أيها الواشي بليلى ألا ترى إلى من تَشيها أو لمن أنتَ واشِيا
لئن ظعن الأحبابُ يا أمَّ مالكٍ فما ظعنَ الحبُّ الذي في فؤاديا
فيا ربِّ إذ صيَّرتَ ليلى هي المنى فزِنّي بعينيها كما زِنتَها ليا
وإلا فبَغِّضْها إليَّ وأهلَها فإني بليلى قد لقيتُ الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرءُ نفسَه وإن كنتُ من ليلى على اليأس طاويا
خليليَّ إن ضَنّوا بليلى فقرِّبا ليَ النعشَ والأكفانَ واستغفِرا ليا

قال الأعرابي: فلما أتم القصيدة ظهرت له ظبية فوثب في طلبها، والتفت إليَّ وقال: السلام عليك فما أراك تراني بعد هذا أبداً، وغاب عني وهو يعدو خلف الظبية، ثم قمت ومضيت إلى الحي وأخبرتهم خبره وأنشدتهم قصيدته فكتبوها عني، ثم انصرفت راجعاً إلى قومي.

** وكان رجل في البصرة واقفاً بإزاء داره، وباب داره يشبه باب الحمام، فمرت به امرأة جميلة وسألته قائلة له: أين الطريق إلى حمام منجاب، فأشار لها بيده إلى داره وقال: هنا، فلما دخلت دخل خلفها وقفل الباب، فلما رأت أنها حصلت في يده أظهرت له السرور وباسطته وقالت له: نشتهي أن يكون معنا ما

يطيب به عيشنا من طعام ومدام فإني جائعة، فصدقها وازداد سروراً من كلامها.

وخرج مسرعاً ليأتيها بما سألت، وغفل عن قفل الباب من دهشته، واشترى جميع ما يلزم ورجع مسرعاً، فلما دخل الدار وجد الباب مفتوحاً والمرأة قد خرجت، فكثر ولهه بها وزاد هيامه، وصار يمشي في الطرقات ويقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد جهلتْ أينَ الطريقُ إلى حَمّام منجابِ

وبقي على ذلك مدة وهو يدور في الطرقات ويردد هذا البيت بصوته، إلى أن جاوبته امرأة من طاق قائلة:

قرنان هلا إذا ما قد ظفرتَ بها جعلتَ حِرْزاً وأقفالاً على البابِ

فزاد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك هائماً بالبصرة، إلى أن حضرته الوفاة، فإذا قيل له: قل لا إله إلا الله، يقول: أين السبيل إلى حمام منجاب، ويردد البيت.

❊❊ ومن ذلك كان بحلب رجل تركي له جارية رومية يهواها، ومن شدة غرامه بها يطيعها في كل ما تأمر به، فرأت يوماً شاباً خياطاً فعشقته وتولعت به، فلا زالت تتحايل لتتوصل بالخياط فلم تقدر على حيلة لوصاله، فطلبت من سيدها أن يعتقها ويتزوجها، فأعتقها في الحال لحبه لها.

ثم أراد تزويجها فأنظرته، ثم أرسلت للخياط واتفقت معه وتزوجته عند القاضي محيي الدين أبي حامد محمد الشيزري، فلما بلغ التركي ذلك صاح صيحة عظيمة، واختلط ذهنه ووسوس، فحمل إلى البيمارستان، فأقام به مقيداً بالحديد لا يأكل ولا يشرب ولا يعقل إلى أن مات.

** ومن ذلك دخل أحد الملوك للتفرج على المجانين، فلما دخل عليهم رأى شاباً حسن الهيئة جميل الصورة نظيف الثياب، يُرى عليه آثار اللطف وتلوح عليه الفطنة، فدنا منه الملك وسأله عن حاله، فأجابه بألطف عبارة، وأفاد بأنه كان له اشتغال في مبدأ أمره ثم عرض له عارض أفضى به إلى هذه الحالة، فسأله الملك عن مسائل أجاب عن جميعها بأحسن جواب، فأعجبه واستحسن كل ما رآه منه.

ثم أن المجنون قال للملك: قد سألتني عن أشياء وأجبتك، وإني سائلك سؤالاً واحداً، قال: ما هو؟ قال المجنون: متى يجد النائم لذة النوم؟ ففكر الملك ساعة ثم قال: يجد اللذة حالة نومه، فقال المجنون: حالة النوم ليس له إحساس، قال الملك: قبل الدخول في النوم، فقال المجنون: كيف توجد لذة الشيء قبل وجوده؟ قال الملك: بعد النوم، قال المجنون: كيف توجد لذته وقد انقضى؟ فتحير الملك وازداد إعجابه، وقال: لعمري إن هذا لأعقل العقلاء، فالأولى أن يكون نديمي في هذا النهار، وأمر أن ينصب له سرير أمام شباك المجنون، ثم استدعى بالشراب فشرب ثم ملأ وناول المجنون فامتنع وقال: أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلي، وأنا أشربه لأصير مثل من؟ فاتعظ الملك من كلامه، ورمى القدح من يده وتاب من ساعته، فهذه أحوال مجانين العشق والغرام.

** ومن ذلك قال ابن حبيب: دخلت دار المرضى بنيسابور، فرأيت شاباً من أبناء النعم يُقال له أبو صادق السكري، مشدوداً مكبلاً وهو يصيح، فلما رآني قال: أتروي الشعر؟ قلت: نعم من شعر من تريد؟ قال: قول البحتري:

ألمعُ برقٍ سرى أم ضوءُ مصباحِ   أم ابتسامتُها بالمنظر الضاحي

فأنشدته القصيدة إلى آخرها، فقال: أفأنشدك قصيدة؟ قلت: نعم، فأخذ في إنشاد قصيدته:

أقصرا فإن شأنيَ الإقصارُ ... وأقلاّ لا ينفع الإكثارُ

حتى بلغ إلى قوله:

إن جرى بيننا وبينكِ عَتْبٌ ... أو تناءت منا ومنكِ الديار
فالغليلُ الذي عهدتِ مقيمٌ ... والدموعُ التي شهدتِ غزار

فقفز وجعل يرقص في قيده ويصيح إلى أن سقط مغشياً عليه، فخرجت وتركته.

الباب السابع عشر في من مات بالعشق

أما حقيقة هذا النوع وأحواله وأسبابه فإني تكلمت عليه وبينته في الباب الثالث عند تفصيل الدرجة الثالثة من العشق، فمن يرد الاطلاع عليه فليراجعه، وأما هنا فقصدي أن أذكر الأشخاص المتحابة ذوي القلوب المتوادة والأجسام المتآلفة، وأبين طرفاً من أحوال الذين أهلكهم الحب وأفناهم الغرام وقتلهم العشق والهيام، بعد أن أباد الحب أجسامهم بالسقام وأتلف مهجهم بتضاعف الأحزان والآلام.

وإني أذكر بعض أخبارهم وأسمائهم باختصار ليعرف فضلهم كل من وقف على آثارهم، ولم أتبع رأي مؤيد الدولة أبي المظفر في الإعراض عنهم وعدم التفحص عن أخبارهم ووقائعهم وأحوالهم في قوله:

دعْ ذكرَ من قتل الهوى فحديثُهم فينا يُشيِّب ذكرُه المولودا

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب فكتم وعف فمات فهو شهيد».

** فمن هؤلاء السادة الكرام قتلاء الحب والغرام عبد الله بن عجلان النهدي، من مشاهير المتيمين، لما تزوجت عشيقته ورأى أثر كفها على ثوب زوجها مات كمداً في الحال.

** ومنهم أبو مالك بن النضر وابنة عمه سعاد ابنة أبي الهيذم، وسنذكر شيئاً من أخبارهما في باب النوادر، ومنهم مدرك بن علي الشيباني مع محبوبه

عمرو بن يوحنا النصراني، وقد تقدم ذكرهما في آخر الباب الخامس عشر، ومنهم العلاء بن عبد الرحمن التغلبي وجاريته، ومنهم المرقش الأكبر واسمه عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس، عشق ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك بن ضبيعة ومات بها غراماً، وسنذكر قصصهم مختصرة مع بيان بعض أخبارهم في باب النوادر والحكايات إن شاء الله تعالى.

** ومنهم عامر بن غالب وجميلة بنت أميل المزنيان، قال الأصمعي: رأيت بالبادية رجلاً قد دق عظمه ونحل جسمه ورق جلده، فتعجبت من شدة ضعفه، فدنوت منه أسأله عن حاله فلم يرد جواباً، فسألت جماعة حوله عن حاله فقالوا: أذكر له شيئاً من الشعر يكلمك، فقلت له:

سبق القضاءُ بأنني لكِ عاشقٌ ... حتى المماتِ فأين منكِ مذاهبي

فشهق شهقة ظننت أن روحه فارقته، ثم أنشأ يقول:

أخلو بذكركِ لا أريد محدِّثاً ... وكفى بذلك نعمةً وسرورا
أبكي فيطربني البكاءُ وتارةً ... يأبى فيأتي من أحبّ أسيرا
فإذا أنا سمحٌ بفرقة بينِنا ... أُعقِبتُ منه حسرةً وزفيرا

قال الأصمعي: فقلت له: أخبرني عن حالك، قال: إن كنت تريد علم ذلك فاحملني وألقني على باب تلك الخيمة ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه جهده:

ألا ما للمليحة لا تعودُ ... أبخلٌ ذاك منها أم صدودُ
فلو كنتِ المريضةَ جئتُ أسعى ... إليكِ ولم يُنهنهني الوعيد

فإذا جارية مثل القمر قد خرجت من الخباء، فألقت نفسها عليه فاعتنقا وطال ذلك فسترتهما بثوبي خشية أن يراهما الناس، فلما خفت عليهما الفضيحة فرقت بينهما فإذا هما ميتان، فما برحت حتى صليت عليهما ودفنا، فسألت عنهما فقيل لي هما عامر بن غالب وجميلة بنت اميل المزنيان.

** ومنهم ما روي عن الأخفش، قال سعيد بن مسعدة الأخفش النحوي: خرجت في سفر فنزلنا على ماء لطيء، فبصرت بخيمة من بعد فقصدت نحوها فإذا فيها شاب على فراش كأنه الخيال، فلما أبصرني أنشأ يقول:

ألا ما للحبيبة لا تعودُ أبخلٌ بالحبيبة أم صدودُ
مرضتُ فعادني عُوّادُ قومي فمالكِ لم تُرَيْ فيمن يعود
فلو كنتِ المريضَ ولا تكوني لَعُدتكمُ ولو كثرَ الوعيد
وما استبطأتُ غيرَك فاعلميه وحولي من ذوي رحمي عديد

ثم أغمي عليه فمات فوقعت الصيحة في الحي، فخرج من آخر الماء جارية كأنها فلقة قمر، فتخطت رقاب الناس حتى وقعت عليه فقبلته، وأنشأت تقول:

عَداني أن أعودَك يا حبيبي معاشرُ فيهمُ الواشي الحسودُ
أذاعوا ما علمتَ من الدواهي وعابونا وما فيهم رشيد
فأما إذ حللتَ ببطن أرضٍ وقصرُ الناسِ كلِّهمُ اللحودُ
فلا بقيتْ لي الدنيا فَواقاً ولا لهمُ ولا أثرٌ جديد

ثم شهقت شهقة فخرت ميتة، فخرج من بعض الأخبية شيخ فوقف عليهما وقال: والله لئن كنت لم أجمع بينكما حيين لأجمعن بينكما ميتين، فدفنهما في قبر واحد.

** ومنهم زوجة مالك بن عمرو الغساني، فإنه تزوج بابنة عمه النعمان بن بشير، فشغف كل واحد منهما بصاحبه، وكان مالك شجاعاً فاشترطت عليه أن لا يقاتل شفقة عليه وضناً به، ثم حضر غزواً فباشر القتال فأصابته جراح كثيرة، فقال وهو مثقل من الجراح:

ألا ليت شعري عن غزالٍ تركتُه إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنعُ
فلو أنني كنتُ المؤخَّرَ بعده لما برحتْ نفسي عليه تَقطَّعُ

ثم مكث يوماً وليلة ومات من جراحه، فلما وصل خبره إلى زوجته بكته سنة، ثم اعتقل لسانها وامتنعت عن الكلام، فقال عمومتها: زوجوها لعل لسانها ينطلق ويذهب حزنها، فزوجوها بعض أبناء الملوك، فساق إليها ألف بعير، فلما كان في الليلة التي أهديت إليه فيها قامت على باب القبة وقالت:

يقول رجالٌ زَوِّجوها لعلها تقرّ وترضى بعده بخليلِ
فأخفيتُ في النفس التي ليس بعدَها رجاءٌ لهم والصدقُ أفضلُ قِيل
وحدَّثني أصحابُه أن مالكاً ضروبٌ بنصل السيف غيرُ نَكول
وحدَّثني أصحابه أن مالكاً خفيفٌ على الأحداث غيرُ ثقيل
وحدثني أصحابه أن مالكاً صرومٌ كماضي الشفرتين صقيل

ثم لما فرغت من الشعر شهقت شهقة فماتت.

** ومنهم عقيلة بنت الضحاك، قال الفرزدق: خرجت أريد اليمامة، فلما صرت على ماء لبني حنيفة عدلت إلى بعض ديارهم فأنخت ناقتي تحت بيت لهم، وفي البيت جارية سوداء، ثم خرجت جارية من بيت كأنها قمر فسألت الجارية السوداء وقالت لها: لمن هذه الناقة؟ فأشارت إليَّ وقالت: لضيفكم هذا، فعدلت إليَّ وسلمت، وقالت: ممن الرجل؟ قلت لها: من بني نهشل، قالت: فأنتم الذي يقول فيكم الفرزدق:

إن الـذي سـمك الـسـمـاءَ بـنـى لنا   بـيـتـاً دعـائـمُـه أعـزُّ وأطـولُ

قلت: نعم، فضحكت وقالت: فإن جريراً قد هدم عليه بيته حيث يقول:

أخزى الذي سمكَ السماءَ مُجاشعاً   وأحـلَّ بيتَكَ بالحضيض الأوهـدِ

قال الفرزدق: فأعجبتني، ولما رأت ذلك في وجهي قالت: أين تريد؟ قلت: اليمامة، فتنفست الصعداء وقالت:

تـذكّـرتُ الـيـمـامَـة إن ذكـري   بـهـا أهـلَ الـمـودّةِ والـكـرامـه

ألا فـسقـى الإلـهُ سـحـابَ غـيـثٍ   يـجـود بـسـحِّـه بـلـدَ الـيـمـامـه

وحـيّـا بـالـسـلام أبـا نـجـيـدٍ   وأهـلاً لـلـتـحـيـة والـسـلامـه

قال الفرزدق: فأنست بها وقلت لها: أذات خدر أم ذات بعل؟ فقالت:

إذا رقـد الـنـيـامُ فـإن عَـمْـراً   لـكـالـقـمـر الـمـنـيـرِ الـمـسـتـنـيـرِ

ومـا لـي فـي الـتـبـعُّـل مـن مـرادٍ   ولـو ردَّ الـتـبـعُّـلُ لـي أسـيـري

ثم سكتت ذاهلة منصتة كأنها تسمع كلاماً، ثم أنشأت تقول:

تَخيَّلْ لي أيا عمرُو بنُ كعبٍ كأنكَ قد حُمِلتَ إلى السريرِ
فإن تك هكذا يا عمرُو إني مبكِّرةٌ عليك إلى القبور

ثم شهقت شهقة فماتت فتصارخ النساء، وسألت عنها فقيل إنها عقيلة بنت الضحاك بن النعمان بن المنذر، وسألت عن عمرو فقيل لي إنه ابن عمها كان يحبها وتحبه، فلما دخلت إلى اليمامة سألت عن عمرو، فإذ به قد مات في ذلك الوقت من ذلك اليوم الذي ماتت فيه محبوبته عقيلة رحمهما الله تعالى.

** ومنهم ما أخبر به ابن الأشدق قال: كنت أطوف بالبيت عام حججت، فرأيت شاباً تحت الميزاب، قد أدخل رأسه في كسائه، وهو يئن كالمحموم، فسلمت فرد السلام ثم قال: من أين؟ قلت: من البصرة، قال: أترجع إليها؟ قلت: نعم، قال: لي إليك حاجة، قلت: ما هي؟ قال: إذا دخلت النباج فاخرج إلى الحي ثم ناد: يا هلال يا هلال، تخرج إليك جارية فتنشدها هذا البيت:

لقد كنتُ أهوى أن تكونَ منيَّتي بعينيكِ حتى تنظري مَيّتَ الحبِّ

ومات مكانه، فلما دخلت النباج أتيت الحي فناديت: يا هلال يا هلال، فخرجت إليَّ جارية لم أرَ أحسن منها وقالت: ما وراءك؟ قلت: شاب بمكة أنشدني هذا البيت وقرأته عليها، قالت: وما صنع؟ قلت: مات، فخرت مكانها ميتة.

** ومنهم ما رواه ابن السائب الكلبي قال: كان بالمدينة المنورة رجل من ولد عبد الرحمن بن عوف، وكان شاعراً، وكانت عنده ابنة عم له وكان لها عاشقاً وبها مستهتراً، فضاق ضيقة شديدة، وأراد المسير إلى هشام بن عبد الملك بالرصافة، فمنعه من ذلك ما كان يجد من حبها وكره مفارقتها، فقالت له يوماً وقد بلغ منها الضيق غاية: يا بن عمي ألا تأتي الخليفة لعل الله تعالى أن يقسم لك منه رزقاً فتكشف به بعض ما نحن فيه من الضيق.

فلما سمع ذلك منها نشط للخروج، فتجهز ومضى، حتى إذا كان من الرصافة على أميال خطر ذكرها بقلبه، وتمثلت له كأنها بين عينيه، فلبث ساعة كالمغمى عليه ثم أفاق، ثم قال للجمال: احبس احبس، فحبس إبله فأنشأ يقول:

بينما نحن في بلاكسَ فالقا ... عِ سِراعاً والعيسُ تهوي هُوِيّا

خطرتْ خطرةٌ على القلب من ذِكْـ ... ـراكِ وَهْناً فما أطقتُ مُضيّا

قلتُ لبَّيكِ إذ دعاني لكِ الشَّوْ ... قُ وللحادين رُدّا المطيّا

فكررنا صدورَ عِيسٍ عِتاقٍ ... مُضمراتٍ طُوينَ بالسير طيّا

ذاك مما لقينَ من دَلَجِ السَّيْـ ... ـرِ وقولِ الحُداةِ بالليل هَيّا

ثم قال للجمال: ارجع بنا، فقال له: سبحان الله قد بلغت طلبتك هذه أبيات الرصافة، فقال: والله لا تخطو خطوة إلا راجعة، فرجع حتى إذا كان من المدينة المنورة على قدر ميل لقيه بعض بني عمه فأخبره أن امرأته قد توفيت، فشهق شهقة وسقط عن ظهر البعير ميتاً.

** ومنهم عروة بن حزام، قال النعمان بن بشير الأنصاري: وليت صدقات

بني عذرة، فدفعت إلى فتى تحت ثوب فكشفت عنه، فإذا رجل لم يبق منه إلا رأسه، فقلت: ما بك؟ فقال:

كأنَّ قطاةً عُلِّقتْ بجناحها على كبدي من شدّة الخفقانِ
جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حكمَه وعرافِ نجدٍ إن هما شفياني

ثم تمطى حتى ملأ منه الثوب الذي كان فيه ثم خمد فإذا هو قد مات، فأصلح من شأنه وصلينا عليه، فسألت عنه فقيل لي: هذا عروة بن حزام يعشق ابنة عمه.

** ومنهم ابن قطن، قال أبو حمزة: رأيت مع محمد بن قطن الصوفي غلاماً جميلاً، فكانا لا يفترقان زمناً طويلاً، فمات الغلام وكمد عليه محمد بن قطن حتى عاد جلداً وعظماً، فرأيته يوماً وقد خرج إلى المقابر، فاتبعته فوقف على قبره قائماً يبكي، وينظر إليه والسماء تمطر، فما زال واقفاً من وقت الضحى إلى أن غربت الشمس، ولم يجلس ويده على خده، فانصرفت عنه وهو كذلك، ورجعت إليه من الغد لأعرف خبره، فصرت إلى القبر فإذا هو مكبوب لوجهه ميت على القبر، فدعوت أصحابنا فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه بجانب القبر.

** ومنهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية، كان يعشق جارية من أهل مكة، فنذر به أهلها فهرب إلى الحيرة، ولحق بالنعمان بن المنذر فاعتل هناك، وجمع له النعمان الأطباء فعالجوه بالكي فارتاح، وبقي مدة ثم قدم عليه رجل من مكة فقال له: ما فعلت فلانة؟ قال: تزوجت، فشهق ومات في مكانه.

** ومنهم الشيخ مدرك الشيباني، فإنه مات وجداً وغراماً من حب عمرو النصراني، وتقدم خبره في الباب الخامس عشر.

** ومنهم علي بن زريق الكاتب البغدادي وزوجته، وذلك أن علي بن زريق كان له ابنة عم متزوج بها، وكان يحبها حباً شديداً وهي تحبه أشد منه، فأصابته فاقة عظيمة وشدة، فلزمه الحال إلى أن يرتحل من بغداد ويقصد أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي.

ففارق ابنة عمه وتوجه إلى الأندلس، وامتدح عبد الرحمن بقصيدة بليغة، فأجازه عبد الرحمن بجائزة زهيدة لا يمكنه أن يرجع بها إلى ابنة عمه، فاغتم لذلك غماً شديداً، وازداد همه وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، سلكت البراري والقفار وجزت السهول والأوعار، وقاسيت لجج البحار آناء الليل وأطراف النهار، حتى أتيت إلى هذا الرجل المغيار، فأعطاني هذا المقدار الذي لا يفيدني ولا يبلغني بعض الأوطار.

فانكسرت نفسه وازداد همه، وتذكر ابنة عمه ومحبته لها وما كانا عليه من النعيم والتمتع، وتصور ثقل المشقة وبعد المسافة التي بينها وبينه، وتأكد عدم الحصول على مناه فازداد هماً وغماً، ومرض شوقاً وانتحل قهراً وأسفاً، ومات بعد أيام رحمه الله تعالى من شدة العشق والغرام والحزن على فراق ابنة عمه.

ثم بعد أيام تذكره عبد الرحمن الأندلسي المذكور، وسأل عنه في الخان الذي كان نازلاً به، فأخبره صاحب الخان بأنه توفي إلى رحمة الله تعالى، وأنهم وجدوا تحت وسادته التي مات عليها هذه القصيدة بخطه، ودفعها صاحب الخان إلى عبد الرحمن المذكور، وهي هذه:

لا تعذليه فإن العذلَ يُولعُهُ   قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعُهُ
جاوزتِ في لومه حدّاً أضرَّ به   من حيث قدَّرتِ أن اللومَ ينفعه
فاستعملي الرفقَ في تأنيبه بدلاً   من عُنفه فهو مُضنى القلبِ مُوجعه
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله   فضُلِّعَتْ لخطوب البينِ أضلعه
يكفيه من لوعة التشتيتِ أن له   من النوى كلَّ يومٍ ما يُروِّعه
ما آبَ من سفرٍ إلا وأزعجَه   رأيٌ إلى سفرٍ بالرغم يجمعه
تأبى المطامعُ إلا أن تُجشِّمَه   للرزق كدّاً وكم ممن يُودِّعه
كأنما هو في حِلٍّ ومرتحلٍ   مُوكّلٍ بفضاء الأرض يذرعه
إذا الزمانُ أراه في الرحيل غِنىً   ولو إلى السِّنْدِ أضحى وهو يُزمعه
وما مجاهدةُ الإنسان واصلةٌ   رزقاً ولا دعةُ الإنسان تقطعه
قد قَسَّمَ اللهُ بين الخلق رزقَهمُ   لم يخلق اللهُ من خَلْقٍ يُضيِّعه
كأنهم مُلئوا حرصاً فلست ترى   مُسترزقاً وسوى الغاياتِ تُقنعه
والحرصُ في الرزق والأرزاقُ قد قُسِمتْ   بغيٌ ألا إن بغيَ المرءِ يصرعه
والدهرُ يعطي الفتى من حيث يمنعه   دأباً ويمنعه من حيث يُطمعه
أستودعُ اللهَ في بغدادَ لي قمراً   بالكرخ من فَلك الأزرارِ مَطلعه
وَدَّعته وبودّي لو يُودِّعني   طيبُ الحياةِ وأني لا أودِّعه
كم قد تشفَّعَ أني لا أفارقه   وللضروراتِ حالٌ لا تُشفِّعه
وكم تشبَّثَ بي يومَ الرحيل ضُحىً   وأدمعي مُستهلّاتٌ وأدمعُه
لا أَكذب اللهَ ثوبُ العذرِ منخرقٌ   عني بفرقته لكنْ أُرقِّعه

رُزقتُ مُلْكاً فلم أُحسنْ سياستَه كذاك من لا يسوس الملكَ يخلعه
ومن غدا لابساً ثوبَ النعيم بلا شكرٍ عليه فإن اللهَ ينزعه
إني أُوسِّع عذري في جنايته بالبين عني وجُرمي لا يوسِّعه
كم قائلٍ لك ذنبُ البينِ قلتُ له الذنبُ واللهِ ذنبي لستُ أدفعه
ألا أقمتُ مكانَ الرشدِ أجمعه لو أنني حين بانَ الرشدُ أتبعه
واللهِ ما وقعتْ عيني على بلدٍ في سفرتي هذه إلا وأقطعه
ما اعتضتُ عن وجه من لي عند فرقتهِ كأساً أُجرَّع منها ما أُجَرَّعه
يا من أُضيِّع أيامي وأنفدها حزناً عليه وليلي لستُ أهجعه
لا يطمئنّ لجنبي مَضجعٌ وكذا لا يطمئنُّ له مذ غبتُ مضجعُه
ما كنتُ أحسب أن الدهرَ يفجعني به ولا خِلتُ بي الأيامُ تَفجعه
حتى جرى الدهرُ فيما بيننا بيدٍ عسراءَ تمنعني حظّي وتمنعه
وكنتُ من رَيْب دهري خائفاً قلقاً فلم أُوَقَّ الذي قد كنتُ أجزعه
بالله يا منزلَ القصفِ الذي درستْ أيامُه وعفتْ مذ بِنتُ أربعه
هلِ الزمانُ معيدٌ فيكِ لذَّتنا أمِ الليالي التي أمضتْه تُرجعه
في ذمة اللهِ من أصبحتُ منزلَه وجاد غيثٌ على مَغناك يُمرعه
من عنده ليَ عهدٌ لا يضيع كما عندي له عهدُ صدقٍ لا أُضيِّعه
ومن يُصدِّع قلبي ذكرُه وإذا جرى على قلبه ذكري يُصدِّعه
لأصبرنَّ لدهرٍ لا يمتّعني به ولا بيَ في حالٍ يُمتِّعه
علماً بأن اصطباري مُعقبٌ فرجاً فأضيقُ الأمرِ إن فكَّرتَ أَوسعه

عسى الليالي التي أضنتْ بفرقتنا قلباً ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن ينل أحدٌ منا منيَّتَه فما الذي بقضاء الله يصنعه

فلما قرأ عبد الرحمن هذه القصيدة بكى حتى خضب لحيته بدمعه تأسفاً على ما فات منه وحزناً على ابن زريق وقال: وددت لو أن هذا الرجل كان باقياً على قيد الحياة فأشاطره ملكي وأبلغه مناه ولكن لا رجوع لفائت.

وكان ابن زريق قد كتب في الرقعة تحت القصيدة اسمه ومنزله ببغداد في الكرخ بموضع كذا وأن قومه يعرفون بكذا، فأرسل إليهم عبد الرحمن المذكور خمسة آلاف دينار، وكتب إليهم كتاباً أعلمهم فيه بموته، فلما سمعت ابنة عمه بموته ماتت في الحال ولحقت به رحمهما الله وأسكنهما فسيح جنانه بكرمه وإحسانه آمين.

** ومن ذلك، كانت بالمدينة المنورة قينة من أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً، فوقعت عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه، فقال لها ذات يوم: ويحك أما لك قرابة أو أحد يحسن أن أصطنعه أو أسدي إليه معروفا؟ فقالت: يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاتي، وإني أحب أن ينالهم من خير ما صرت إليه.

فكتب اليزيد إلى عامله بالمدينة أن يشخصهم له، وأن يعطي كل رجل منهم عشرة آلاف درهم، وأن يعجل بإرسالهم إليه، ففعل عامل المدينة ذلك، فلما وصلوا إلى باب يزيد أذن لهم بالدخول وأكرمهم، ثم سألهم حوائجهم، فأما اثنان منهم فذكرا حاجتهما فقضاها لهما، وأما الثالث حين سأله عن حاجته فقال: ليست لي حاجة يا أمير المؤمنين، قال: ويحك ألست أقدر على قضاء

حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتي لا أحسبك تقضيها، قال: ويحك فسلني والله لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها لك، قال: ولي الأمان يا أمير المؤمنين، قال: نعم وكرامة، قال: إن رأيت أن تأمر جاريتك فلانة التي أكرمتنا لها أن تغنيني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل، فتغير وجه يزيد وقام من مجلسه، ودخل على الجارية وأعلمها، فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين في ذلك.

فلما كان من الغد أمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسي من ذهب، فقعد يزيد على أحدها وقعدت الجارية على الآخر، وقعد الفتى على الثالث، ثم دعا بالطعام فتغدوا جميعاً، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت، ثم قال للفتى: قل ما بدا لك وسل حاجتك، قال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني:

لا أستطيع سُلوّاً عن مودّتها ... أو يصنع الحبُّ بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيُسعدني ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نزعا

فأمرها فغنت، فشرب يزيد وشرب الفتى ثم شربت الجارية، ثم أمر يزيد بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك، قال: تأمرها أن تغني:

تخيَّرتُ من نعمانَ عودَ أراكةٍ ... لهندٍ ولكن من يُبلِّغه هندا
ألا عرِّجا بي باركَ اللهُ فيكما ... وإن لم تكن هنداً لأرضكما قَصْدا[1]

فغنت بهما وشرب يزيد ثم الفتى ثم الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك، قال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغني:

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «بلغ».

منـا الـوصـالُ ومنكـمُ الهجـرُ   حتـى يـفـرِّقَ بيننـا الدهـرُ
واللهِ مـا أسلوكـمُ أبـداً   مـا لاح نجـمٌ أو بـدا فجـرُ

فغنت بهما، فلم تأت على آخرهما حتى خرَّ الفتى مغشياً عليه، فقال يزيد للجارية: أنظري ما حاله؟ فقامت إليه وحركته فإذا هو ميت، فقال لها: إبكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي، فقال: إبكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك فبكته، وأمر بجهاز الفتى ودفنه.

** ومن ذلك، قال أبو سمرة: دخلت دار نخاس في شراء جارية، فسمعت في بيت بإزاء البيت الذي كنت فيه صوت جارية وهي تقول:

وكنـا كـزوجٍ مـن قطـاً فـي مفـازةٍ   لدى خفضِ عيشٍ مُعجبٍ مُونقٍ رَغْدِ
أصابهمـا ريـبُ الزمـانِ فـأفردوا   ولـم نَـرَ شيئاً قـطُّ أوحـشُ من فرد

فقلت للنخاس: إعرضْ عليَّ هذه الجارية المنشدة، فقال: إنها شعثة مرهاء حزينة، فقلت: ولم ذلك؟ قال: اشتريتها من ميراث فهي باكية على مولاها، ثم لم ألبث أن أنشدت:

وكنـا كغصنَيْ بانـةٍ وسـطَ روضـةٍ   نشمّ جنى الروضاتِ في عيشةٍ رغدِ
فـأَفـردَ هـذا الغصنَ مـن ذاك قاطعٌ   فيـا فـردةً باتـت تحـنّ إلـى فـردِ

قال أبو السمراء: فكتبت إلى عبد الله بن طاهر أخبره بخبرها، فكتب إليَّ أن ألق عليها هذا البيت، فإن أجابت فاشترها ولو بخراج خراسان، والبيت:

بَـعـيـدُ وصـلٍ قـريـبُ صَـدٍّ   جـعـلـتُـه مـنـه لـي مـلاذا

قال: فألقيته عليها، فقالت في سرعة:

وعــاتــبــوه فــــذابَ عـشـقـاً ومــات وجــداً فــكــان مــاذا

قال: فاشتريتها بألف دينار، وحملتها إليه فماتت في الطريق قبل أن تصل إليه، فكانت إحدى الحسرات عليه.

** ومن ذلك، قال ابن سيرين: نظر عبد الله بن عجلان إلى هند بنت كعب بن عمر فعشقها، وازداد ولهه وغرامه بها، فمرض مرضاً شديداً وضني حتى بلغ النهاية، ولم يدر أهله ما به، وقد عجزوا عن مداواته، فدخلت عليه عجوز فقالت: إن صاحبكم عاشق، فاذبحوا له شاة وآتوه بكبدها وغيبوا عنه فؤادها، فإن سأل عنه فعاشق وإلا فلا، قال: ففعلوا وأتوه بالشاة، فجعل يرفع بضعة ويضع أخرى ويقلب، ثم قال: أما لشاتكم قلب؟ فقال أخوه: ما أراك إلا عاشقاً ولم تخبرنا، فقال: آه ومات في الحال، ويأتي من هذا النوع في باب النوادر والحكايات إن شاء الله تعالى.

** سمع ابن المعتز رجلاً يُنشد قول الشاعر:

مساكينُ أهلُ العشقِ حتى قبورُهم عليها تـرابُ الـذلِّ بيـن المقابرِ

فقال: لعن الله صاحب هذا الشعر البارد، لا والله ما أذل الله تراب قبر عاشق قط، بل أجله وشرفه ونضره وحسنه، وقال:

مـررتُ بقبرٍ مُشـرقٍ وسـطَ روضـةٍ عليه مـن الأنـوار مـثـلُ الـشـقـائـقِ
فـقـلـتُ لـمـن هـذا فـقـال لـيَ الثرى تــرحَّــمْ عــلـيـه إنـــه قــبــرُ عــاشــقِ

الباب الثامن عشر في من عشق جاريته أو غلامه

كثير من الظرفاء والأدباء وأرباب القلوب الرقيقة والأرواح اللطيفة قد عشقوا جواريهم وغلمانهم، وشغفوا بحبهم وتعلقوا بودهم، وليس هذا عيباً أو دناءة، بل هذا من رقة الطبع وخفة الروح، فمن الذين عشقوا جواريهم وتعلقوا بحبهم هارون الرشيد، فإنه عشق مرة جاريته محبوبة، وعشق مرة جاريته مارية كما سيأتي بيانه، وقال هارون الرشيد في ذلك من قصيدة:

ملكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني ... وحللنَ من قلبي بكل مكانِ
مالي تطاوعني البريةُ كلُّها ... وأطيعهنَّ وهُنَّ في عصياني
ما ذاك إلا أنّ سلطانَ الهوى ... وبه قوينَ أعزُّ من سلطاني

** وقال هارون الرشيد أيضاً في جارية له كان مغرماً بها:

تُبدي صدوداً وتُخفي تحته مِقَةً ... فالنفسُ راضيةٌ والطرفُ غضبانُ
يا من وضعتُ له خَدّي فذَلَّ له ... وليس فوقي سوى الرحمنِ سلطانُ

** وقال المأمون في جاريته لما شغف بحبها:

كنتُ حُرّاً هاشمياً ... فاسترقَّتني الإماءُ
أنا مملوكٌ لمملو ... كي وتحتي الأمراءُ

** ومنهم عبد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل، لما نفاه المتوكل إلى جزيرة أقريطش[١] تمتع بجارية بارعة في الجمال، وقد أنسته ما كان فيه من رياسة الوزارة بلطفها وكمالها، وكان قبل ذلك متيماً بجارية له خلفها بالعراق وأسلته عنها الأقريطيشية، حتى صار يحلف لها أنه لا يفارق البلد ما عاش إكراماً لها ومحبة فيها.

وبينما هو ذات يوم في سروره وإذا بكتاب أتاه من جاريته الأولى من العراق مكتوب فيه:

كيف بَعدي لا ذقتمُ النومَ أنتم   خَبِّروني مذ بِنتُ عنكم وبنتمْ
بمراضِ الجفونِ من خُرَّد العيـ   ـنِ وورد الخدودِ بعدي فُتِنتم
يا أخلّايَ إن قلبي وإنْ با   نَ من الشوق عندكم حيث كنتم
فإذا ما أبى الإلهُ اجتماعاً   فالمنايا عليَّ وحدي وعشتم

فلم يباشر لذة بعد كتابها حتى رضي عنه المتوكل وعاد إليها على أحسن حال.

** ومن ذلك كانت جارية لابن رجاء الكاتب يحبها وتحبه، فأخذها الخليفة المعتز بالرغم عنه، فشرب معها الخليفة في بعض الليالي فسكر قبلها ونام، فبقيت وحدها ولم تبرح من المجلس هيبة منه، فتذكرت ابن رجاء وأيامها معه وما كان يجري بينهما من المداعبة، فأخذت العود وغنت عليه بصوت حزين وقلب قريح هذه الأبيات:

(١) «اقريطش» هي جزيرة «كريت» اليوم في البحر المتوسط.

لا كـان يـومُ الـفـراقِ يـومـا لـم يُـبـقِ لـلـمـقـلـتـيـن نـومـا
شـتَّـتَ مـنـي ومـنـك شـمـلا فـسـرَّ قـومـاً وسـاء قـومـا
يـا قـومُ مـن لـي بـوجـد قـلـبٍ يـسـومـنـي فـي الـعـذاب سَـوْمـا
مـا لامـنـي الـنـاسُ فـيـه إلا بـكـيـتُ كـيـمـا أُزادُ لـومـا

فلما فرغت من صوتها رفع المعتز رأسه إليها ودمعها يتساقط كعقد منفرط، فاستقصاها عن خبرها وحلف لها أن يبلغها أملها، فأعلمته بحبها لسيدها وحب سيدها لها، فردها إليه وأحسن إليهما.

** وقال صفي الدين الحلي في مملوكه:

وظـبـيٌّ مـن بـنـي الأتـراكِ طـفـلٌ أتـيـه بـه عـلـى جَـمْـع الـرفـاقِ
أُمـلِّـكـه قِـيـادي وهـو رِقّـي وأفـديـه بـعـيـنـي وهـو سـاقـي

** ومنهم يزيد بن عبد الملك، فإنه كلف بجاريته حبابة واشتغل بها وهام في حبها وأضاع الرعية، حتى أنه دخل عليه أخوه مسلمة وقال له: يا أمير المؤمنين تركت الظهور للعامة والشهود للجمعة، واحتجبت مع هذه الأمة، فارعوِ عما أنت فيه واظهر للناس، فبعثت حبابة إلى الأحوص أن يقول أبياتاً يهونَ بها على يزيد ما قال مسلمة، فقال الأحوص:

ألا لا تـلـمْـه الـيـومَ أن يـتـبـلَّـدا فـقـد مُـنِـعَ الـمـحـزونُ أن يتجلَّدا
إذا أنتَ لم تعشقْ ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخرِ جلمدا
هـل الـعـيـشُ إلا مـا تـلـذّ وتشتهي وإن لام فـيـه ذو الـشَّـنـانِ وفَـنَّـدا

فلحنتها حبابة وغنت بها اليزيد، فلما سمعها ضرب بجرانه الأرض وقال: صدقت صدقت، على مسلمة لعنة الله، ثم عاد إلى سيرته الأولى.

❊❊ وكان يزيد هذا مغرماً بجاريته المذكورة غراماً زائداً، حتى لما أنها توفيت أكب عليها أياماً يترشفها ويتشممها إلى أن أنتنت، فقام عنها وأمر بجهازها، ثم خرج في جنازتها إلى أن دفنها ونزل بنفسه في قبرها، ثم انصرف، وصار أخوه مسلمة يعزيه ويسليه، فقال يزيد: قاتل الله ابن أبي جمعة حيث يقول:

فإن تسلُ عنك النفسُ أو تدعِ الهوى فباليأسِ تسلو عنك لا بالتجلُّدِ
وكلُّ خليلٍ زارني فهو قائلٌ مِنَ اجْلك هذا هامةُ اليوم أو غدِ

ودفن بعد دفنها بسبعة عشر يوماً، وقيل أنه طعن في جنازتها.

❊❊ ومنهم سليمان بن عبد الملك أخو اليزيد، كان مغرماً بحب جاريته ذلفاء، ويترنم فيها بقول الشاعر:

إنما الذلفاءُ ياقوتةٌ أُخرجتْ من كيس دهقانِ

وأمر سليمان أن يُضرب له فسطاط على دهناء الغوطة أيام الربيع للتنزه، فضرب له في روضة غناء مونقة خضراء، يحفها أنواع الزهر من كل جانب والمياه نافذة إليها من جميع الجوانب، وكان لسلمان مغن ونديم وسمير يُقال له سنان، وكان يأنس به ويسكن إليه، فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه.

ثم أن سليمان أخرج معه الذلفاء إلى ذلك المنتزه لشغفه بها وتعذر صبره عنها، فلم يزل سنان المغني عند سليمان في أكمل سرور وأتم حبور إلى أن

أقبل الليل فانصرف إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: قِرانا أصلحك الله، قال لهم: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع، فقال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه إياي عنه إلا في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا، قال لهم: فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه، قالوا: غننا صوت كذا، فرفع عقيرته يغني بهذه الأبيات:

محبوبةٌ سمعتْ صوتي فأَرَّقها ... في آخر الليل لما ظلَّها السَّحَرُ
تثني على الخدّ منها من مُعصفرةٍ ... والحَلْيُ بادٍ على لَبّاتها خَضِر
في ليلة التمِّ لا يدري مُضاجعُها ... أوجهُها عنده أبهى أم القمرُ
لم يحجبِ الصوتَ أحراسٌ ولا غَلَقٌ ... فدمعُها لطروق الصوتِ منحدر
لو خُلِّيتْ لمشتْ نحوي على قدمٍ ... يكاد من لينه للمشي ينفطر

فسمعت الذلفاء صوت سنان وقد نام سليمان، فخرجت إلى وسط الفسطاط تستمع، وكانت مغرمة بحب مولاها الذي باعها ليزيد، فجعلت لا تسمع شيئاً من خلق ولطافة وإشارة إلا وقد وافق المعنى الذي في ضميرها من نعت الليل واستماع الصوت، فحرك ذلك ساكنها وأشعل ما في قلبها، فهمت عيناها بالدموع وعلا شهيقها، وانتبه سليمان فلم يجدها عنده، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

ألا رُبَّ صوتٍ رائعٍ من مُشوَّهٍ ... قبيحِ المحيا واضعِ الأبِ والجدِّ
يروعك منه صوتُه ولعله ... إلى أَمةٍ يُعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، والله لقد خامر قلبك منه ما خامر، يا غلام عليَّ بسنان، فدعت الذلفاء خادماً لها وقالت: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فتحذره ولك عشرة آلاف درهم وأنت حر لوجه الله، فخرج الرسول وسبقه رسول أمير المؤمنين.

فلما أتى به قال: يا سنان ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملني الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغذي نعمته، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يضيع حظه من عبده فليفعل، قال سليمان: أما حظي منك فلن أضيعه، ولكن ويلك أما علمت أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأة إليه، كما إن الفرس إذا صهل تَودَّقت له الحصان، وإن نَبَّ التيس استحرمت له الشاة، إياك والعود إلى ما كان منك يطول غمك.

** ومن ذلك، كان هارون الرشيد يعشق جاريته محبوبة ويحبها حباً شديداً، فغاضبته يوماً فهجرها مدة ومنع أهل القصر من كلامها، فمكثت على تلك الحالة مترفعة عن مصالحته لما تعلم من مكانتها عنده وحبه لها، وإذا به في ليلة من الليالي رآها في نومه كأنها صالحته، فقام من نومه مشوش الفكر وقد تجدد عليه الغرام بها، وازداد شغفه عليها واشتاق إلى مواصلتها.

وهو على هذه الحالة إذ دخلت عليه وصيفة وقالت له: قد سمعت يا أمير المؤمنين غناءً في حجرة محبوبة، فقام مغضباً ومشى حتى انتهى إلى باب حجرة محبوبة، ووقف خلف الباب يستمع، فإذا هي تغني بهذه الأبيات:

أدور في القصر لا أرى أحداً   أشكو إليه ولا يكلِّمني

حتى كأني أتيتُ معصيةً ليس لها توبةٌ تُخلِّصني
فهل لنا شافعٌ إلى مَلِكٍ قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباحُ لاح له عاد إلى هجره وصارَمني

فطرب الرشيد عند سماع ذلك، وتعجب من هذا الاتفاق الغريب، فلما أحست به محبوبة خرجت من الحجرة وأكبت على قدميه تقبلهما وتقول: والله يا سيدي رأيت هذه الهيئة البارحة في النوم فانتبهت مشغوفة فقلت هذا الشعر ولحنته بالليل، فأصبحت ولم أملك نفسي أن غنيته، فقال لها: وأنا رأيت مثل ذلك في المنام، ثم أقام عندها يومه وليلته.

❊❊ ومنهم خوارزم شاه، عشق مملوكه قلج واشتد غرامه به، فلما مات منع من دفنه، وصاروا يحملونه له معهم في محفة، وكلما حضر بين يديه طعام قال: احملوا هذا إلى قلج، فقال له بعض الأمراء يوماً: أيها الملك قد مات قلج، فأمر بضرب عنقه.

❊❊ ومنهم ابن دأب، كان قد عشق جارية لأخته، وكان سبب عشقه إياها أنه رآها في المنام فأصبح عقله مستطاراً وقلبه ساهياً، فلم يزل كذلك حيناً ولا يزداد إلا حباً ووجداً، حتى أنكر ذلك أهله وارتابوا مما أصابه، وأعلموا عمه عما اعتراه من الوسواس والسقم، فسأله عن حاله فلم يقر له بشيء، وقال: علة أجدها في جسمي لا غير، فدعا له أطباء الروم فعالجوه بضروب من العلاج، فلم يزده العلاج إلا شرا، وامتنع عن الطعام والكلام.

فلما رأوا ذلك منه أجمعوا على أن يوكلوا به امرأة تسقيه الخمر، حتى يبلغ

منه دون السكر فتستفسره عن سبب مرضه، لأن ذلك يدعوه إلى الكلام والبوح بما في نفسه، فعزم رأيهم على ذلك، وأعلموا عمه عما اتفقوا عليه، فبعث إليه بقينة يُقال لها حمامة، ووكل به حاضنة كانت له، فلما أن شرب الفتى وغنت الجارية أمامه أنشأ يقول:

دعوني لما بي وانهضوا في كلاءةٍ   من الله قد أيقنتُ أنْ لستُ باقيا
وأن قد دنا موتي وحانت منيتي   فقد جلبتْ عيني عليَّ الدواهيا
أموت بشوقٍ في فؤادي مُبرِّحٍ   فيا ويحَ نفسي من به مثلُ ما بيا

فذهبت الحاضنة والقينة إلى عمه وأخبرتاه الخبر، فاشتدت رحمته له، وتلطف في دس جارية من جواريه إليه، وكانت ذات أدب وعقل، فلم تزل تستخرج ما في قلبه حتى باح لها بالذي في نفسه، فصارت السفيرة فيما بينه وبين جارية أخته، وكثرت بينهما المراسلة، وانتشر الخبر وشاع، حتى علمت أخته بذلك فوهبتها له فبرئ من علته وأقام على أحسن حال لما اجتمع بها وصارت في حوزته.

** ومنهم الشيخ مهذب الدين ابن منير الطرابلسي، فإنه عشق مملوكه تتر، وقصته معه تقدمت في الباب الخامس من هذا الكتاب، وسيأتي في باب النوادر والحكايات شيء من هذا، يعني ممن عشق جاريته أو غلامه والله أعلم.

** ومما يحكى أن ابن وكيع كان يهوى غلاماً نصرانياً بتنّيس، فلامه بعض أصحابه عليه ولم يكن رآه ولا يعرفه، فاتفق من التصادف الغريب أن الغلام مر بهما في تلك الساعة، فلما رآه صاحب ابن وكيع استحسنه وقال:

لو عشقتَ هذا ما لمتك، ولم يعلم أنه محبوبه الذي لامه عليه، فقال ابن وكيع في الحال:

أبصرَه عاذلي عليهِ ولم يكن قبلَها رآهْ
فقال لي لو عشقتَ هذا ما لامك الناسُ في هواه
قل لي إلى من عذلتَ عنه فليس أهلُ الهوى سواه
فظلَّ من حيث ليس يدري يأمر بالحبّ من نهاه

فخجل صاحبه العاذل له ومضى معتذراً من لومه وتعنيفه.

وقال عفيف الدين التلمساني:

ولي على عاذلي حقوقُ هوىً شكري عليها ببعضها يجبُ
لامَ فما رآه هامَ بهِ فكنتُ في عشقه أنا السببُ

وقال محمد ابن العفيف التلمساني المذكور:

أسرفتَ في اللوم ولم تقتصرْ وزدتَ في لومك يا ذا العذولْ
قد رضيتْ نفسي بمحبوبها وإنما المولى[1] كثيرُ الفضولْ

وقال آخر:

قد اجتهدَ اللاحي وجاء يلومني وزخرفَ لي زُورَ الكلام بمَيْنِهِ
وقالَ اسْلُ عن هذا وعُدْ عن غرامهِ فقلتُ له هذا الفضولُ بعينهِ

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «أنت».

وقال شيخ الشيوخ الحموي:

زعموا أنني هويتُ سواكم كذبوا ما عرفتُ إلا هواكم
قد علمتم بصدق مُرسَلِ دمعي فسلوه إن كان قلبي سلاكم
قال لي عُذَّلي متى تُبصرِ الرُّشْـ ـدَ وتسلو فقلتُ يومَ عَماكم

وقال أيضاً:

من مُنصفي من عاذلٍ جاهلٍ يخون باللوم لمن لا يخونْ
إن قلتُ ما نصحُكَ إلا أذىً قال وما عشقُكَ إلا جُنونْ

وقال آخر:

يقول لي العاذلُ في لومهِ وقولُه زُورٌ وبهتانُ
ما وجهُ من أحببتَه قِبلَةٌ قلتُ ولا قولُكَ قرآنُ

وقال الشيخ جمال الدين ابن نباتة:

أيها العاذلُ الغبيُّ تَأمَّلْ من غدا في صفاته القلبُ ذائبْ
وتعجَّبْ لطُرّةٍ وجبينٍ إنّ في الليل والنهار عجائبْ

وقال نور الدين الإسعردي:

أقول لعاذلي لما نهاني وقد وجد المقالةَ إذ جفاني
علمتَ بأنه مُرُّ التجنّي وفاتكَ أنه حُلوُ اللسانِ

وقال محمد بن شرف القيرواني:

قل للعذول لوِ اطَّلعتَ على الذي عاينتَه لعناكَ ما يَعنيني
أتصدُّني أم للغرام تَردُّني وتلومني في الحبّ أم تُغريني
دعني فلستُ مُعاقَباً بجنايتي إذ ليس دينُكَ في المحبة ديني

وقال ابن نباتة:

يا من إذا باعتِ الأبصارُ أسودَها بحبّةٍ فوق خَدّيه فقد ربحتْ
يزيدني العذلُ تبريحاً ألذُّ بهِ فليت عُذّالَ قلبي فيكَ لا برحتْ

وقال الشيخ صدر الدين ابن الوكيل:

أخفيتُ حبَّك عن جميع جوارحي فوشتْ عيوني والوشاةُ عيونُ
ووددِتُ أنّ جوانحي وجوارحي مُقَلٌ تَراكَ وما لهنَّ عيون
يا ليتَ قيساً في زمان صبابتي حتى أُريه العشقَ كيف يكون

وقال آخر:

لافتضاحي في عوارضهِ سَببٌ والناسُ لُوّامُ
كيف يَخفى ما أكابدهُ والذي أهواه نَمّامُ

وقال آخر:

ومجلسٌ راقَ من واشٍ يُكدِّره ومن رقيبٍ له باللوم إيلامُ
ما فيه ساعٍ سوى الساقي وليس بهِ بين الندامى سوى الريحانِ نَمّام

وعكس المعنى وخالف الجمهور ومدح النمام ابن رشيق وقال:

لِمْ كرهَ النَّمّامَ إخوانُنا ... أساءَ إخواني وما أحسنوا
إن كان نَمّاماً فمعكوسُه ... من غير تكذيبٍ لهم مأمنُ

وقال آخر:

أحبُّ العذولَ لتكرارهِ ... حديثَ الحبيبِ على مسمعي
وأهوى الرقيبَ لأن الرقيبَ ... يكون إذا كان حبي معي

....[1]

** .... وكانت تُسمى العالية، وقد دخل بها صاحبها على يزيد بن عبد الملك في أيام خلافة أخيه هشام[2]، وعليها إزار له ذنبان، وبيدها دف فغنته:

ما أحسنَ الجيدَ من مليكةَ والْـ ... ـلبّاتِ إذ زانها ترائبُها
يا ليتني ليلةً إذا هجعَ النْـ ... ـناسُ ونام النِيامُ صاحبُها
في ليلةٍ لا يُرى بها أحدٌ ... يسعى علينا إلا كواكبُها

فاشتراها بأربعة آلاف دينار، فبلغ ذلك أخاه فعزم على أن يحجر عليه فردها فاشتراها رجل من أفريقية، وقد تولعت بها نفس يزيد، وكان يزيد قد تزوج سعدى بنت عبد الله بن عثمان وربيحة بنت عبد الله بن جعفر، وأمهر كلاً منهما عشرين ألف دينار، ولم يزل كاتماً وجده حبابة.

---

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

(٢) والصواب أنه سليمان بن عبد الملك فإن خلافة هشام بن عبد الملك جاءت بعد يزيد بن عبد الملك» والحكاية مذكورة مشتهرة في كتب الأدب.

ولما أفضت إليه الخلافة أرسلت زوجته سعدى مولى لها في طلب حبابة، فبحث عنها فقيل له إنها بالمدينة فارتحل إلى المدينة وسأل عنها، فقيل له إنها بمصر، فمضى إليها فقيل له إنها بأفريقية، فمضى إليها حتى اجتمع بمولاها واستامها منه فامتنع عن بيعها، فأخبره بأن الخليفة بعثه لشرائها، وأنه إن لم يرض ببيعها يأخذها منه قهراً، فاشتراها منه بمائة ألف درهم.

ولما ارتحل بها مر بها على المدينة المنورة، فشيعها أناس من أهل المدينة وهم مائتا رجل وسألوها أن تزودهم صوتاً فأنشدت:

سلكوا بطنَ مخيضٍ ثم ولوا راجعينا
أورثوني حين وَلَّوا طولَ حزنٍ وأنينا

وكتبت أسماءهم عندها، ثم لما اتصلت بيزيد عرضتهم عليه فوهب لكل واحد منهم ألف درهم.

ولما وصل مولى سُعدى وقدمها إليها ألبستها حللاً ووهبتها جواهراً وطيباً وفرشت لها بيتاً جميلاً في قصرها وأجلستها فيه، ثم قالت للخليفة: قد وهبك الله الملك، فهل بقي عليك شيء؟ وهي تعلم ما في قلبه من حب حبابة، فقال: لا، فقالت: بل أنا أعلم فأخبرني عسى أن أوصلك إليه، فقال: العالية، يعني حبابة، فقالت: أوتعرفها إذا رأيتها؟ قال: نعم، فأخذت بيده حتى أدخلته عليها فسر بها وعظمت منزلة سعدى عنده.

ولما بلغ زوجته الأخرى ربيحة بنت عبد الله بن جعفر اشترت سلامة الزرقاء، وسلامة أيضاً جارية كانت لمدني علمها مولاها الغناء والشعر والأدب فبرعت واشتهرت، وكان قد رآها يزيد فوقعت في نفسه موقعاً عظيماً

فوهبتها له، فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال الشاعر:

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النّوى كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافرُ

وكانت حبابة أجمل نساء زمانها، وقد حوت اللطافة والشعر والأدب والغناء وضرب الآلات، وأخذت عن معبد وأم عوف وجميلة وغيرهم، وغنت يوماً:

لَعمرُكَ إنني لأحبّ سَلْعاً لرؤيتها ومن بجنوب سَلْعِ

وتنفست الصعداء، فقال لها يزيد: مالك وله؟ والله لو أردتِه لجئت به إليك حجراً حجراً، فقالت: وما أصنع به إنما أريد ساكنه.

واختلفت يوماً هي وسلامة في صوت لمعبد من شعر جرير، فأحضر يزيد معبداً ليحكم بينهما، ومعبد يعلم أن الخليفة إلى حبابة أميل، فلما حضر معبد عند الخليفة غنى قول كثير:

ألم يأنِ لي يا قلبُ أن أتركَ الهوى وأنْ يُحدِثَ الشيبُ الملمُّ ليَ العقلا
على حين صار الرأسُ منّيَ كلما علتْ فوقه نَدّافةُ العطبِ أغزلا
فيا عَزُّ إنْ واشٍ وشى بيَ عندكم فلا تُكرميه أن تقولي له أهلا
كما لو وشى واشٍ بودّكِ عندنا لقلنا تزحزحْ لا قريباً ولا سهلا
فأهلاً وسهلاً بالذي شدَّ وصلَنا ولا مرحباً بالقائلِ اصْرِمْ لنا حبلا

فطرب يزيد حتى جعل الوسادة على رأسه ودار في البيت وهو يقول: السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حيان، ثم بعد أن رجع إلى مجلسه ذكر لمعبد اختلاف حبابة وسلامة في الصوت وقص عليه ما جرى بينهما فقضى

معبد لحبابة، فقالت له سلامة: يا ابن الفاعلة تعلم أن الحق معي ولكن قضيت للمنزلة، فضحك يزيد وأحسن صلته.

وبقيا مدة في أرغد عيش إلى أن خطر ببال يزيد يوماً قول القدماء من الحكماء: إن السرور لم يصفُ لشخص يوماً كاملاً، فقال: ليس هذا بصحيح، فلا بد أن أجربه وأكذبهم فيه وأسر يوماً كاملاً، فدعا بحجّابه وأمرهم أن لا يدخلوا عليه أحداً ولا خبراً ولا قضية، ومهما يقع ويلزم إخباره به فلا يعرضوه عليه في ذلك اليوم، واحتجب مع حبابة في بستان له بالقرب من الغوطة، فلم يزالا في سرور وانشراح كعادتهما إلى أن انتصف النهار فضاحكها وهي تأكل رماناً فسبقت حبة من حب الرمان إلى حلقها مع الضحك، فشرقت بها فماتت في الحال فاشتد غم يزيد وحزنه عليها، وأقام أسبوعاً يرشفها ويضمها، ولم يمكن أحداً من دفنها حتى تغيرت، فدفنها بعد أن لامه الناس، ومات بعدها بسبعة عشر يوماً ودفن إلى جانبها، ولم يُعلم أن خليفة مات عشقاً غير يزيد هذا.

** وحكي أيضاً عن عبد الله بن جعفر أنه وجد بجارية له اسمها عمارة، وعشقها عشقاً شديداً، حتى كان لا يستطيع فراقها سفراً ولا حضراً، فقدم على معاوية سنةً من السنين لأخذ حقه، فزاره يزيد فغنت الجارية بحضرته فأخذت بمجامع قلبه وتمكن حبها من نفسه، وكان ذا دهاء فكتم أمرها.

فلما أفضت إليه الخلافة استشار أهل سره في أمرها، وأنه لا يهنأ له عيش ولا يقر له قرار دونها، فقالوا له: إن عبد الله بن جعفر له منزلة عند الناس عظيمة، وتعرف ما كان عليه مع أبيك، ولا نأمن عليك في ذلك قيام الناس فالزم المهلة واجتهد في الحيلة، فأخذ في تدبير ذلك حتى ظهر له رأي من

التحايل في إدراك غرضه، وذلك أنه أحضر ....[١]

** .... ثم غلب عليها البكاء، فنهضتُ وانتفضتُ وصرعتُ فنضحوا عليَّ الماء، وجلست فلم يزالوا يتلطفون بها حتى عادت وغنت:

فوقفتُ أُنشد بالذين أحبهم وكأن قلبي بالشِّفار يُقَطَّعُ
فدخلتُ دارَهمُ اسْأل عنهمُ والدارُ خاليةُ المنازلِ بلقعُ

فشهقت شهقة كادت تتلف بها ورمت العود من يدها، وصرعتُ أنا أيضاً فنضحوني بالماء وقالوا: كيف حملتم معكم مجنوناً؟ إطرحوه، فلحقني أمر عظيم، وتصبرت فلما أشرف القوم على جزيرة في بعض الطريق أوقفوا الزلال وهبطوا يتنزهون في الجزيرة، وخلا الزلال فغافلت من بقي معي فيه، وعمدت إلى العود وأصلحته على طريقة معروفة بيني وبينها، فلما رجعوا وكان الوقت مقمراً تلطفوا بها وقالوا: ترين ما نحن عليه في هذا الوقت، فبالله عليك إلا ما انشرحت معنا.

فأخذت العود وجسته فشهقت شهقة منكرة ثم قالت: هذا العود مصلوح على طريقة كان يحبها مولاي ويضرب بها معي، ولا بد أنه معنا الآن، فقال لها سيدها: والله لو كان معنا ما امتنعنا عن عشرته ليخف ما بك من القلق، فقالت: هو معنا لا محالة، فقال للملاحين: هل حملتم أحداً؟ فخفت أن ....[٢] وينقطع السؤال، فبادرت وقلت: أنا يا سيدي، فأحضرني وقربني من مجلسه وقال لي: والله إني ما وطئتها، وأنا رجل قد وسع الله عليَّ، وما أخذتها إلا لسماع غنائها،

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.
(٢) بياض في الأصل

فكن معنا إلى منزلنا فأنا أعتقها وأزوجك بها، ولا أريد منك إلا أن تحضرها كل ليلة وراء الستارة فنسمع غنائها وتنصرف، فقلت: كيف أمنع ذلك عنك وأنت سبب حياتي، فقال للجارية: أرضيت بذلك؟ قالت: نعم، وشكرته وزاد سرورها فجعلت تغني وأنا أقترح عليها الأصوات، فتضاعف سرور الرجل.

ودمنا على ذلك حتى بلغنا نهر معقل ليلاً ونحن ثملون وربطوا الزلال، فنزلت إلى البر لقضاء الحاجة، ولم يدر أحد من الجماعة بنزولي فأخذني النوم وحلوا الزلال مع الفجر وسافروا، وأما أنا فما أفقت إلا من حر الشمس فلم أجدهم وعدت إلى المحنة.

فجازني جماعة في سفينة سارية فنزلت معهم إلى البصرة، فدخلتها ولم أعرف بها أحداً، ولم أكن سألت الرجل عن اسمه ولا موضعه، فرأيت رجلاً بغدادياً ماراً فقمت لأشكو إليه حالي ففاتني فتبعته حتى دخل في دار فملت إلى بقال بجانب الدار، وأخذت منه ورقة ودواة لأكتب حالي إلى الرجل، فاستحسن البقال خطي واسترث حالي وسألني عنه، فلم أشرح له أكثر من أنه لم يبق في يدي شيء، فقال: هل لك أن تكتب عندي ولك في كل يوم نصف درهم وما تحتاج إليه فتضبط مالي، فأجبته وأقمت عنده، فرأى بعد شهر الزيادة بضبطي وحفظي ما كان يسرق له، فزاد في إكرامي ثم زوجني بابنته وأشركني في ماله.

غير أني في خلال ذلك منكسر النفس حزين القلب، فلما كان ذات يوم رأيت الناس مجتازين بأنواع الزينة، فسألت عن ذلك فقيل: عيد الشعانين للنصارى والناس تخرج للفرجة، فوقع في نفسي أن أخرج معهم وأن عسى أن أظفر بأصحابي، فاستأذنت الرجل فأصلح لي ما أحتاج إليه، وخرجت فما

وصلت إلى الشط إلا والزلال بعينه رأس إلى طرف البر، فلم أملك نفسي أن طرت إليه وعبرت.

فحين رأوني فرحوا بي وقالوا: نحن منذ فقدناك ما شككنا أنك غرقت، فخرجت الجارية من ثيابها وكسرت العود وجزَّت شعرها، فلما وصلنا البصرة خيرناها فيما تريد فاختارت لبس السواد وتمثيل قبر تجلس عنده تبكي، ثم أخذوني وأدخلوني عليها وهي على تلك الحالة، فلما رأتني شهقت شهقة ما شككت في موتها، فلما أفاقت قال مولاها: قد وهبتها لك، فقلت: لا ولكن إفعل ما تقدم الاتفاق عليه من العتق والتزويج، ففعل بالشروط السابقة، وأعطاني ثياباً وخمسمائة دينار، وقال: هذا مقدار ما كنت أجريه عليك إلى اليوم وهو مستمر لك، فجئت إلى البقال فأعلمته بذلك وطلقت ابنته وتركت له جميع ما وهبه لي وما اكتسبته مدة إقامتي عنده ولم آخذ منه شيئاً، وأقمت مع الجارية في أحسن حال.

** وهذا حديث المجرد:

قال وهب الشاعر: بينا أنا بسوق الليل بمكة المشرفة بعد أيام الموسم إذ أنا بامرأة من نساء مكة معها صبي يبكي وهي تسكته فيأبى أن يسكت، فسفرت فأخرجت من فيها كسرة درهم فدفعتها إلى الصبي فسكت، فإذا وجه كأنه كوكب دري بشكل لطيف ولسان فصيح.

فلما رأتني أُحدّ النظر إليها قالت: اتبعني، فقلت: إن شريطتي الحلال، فقال: ارجع في حرامك، ومن يريدك على حرام؟ فخجلت وغلبتني نفسي على رأيي، فتبعتها فدخلت زقاق العطارين فصعدت درجة وقالت: اصعد فصعدت معها إلى غرفة متسعة، فقالت: أنا مشغولة وزوجي رجل من بني

مخزوم وأنا امرأة من زهرة، ولكن عندي حر كجبهة الأسد عليه وجه أحسن من العافية في مثل خلق ابن سريج وترنم معبد وتيه ابن عائشة، أجمع لك هذا كله في بدن واحد بأشقر سليم، قلت: وما أشقر سليم؟ قالت: بدينار واحد يومك وليلتك، فإذا أقمت جعلت الدينار وظيفة وتزويجاً صحيحاً، قلت: فذلك لك، إذا جمع لي ما ذكرت فصفقت بيديها إلى جاريتها فاستجابت لها، فقالت: قولي لفلانة إلبسي عليك ثيابك وعجلي، ولا تمسي طيباً فحسبك بدلالك عطراً.

فإذا بجارية أقبلت ما أحسب أن الشمس وقعت عليها، كأنها دمية خلقت من درة، فسلمت وجلست كالخجلة، فقالت لها الأولى: إن هذا الذي ذكرته لك وهو في هذه الهيئة التي ترين، قالت: حياه الله وقرب داره، فقالت لها الأولى: وقد بذل لك من الصداق ديناراً، قالت: أي أم أخبرتِه بشريطتي؟ قالت: لا والله يا بنية لقد أنسيتها.

ثم نظرت إليَّ وغمزتني وقالت: أتدري ما شريطتها؟ قلت: لا، قالت: أقول لك بحضورها وما أخالك تكرهه، هي والله أفتك من عمرو بن معدي كرب وأشجع من ربيعة بن مكدم، ولست بواصل إليها حتى تسكر ويغلب السكر على عقلها، فإذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع، قلت: ما أهون هذا وأسهله، فقالت الجارية: وتركت شيئاً آخر، قالت: نعم والله إعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها وتراك مجرداً مقبلاً ومدبراً، قلت: وهذا أيضاً أفعله.

قالت: هلم دينارك، فأخرجت ديناراً فنبذته إليها، فصفقت بيديها فأجابتها امرأة فقالت لها: قولي لأبي الحسن وأبي الحسين هلما الساعة، فقلت في نفسي: أبو الحسن وأبو الحسين هو علي بن أبي طالب، فإذا شيخان خاضبان

نبيلان قد أقبلا، فسلما وجلسا فقصت المرأة عليهما القصة، فخطب أحدهما وأجاب الآخر وأقررت بالتزويج وأقرت المرأة بالقبول.

فدعوا بالبركة ثم نهضا فاستحييت أن أحمّل المرأة شيئاً من المؤنة فأخرجت ديناراً آخر فدفعته إليها وقلت: اجعلي هذا لطيبك، قالت: يا أخي لست ممن يمس طيباً لرجل، إنما أتطيب لنفسي إذا خلوت، قلت: فاجعلي هذا لغذائنا اليوم، قالت: أما هذا فنعم.

فنهضت الجارية وأمرت بإصلاح ما نحتاج إليه ثم عادت وتغدينا وجاءت بدواة وقُضُب وقعدت تجاهي ودعت بنبيذ فأحضر، واندفعت تغني بصوت لم أسمع مثله قط، ولها ترنم ولحن غريب، فكدت أجن سروراً وطرباً، فجعلت أجهد أن تدنو مني فتأبى ذلك إلى أن غنت بشعر لم أعرفه وهو:

راحوا يصيدون الظباءَ وإنني لأرى تصيُّدَها عليَّ حراما
أعزِزْ عليَّ بأن أُروِّعَ شِبهَها أو أن تذوقَ على يديَّ حِماما

فقلت: جعلتُ فداك من يغني هذا، قالت: اشترك فيه جماعة هو لمعبد وتغنى به ابن سريج وابن عائشة، فلما نعي إلينا النهار وغربت الشمس تغنت بصوت لم أفهمه للشقاء الذي كتب عليَّ:

كأني بالمجرَّد قد علَتْهُ نعالُ القومِ أو خشبُ السواري

فقلت: جُعلتُ فداك ما أفهم هذا البيت ولا أحسبه مما يتغنى به، فقالت: أنا أول من تغنى به، قلت: إنما هو بيت عائر لا صاحب له، قالت: معه آخر ليس هذا وقته وهو آخر ما يتغنى به، فسكتت وجعلت لا أنازعها إجلالاً لها.

فلما صلينا المغرب وجاءت العشاء الآخرة وضعت القضيب فقمت وصليت العشاء ولم أدر كم صليت عجلة وشوقاً، فبعد أن صليتُ قلت لها: تأذنين جعلت فداءك في الدنو منك؟ قالت: تجرد، وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد فكدت أن أشق ثيابي من العجلة للخروج منها، فتجردتُ وقمتُ بين يديها، فقالت: امض إلى زاوية البيت وأقبل وأدبر حتى أراك مقبلاً ومدبراً.

فمشيت مسرعاً لأصل إلى زاوية البيت وأرجع، وإذا في الغرفة قبل الزاوية خرق كبير إلى السوق وعليه حصير، فخطرت مسرعاً فوق الحصير ولم أعلم بالمكيدة، فهويت بالحصيرة فإذا أنا في السوق مجرداً منعظاً، وإذا الشيخان الشاهدان قد أعدا نعالهما على قفاي واستعانا بأهل السوق، فضربت حتى نسيت اسمي، وبينا أنا أضرب بنعال مخصوفة وأصفع بكف مشدودة، فإذا بصوتها من فوق وهي تغني وتقول:

ولو علمَ المجرَّدُ ما أردنا لحاربنا المجردُ بالصحاري

فقلت في نفسي: هذا والله وقت هذا البيت، فنجوت إلى رحلي وما فيَّ عظم صحيح، فسألت عنها فقيل لي إنها امرأة من آل أبي لهب، فقلت: لعنها الله ولعن الذي هي منه.

** ومن غريب ما يحكى أن جعفر بن يحيى البرمكي حين قدم البصرة مع الرشيد أخبره نخاس بأن بالبصرة جارية خارقة العادة في الجمال والغناء والأدب والكمال، وأن صاحبها لا يخرجها من البيت، فمن أراد شراءها يذهب لينظرها في محلها، فقال لإسحاق بن إبراهيم الموصلي: قد بلغني أن هنا جارية لم يُر مثلها فاخرج بنا ننظر إليها.

فخرجا مستخفين والنخاس معهما، حتى وصلوا منزل الرجل طرق النخاس الباب فخرج شاب متغير اللون في ثوب خشن، فأدخلنا في دار خربة وفرش لنا حصيراً وأجلسنا، ودخل من باب وغاب عنا فخرجت جارية بذلك الثوب إلا أنها تفوق الشمس حسناً وجمالا، وبيدها عود فجلست وضربت في العود وغنت بقولها:

إن يُمْسِ حبلُكَ بعد طولِ تَواصلٍ خَلَقاً وبيتُكَ موحوشاً ومهجورا
فلقد أراني والجديدُ إلى البِلى دهراً بوصلكَ راضياً مَسرورا
كنتَ المنى وأعزَّ من وطئ الحصى عندي وكنتَ بذاك منك جديرا

ثم غلبها البكاء حتى منعها الغناء فنهضت إلى البيت تعثر في القميص، فسمعنا لهما بكاءً وشهيقاً، ثم خفيت أصواتهما حتى ظننا أنهما قبضا، ثم خرج الشاب بالثوب بعينه وقال: أشهدكم أنها حرة وأريد أن تزوجوني ففعلنا وملكنا له عليها.

وغم جعفر لفواتها وقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: حديثي طويل وإن شئت حدثتك به، قال: قل، فقال: أنا من أبناء التجار وذوي النعم، وهذا يعرف ثروتي وما كنت فيه من العز وأشار إلى النخاس، قال: وكانت هذه الجارية لأمي فنشأت أنا وإياها وأدخلنا في المكتب، فبرعنا في الأدب وأُخرجتْ هي لتعليم الغناء فلم أطق فراقها فصرت معها، فلما برعت فيه أرادت أمي بيعها فأيقنت بالموت فأخبرت أمي فوهبتها لي، فأقمنا في أرغد عيش إلى أن مات أبي فتركت التجارة وأنفقت وأكثرت من الهبة وأسرفت في العطاء والصرف حتى لم يبق عندي إلا هذا الثوب ....[1]

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

الباب التاسع عشر في من عشق نفسه

أما محبة الإنسان نفسه فكثير، ومحبة النفس موجودة في أغلب الناس إلا أنها مذمومة غير محمودة، وكلما ازداد حب الإنسان لنفسه كرهه العالم وسقط بين أبناء جنسه ومجته نفوس إخوانه، فيلزم على الإنسان أن يتدارك نفسه ولا يمكنها من حب ذاتها، فإذا تمكن حب الإنسان نفسه كان الرجوع صعباً وصار متعذراً.

ولو أن حب النفس كحب الغير اضطراري ليس باختيار الشخص، بل مرض ينزل على قلبه ويكون مجبوراً على حب نفسه، لكن حيث أنه مذموم وقبيح مستسمج يلزم على الإنسان أن يدفعه عنه بقدر الإمكان.

وأن لا يتركه إلى أن يتمكن من قلبه، بل يستقبحه من أول وهلة ويتجافى عنه ويمرن نفسه على تركه وإبعاده، وقال بعض الحكماء: إعجاب المرء بنفسه أحد حساد عقله، وقال سيدنا علي كرم الله وجهه: الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب، وقيل: من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه، فالرضا عن النفس هو من محبته لها.

وأما عشق الإنسان نفسه فهو يحصل أيضاً إلا أنه قليل الوجود نادر جداً، وقد قال سيدي الوالد رحمه الله تعالى، في مليح عشق نفسه:

تَعشَّقَ نفسَه لما رآها ... بمرآةٍ حوتْ كلَّ المزايا
فأهوى كي يُقبّلَ وجنتيه ... فلم يظفرْ وخانته المرايا

وقال المرحوم سليم بيك الشهابي الشامي الدمشقي:

لـو كــان لـي كـالـعـاشـقـيـن عــواذلٌ   لـسـعـيـتُ فـي تشتيتهم وتَـوصُّـلـي
لـكــنَّ مـحـبـوبـي تـعــشَّــقَ نـفـسَـه   فـغـدا الـعـذولَ فما يـكـون تَحيُّلي

** ومن عشق نفسه عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وقصته سنذكرها في باب النوادر والحكايات، فمن يطلع عليها يعرف قدر محبته لنفسه.

الباب العشرون في من قتل محبوبه

قتل المحبوب قد وقع في العالم ولكنه نادر، وقليل وقوعه ـ من يقتل محبوبه بل أقل من القليل ـ وإن وقع شيء من ذلك فالغالب أنه لا يقع إلا من شدة الغيرة، فالمحب الصادق إذا اشتدت به الغيرة ورأى ما لا يطيقه من محبوبه ربما يلجئه الحال إلى قتل نفسه ولا يقدر أن يكدّر على محبوبه.

وبعض المحبين لا يهون عليه ولا يرضى شعوره وإحساساته أن يشتم محبوبه أو ينهره أو يغضبه، وبعضهم يهون عليه قتل محبوبه غيرة عليه، وهذا فرق بعيد بين الطبائع والأخلاق، واختلاف عظيم بين طبقات العالم وطبائع الحيوان، ولا يمكن حصر الطبائع والأخلاق ولكن يمكن أن يفهم ويعلم طرفاً من الأمر أي أعلاه وأدناه، ويعرف أن بين هاتين الحالتين مراتب ودرجات وأشكال لا تعد ولا تحصى.

وهذا التفصيل شامل لجميع الأمور ليس مخصوصاً بالعشق والمحبة، ولكن حيث أن موضوعنا في العشق نمثل ونصف ما نحن بصدده، فنقول مثل الفرق الذي بين أعلى الدرجات وأدناها، أن محباً من شدة حبه يقتل محبوبه، ومحباً من شدة حبه لا يقدر أن يُقبِّل محبوبه خوفاً من أن يتضرر المحبوب، فهذان الطرفان بينهما بعد عظيم، وفي وسطهما درجات لا تعد ولا تحصى.

فممن قتل محبوبته ديك الجن وهو عبد السلام بن رغبان، كانت له جارية جميلة وكان يهواها، فاتهمها بغلام له فقتلها ثم صار يرثيها ويبكي عليها لحبه لها وغرامه بها، وهذا من جملة ما رثاها به:

ليتني لم أكن لعطفكِ نلتُ ... وإلى ذلك الوصالِ وصلتُ

فالذي مِنّيَ اشتملتِ عليه ... ألِعارٍ ما قد عليه اشتملتُ

قال ذو الجهل قد حَلُمتَ ولا أعْـ ... ـلَمُ أني حلمتُ حتى جهلتُ

لائمٌ لي بجهله ولماذا ... أنا وحدي أحببتُ ثم قتلت

سوف آسى طولَ الحياةِ وأبكيـ ... ـكِ على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

وقال ديك الجن أيضاً:

يا مهجةً طلع الحِمامُ عليها ... وجنى لها ثمرَ الردى بيديها

حكّمتُ سيفي في مجال خِناقها ... ومدامعي تجري على خَدَّيها

روّيتُ من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شَفتيّ من شفتيها

فوحقِّ نعليها لما وطئ الحصى ... شيءٌ أعزُّ عليَّ من نعليها

ما كان قَتْليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذبابُ عليها

لكنْ بخلتُ على العيون بلحظها ... وأنفتُ من نظر العيونِ إليها

** ومن قتل محبوبه رجل من غطفان يُقال له السليك بن مجمع، فارس شجاع، وكان مطلوباً في سائر القبائل بدماء قوم قتلهم، وكان يهوى ابنة عمه فخطبها مراراً وأبوها يمنعه ولم يزوجه بها، ثم زوجه إياها خوفاً منه، فدخل بها في دار أبيها ثم نقلها بعد أسبوع إلى عشيرته، فلقيه من بني فزارة ثلاثون فارساً كلهم يطلبه بدم فحنقوا عليه.

وقاتلهم فقتل منهم عدداً وأثخن بالجراح آخرين وأُثخن هو أيضاً حتى

أيقن بالموت، فعاد إليها وقال لها: ما أسمح بك نفساً لهؤلاء، وإني أحب أن أقدمك قبلي، فقالت: افعل ما بدا لك، ولو لم تفعله أنت لفعلته أنا بعدك، فضربها بالسيف حتى قتلها، ثم تمرغ في دمها وتخضب به وأنشأ يقول:

يا طلعةً طلع الحِمامُ عليها ... وجنى لها ثمرَ الردى بيدَيْها
روّيتُ من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شفتيَّ من شفتَيْها
قد بات سيفي في مجال وِشاحها ... ومَدامعي تجري على خَدَّيْها
فوحقِّ نعليها وما وطئ الحصى ... شيءٌ أعزُّ عليَّ من نعلَيْها
ما كان قَتْليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذبابُ عليها
لكن ضننتُ على العيون بحسنها ... وأنفتُ من نظر الحسود إليها

ثم تقدم فقاتل حتى قتل، وبلغ قومه خبره فأدركوه فوجدوه قد قتل، فحملوهما ودفنوهما معاً، وقيل أدركوه وبه رمق وسمعوه ينشد الأبيات، ثم فاضت روحه فدفنوهما معاً وانصرفو.

وتروى هذه الأبيات لديك الجن في موضع آخر، ويمكن أنها لأحدهما والآخر تمثل بها والله أعلم.

** وكان عضد الدولة شغفه حب جاريته واشتد حبه بها، واشتغل بها عن تدبير المملكة حتى ظهر الخلل في سائر المملكة، فخلا به وزيره وقال له: أيها الملك إن هذه الجارية قد شغلتك عن مصالح دولتك، حتى تطرق النقص عليها من عدة جهات، وما سبب ذلك إلا اشتغالك عن إصلاح دولتك بهذه الأمة، والصواب تركها وتلتفت إلى إصلاح ما فسد من مملكتك.

فلما سمع عضد الدولة كلام وزيره خرج إلى منتزه له على الدجلة، ثم استدعى الجارية، فلما حضرت شاغلها ساعة حتى غفلت عن نفسها دفعها في الدجلة فغرقت، ثم تسلى عنها ونسيها وتفرغ لملكه واشتغل بإصلاح أمور دولته، فاستعظم الناس منه قوة نفسه على قتل محبوبته.

** ومن لم يقدر على قتل محبوبته ولكن أمر بقتلها، فكأنه قتلها وعقّها، ولا فرق بين القاتل والآمر بالقتل، كما أن المزح والجد في هذا الموقف واحد، فلا يليق بالمحب الصادق أن يتكلم في مثل هذا الموضع بمثل هذا القول ويقول إني مازح، فمن هذا القبيل قول عبد الله بن جندب:

خذوا بدمي إنْ متُّ كلَّ خريدةٍ مريضةِ جفنِ العينِ والطرفُ ساهرُ

وقول الآخر:

خذوا بدمي ذاتَ الوشاحِ فإنني رأيتُ بعيني في أناملها دمي

وقول أبي العباس:

أيا مُنشِرَ الموتى أَقِدْني من التي بها نهلتْ نفسي سَقاماً وعَلَّتِ
لقد بخلتْ حتى لَوَ انّي سألتُها قذى العينِ من ضاحي الترابِ لضنَّت

وقول أبي رواحة:

إن كان يحلو لديكَ قتلي فزدْ من الهجر في عذابي
عسى يُطيل الوقوفَ بيني وبينك اللهُ في الحسابِ

ولكن المحب الذي يعرف قدر المحبوب هو صريع الغواني، حيث يقول:

أديـرا عليَّ الـكـأسَ لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا مـن عند قاتلتي ذَحْـلـي

ومجنون ليلى حيث يقول:

أقــول لـمُـفْـتٍ ذاتَ يــوم لـقيتُـهُ ... بـمـكّـةَ والأنــضــاءُ مُـلـقـىً حبالُها

بـربِّـكَ أخـبـرْنـي ألـم تـأثـم التي ... أضــرَّ بجسمي مــن زمــانٍ خيالها

فـقــال بـلـى واللهِ ســوف يمسُّها ... عــذابٌ وبـلـوى فـي الـحـيـاة تنالها

فقـلـتُ ولـم أمـلـكْ سـوابـقَ عَـبْـرةٍ ... سريعٍ على جيب القميصِ انهمالها

عـفـا اللهُ عـنـهـا ذنـبَـهـا وأقـالَـهـا ... وإن كــان فـي الـدنـيـا قليلاً نوالها

وقريب من هذا قول أبي تمام:

أنـــتَ فـي حِـــلٍّ فــزِدنـي سَـقَـمـا ... أَفْــنِ صبري واجـعـلِ الـدمـعَ دما

وارضَ لـي الـموتَ بهجريكَ فما ... آلـــمـــتْ نـفـسـي فـــزدنـــي ألـمـا

محـنـةُ الـعـاشـقِ ذلٌّ فـي الـهـوى ... وإذا اســـتُـــودِعَ[1] سِــــراً كتما

لـيـس مـنـا مــن شـكـا عِـلّـتَـه ... مــن شـكـا ظـلـمَ حـبـيـبٍ ظَـلـمـا

قال حداد شاعر عاشق:

مطارقُ الشوقِ منها في الحشا أثرُ ... يطرقنَ سَنْدانَ قلبٍ حشوُه الفِكَرُ

ونـارُ كُـورِ الهوى في الجسم موقدةٌ ... ومـبـردُ الـحـزنِ لا يُبقي ولا يَـذرُ

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «لعله استخبر».

وكتب بعض الأدباء إلى الفقيه أبي بكر بن داود الأصبهاني هذين البيتين سؤالاً:

يـا ابـنَ داودَ يـا فـقـيـهَ الـعـراق أفـتـنـا فـي قـواتـل الأحـداقِ
هل عليهنَّ في الجروح قِصاصٌ؟ أم حـلالٌ لـهـا دمُ الـعـشّـاقِ

فأجابه ابن داود:

عـنـدي جـوابُ مسـائـلِ الـعـشـاقِ فاسمعْه من قَـلِـق الحَشا مُشتاقِ
لما سألتَ عن الهوى أهلَ الهوى أجـريـتَ دمـعـاً لـم يـكـن بـالـراقـي
أخطأتَ في نفس السؤال وإن تُصِبْ تك في الهوى سبباً[1] من الإشفاق
لـو أن مـعـشـوقـاً يُـعـذِّب عـاشـقـاً كـان الـمـعـذَّبُ أنـعـمَ الـعـشـاق

وقال نجبة بن جنادة العذري:

سـرتْ لعينيكَ سلمى عند مَغناها فبتُّ مُستلهياً من بعد مَسراها
فقلتُ أهلاً وسهلاً من هَـداك لنا إن كـنـتَ تمثالَها أو كـنـتَ إياها
تأتي الرياحُ التي من نحو بلدتكم حـتـى أقـولَ دنـتْ مـنـا بـريّـاهـا
وقد تراخت بنا عنها نـوىً قُـذُفٌ هيهات مُصبِحُها من بعد مُمساها
مـن حـبـهـا أتـمـنـى أن يـلاقـيَـنـي مـن نـحـو بـلـدتـهـا نـاعٍ فينعاها
كـيـمـا أقـولُ فـراقٌ لا لـقـاءَ له وتُضمر النفسُ يأساً ثم تَسلاها
ولـو تـمـوتُ لـراعـتـني وقـلـتُ لها يا بؤسَ للموت ليتَ الدهرَ أبقاها

---

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف: لعله «شبحاً».

(٢) جاء في الحاشية بخط المصنف «بلغ».

وقال الإمام الشافعي:

خـــذوا بـدمـي هــذا الــغــزالَ فـإنـه رمـانـي بسهمَيْ مقلتيه على عَمْدِ
ولا تـقـتـلـوه إنـنـي أنـا عـبـدُهُ وفـي مذهبي لا يُقتَلُ الحُرُّ بالعبد

وقال الشريف الرضي:

سـهـمُـكَ مـدلـولٌ عـلـى مَقتلي فـمـن تُـرى دَلَّـكَ يـا قـاتـلُ
لـيـس لـقـلـبـي ثـائـرٌ يُـتَّـقـى ولـيـس فـي سـفـك دمـي طـائـلُ
قـد رضـي الـمـقـتـولُ كـلَّ الـرضـى واعـجـبـاً لِـمْ سـخـطَ الـقـاتـلُ

الباب الحادي والعشرون في الغدر وعدم الوفاء

الغدر والخيانة وعدم الوفاء من أرذل الطبائع وأشنعها، منهي عنها شرعاً ومستقبحة طبعاً، ومنفور منها أصلاً وفرعاً فعلاً وقولاً وسمعاً، فيلزم على كل أديب أن يتجنب الغدر والخيانة، ويلزم على كل فاضل أن يعود نفسه على الوفاء والعفة والصيانة، وحتم على كل الكريم أن يتجافى ويتباعد عن النقائص والمعائب، وأن يتفضل ويتكرم على الأحباب والأقارب، خصوصاً من يدعي أن له في ديوان الحب نصيباً.

وقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً «أنه ما من صباح إلا وملكان يناديان ويل للرجال من النساء، ويل للنساء من الرجال»، وقال صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» إن أول من جحد آدم عليه السلام، لأنه لما أراه الله تعالى ذريته رأى فيهم رجلاً أزهر ساطع النور، فقال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، قال: يا رب فما عمره؟ قال: ستون سنة، قال: يا رب زد في عمره، قال: لا إلا أن تزيده من عمرك، قال: وما عمري؟ قال: ألف سنة، قال آدم: فقد وهبته أربعين سنة، قال: فكتب الله عليه كتاباً وأشهد عليه ملائكته، فلما حضرته الوفاة قال: بقي من عمري أربعون سنة، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود، قال: ما وهبت لأحد شيئاً، فأخرج الله ذلك الكتاب، وفيه شهادة الملائكة، فقال النبي عليه السلام: نسي آدم فنسيت ذريته وجحد آدم فجحدت ذريته، والله أعلم، والجحود نوع من الغدر، لأن من جحد أحداً فقد غدره.

** وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فخرج يوماً معهم لبعض منتزهاته وتخلف واحد من الندماء، فدخل عند زوجة الحارث فأكلا وشربا ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين والكلب رابض قبالتهما، فأنشأ يقول:

وما زال يرعى ذِمَّتي ويحوطني ويحفظ عِرْسي والخليلُ يخونُ
فيا عجباً للخِلِّ يهتك حُرمتي ويا عجباً للكلب كيف يصونُ

وقال آخر:

أحبُّ من الأحباب من كان لي وحدي وأهوى من الخِلّان من لم يخنْ عهدي
إذا كان لي فيمن هويتُ مشاركٌ تركتُ الهوى أصلاً وعشتُ أنا وحدي

وقال آخر:

وأترك حبَّها من غير بغضٍ وذاك لكثرة الشركاءِ فيهِ
إذا وقعَ الذبابُ على طعامٍ رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسودُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلابُ يلغنَ فيه

وقال العدوي في مليح أخلف وعده:

ووعدتَ أمسِ بأن تزورَ فلم تزرْ فغدوتُ مسلوبَ الفؤاد مشتَّتا
لي مهجةٌ في النازعات وعَبْرةٌ في المرسلات وفكرةٌ في هل أتى

وقال البهاء زهير:

يعاهدني لا خانني ثم ينكثُ وأحلف لا كلَّمتُه ثم أحنثُ
وذلك دأبي لا يزال ودأبُهُ فيا معشرَ الناسِ اسمعوا وتحدَّثوا
أقول له صِلْني يقول نَعمْ غداً ويكسر جفناً هازئاً بي ويعبث
أمولايَ إني في هواك معذَّبٌ وحتى مَ أبقى في العذاب وأمكث
فخذْ مرّةً روحي تُرِحْني ولم أكن أموتُ مِراراً في النهار وأُبعَث
فإني لهذا الضيمِ منكَ لَحاملٌ ومنتظرٌ لطفاً من الله يحدث
أعيذك من هذا الصدودِ الذي بدا خلائقُكَ الحسنى أرقّ وأدمث
تردَّدَ ظنُّ الناسِ فينا وأكثروا أقاويلَ منها ما يطيب ويخبث

وقال الأستاذ الأديب أبو البركات بن محمد السعدي مثمناً هذه الأبيات:

للعاشقين انكسارُ وذلّةٌ وافتقارُ وللملاح افتخارُ
وعزّةٌ واقتدارُ وأهل بدري أثاروا وودَّعوني وساروا
يا بدرُ أهلُك جاروا وعلَّموك التَّجرِّي
كتبتُ والوجدُ يُملي جَدَّ الهوى بعد هزلِ وحار ذهني وعقلي
ما بين بدري وأهلي يا بدرُ فاحكمْ بعدلِ إذا أتوكَ بعذلي
وحرَّموا لك وصلي وحلَّلوا لك هجري
لولا هواكَ المرادُ ما كنتُ ممن يُصادُ ولا شجاني البعادُ
يا بدرُ أهلُك جادوا غلطتُ جاروا وزادوا لكنهم بكَ سادوا
فليفعلوا ما أرادوا لأنهم أهلُ بدري

الباب الثاني والعشرون
في الواشي والرقيب والعاذل والنمام والحسود

الواشي هو المفسد بين المحبين، والرقيب المراقب الذي يتجسس أحوال المحب ويراقب حركاته وسكناته وأقواله، والنمام الذي ينقل الأحاديث والمجالس وينم بما يسمع، كما بينه الشاعر في قوله:

تــراه يلتقط الأخبــارَ مجتهداً حتى إذا ما وعاها زَقَّ ما لقطا

وهذه أوصاف كلها مذمومة مبغضة، نُهي عنها شرعاً وأدباً وعقلاً وفرعاً وعرفاً، قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»، وقال: «ويل لكل همزة لمزه»، وقال: «ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أبغضكم إليَّ المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة»، وقال الشاعر:

شيخٌ يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً ويستبيح دمَ الحجاجِ في الحرمِ
خصالُه لستُ أُحصيها لكثرتها لكنها جُمعتْ في نون والقلمِ

وقيل وشى واش برجل عند ذي القرنين، فقال له ذو القرنين: إن شئت سمعنا منك ما تقول فيه على أن نسمع منه ما يقوله فيك، وإن شئت عفونا عنك بشرط أن لا تعود، فقال: العفو ولا أعود.

وقالت الحكماء: من نقل لك نقل عنك، ومن أخبرك عن أحد أخبره عنك، وقال آخر: من نقل حديث غيرك إليك نقل حديثك إلى غيرك.

وقال ابن الفارض:

دعْ عنك تعنيفي وذقْ طعمَ الهوى فـإذا عـشـقـتَ فبعـد ذلـك عَـنِّـفِ

فالتعنيف هو العذل.

وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة:

أتـرانـي صـبـرتُ عـنـكَ اختـيـارا أم تَـطـلَّـبـتُ إذ ظـلـمتَ انـتـصـارا
لا وغــنـــجٌ بـمـقـلـتـيـكَ وورْدٌ فــوق خـدَّيـك يُـخـجِـل الأنــوارا
مـا تـجـافـيـتُ عــن مُـــرادكَ إلا خـوفَ واشٍ أشـعـرتُ منه الحذارا
ورقـيـــبٍ مــوكّــلٍ بــي طَــرْفـاً وحـــســودٍ يُـنـمِّـق الأخــبـــارا

وقال كثير:

فيا عَـزُّ إنْ واشٍ وشـى بيَ عندكم فـلا تُـكـرمـيـه أن تـقـولـي لـه مهلا
كـمـا لـو وشـى واشٍ بـعـزّةَ عندنا لقلنا تـزحـزحْ لا قـريـباً ولا أهـلا

وقال آخر:

أيـهـا الـعـاذلـون طـيـروا شَـعـاعـاً لـيـس فـي الـقـلـب لـلـسُّـلـوِّ مَـواطـنْ
عَــدِّدوا عـــدِّدوا عـيـوبَ حبيبي فـلـعـيـنـي جَـمـيـعُـهـنَّ مـحـاسـنْ

وقال آخر:

لـو أن لـي فـي الـحـب أمـراً نـافـذاً وملكت بسطَ الأمـرِ فـي التعذيبِ
لـقـطـعـتُ ألـسـنـةَ الـعـواذلِ كلَّها ولـكـنـتُ أقـلـع عـيـنَ كـلِّ رقـيـبِ

وقال الشاعر:

عندي لكم يومَ التواصلِ دعوةٌ يا معشرَ الجلساءِ والندماءِ
أشوي كُبودَ الحاسدين بها وألـ سِنَةَ الوشاةِ وأعينَ الرقباءِ

وقال ابن الرومي:

ما بالها حسنتْ ووجهُ رقيبِها أبداً قبيحٌ قُبِّحَ الرقباءُ
ما ذاك إلا أنها شمسُ الضحى أبداً يكون رقيبَها الحرباءُ

ولبعض علماء المغرب تسديس:

ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا تعويضَ عهدِ اللِّقا بالبعد حين نأوا
رعاهُمُ اللهُ كانوا للعهود رَعَوا فغيَّرتهم وشاةٌ بالفساد سَعَوْا
غِيظَ العدى من تَساقينا الهوى فدعَوا بأنْ نَغصَّ فقال الدهرُ آمينا

وللفاضل محيي الدين بن محمد بن عبد الكريم:

بكى الزمانُ علينا من تنائينا وكان يضحك حيناً من تَدانينا
تَبّاً لحاسدنا تَعْساً لكائدنا سُحْقاً لغائظنا بُعْداً لواشينا
ما كان أغناه من تشتيت أُلفتنا ترى أما خاف من ظلم المحبِّينا

وقال آخر:

إذا أمرتْني العاذلاتُ بصَرْمها هفتْ كبدٌ عمّا يقلنَ صديعُ
وكيف أُطيع العاذلاتِ وحبُّها يُؤرِّقني والعاذلاتُ هجوعُ

وقال آخر:

أطعتِ الآمريكِ بصرم حبلي ... مُريهم في أحبتهم بذاكِ
فإن هم طاوعوكِ فطاوعيهم ... وإن عاصوكِ فاعصي من عصاكِ

وقال أبو حية النميري:

أصدُّ وما الصدُّ الذي تعلمينه ... عزاءٌ لنا إلا اجتراعَ العلاقمِ
حياءً وبُقيا أن تشيعَ نميمةٌ ... بنا وبكم أُفٍّ لأهل النمائمِ

وقال ابن الدمينة:

وما أعلمَ الواشين بالسرِّ بيننا؟ ... ونحن كلانا للمودةِ كاتمُ

وقال آخر:

ولما أبى الواشون إلا فراقَنا ... وما لهمُ عندي وعندكِ من ثارِ
غزوناهمُ من ناظريكِ وأدمعي ... وأنفاسِنا بالسيف والسيل والنارِ

للأحوص من أمالي الزجاجي:

أناسٌ أمنّاهم فنمُّوا حديثَنا ... فلما كتمنا السرَّ عنهم تقوَّلوا
فما حفظوا العهدَ الذي كان بيننا ... ولا حين همّوا بالقطيعة أجملوا

وقال ابن مكرم:

الناسُ قد أثموا فينا بظنّهمُ ... وصدَّقوا بالذي أدري وتدرينا

ماذا يضرّكِ في تصديق ظنّهمُ بأن نحقّقَ ما فينا يقولونا
حملي وحملُكِ ذنباً واحداً ثقةً بالعفو أجملُ من إثم الورى فينا

وقال ابن خلكان:

لو لم أكن في رتبةٍ أرعى لها الـ عهدَ القديمَ صيانةً للمنصبِ
لهتكتُ سِتري في هواكِ ولذَّ لي خلعُ العِذارِ ولَجَّ فيكِ مُؤنِّبي
لكن خشيتُ بأنْ تقولَ عواذلي قد جُنَّ هذا الشيخُ في هذا الصبي

وقال قيس بن الملوح:

فماذا عسى الواشون أن يتحدَّثوا سوى أن يقولوا أنني لكِ عاشقُ
نعمْ صدقَ الواشون أنتِ حبيبةٌ إليَّ وإنْ لم تَصفُ منكِ الخلائقُ

وقال البهاء زهير:

حبيبيَ ما هذا الجفاءُ الذي أرى وأين التغاضي بيننا والتعطُّفُ؟
لكَ اليومَ أمرٌ لا أشكّ يُريبني فما وجهُكَ الوجهَ الذي كنتُ أعرف
نعم نقل الواشون عنّيَ باطلاً فملتَ لما قالوا فزادوا وأسرفوا
كأنكَ قد صدَّقتَ فيَّ حديثَهم وحاشاك من هذا فخُلقُكَ أشرف
وقد كان قولُ الناس في الناس قبلنَا فكُذِّبَ يعقوبٌ وسُرِّقَ يوسف
بعيشِكَ قل لي ما الذي قد سمعتَه فإنك تدري ما أقول وتُنصف
فإن كان قولاً صحَّ أنيَ قُلتُه فللقول تأويلٌ وللفهم مَصرف

وهبْ أنه قولٌ من الله مُنزلٌ فقد بَدَّلَ التوراةَ قومٌ وحَرَّفوا
وها أنا والواشي وأنتَ جميعُنا يكون لنا يومٌ عظيمٌ وموقف

وقال الشيخ أحمد ابن حجر العسقلاني:

تَجَرَّدَ من أُحبّ فقال لي: مَن يلومُ وأظهرَ الحسدَ المكتَّمْ
أجادَ لك الحبيبُ بلمس جسمٍ له كالخزّ قلتُ: نَعمْ وأَنْعِمْ

وقال أبو نواس:

لاحظتُه فتبسَّما وخلا المكانُ فسلَّما
وبدا الرقيبُ فقلت لا سَلِمَ الرقيبُ من العمى

وقال ابن سناء الملك:

حكيتَ جسمي نحولا فهل تعشَّقتَ حسنَكْ
وكان جفنُكَ مضنىً فصرتَ كلَّك جفنَك
وزادكَ السقمُ حسناً واللهِ إنّك إنّكْ

وقال سيدي الوالد الشيخ عبد الجليل برادة رحمه الله تعالى، في جميل اسمه حسني:

سألتُ حسني من غدا مُفرَدا في حسنه عن مرض الجفنِ
فقال جفني إنما سقمُهُ من أجل أني ما أرى حسني

وقال بعضهم:

أنـا والـحِـبُّ مـا خـلـونـا ولا طَـرْ ... فـةَ عـيـنٍ إلا عـلـيـنـا رقـيـبُ
مـا خـلـونـا بحيث أنْ يُـمـكـنَ الـدْ ... دَهـرُ بـأنـي أقـول أنـتَ الحبيبُ
بـل خلونا بـقـدر مـا قـلـتُ أنـتَ الـ ... حِـبُّ وافـى فـقـلـتَ كـيـمَ الطبيبُ

وقال أبو نواس:

وخَـوْدٌ أقبلتْ في القصر سكرى ... ولـكـنْ زَيَّـن الـسُّـكـرَ الـوقـارُ
وقـد سـقـط الـرِّدا عـن مَنكبيها ... مـن الـتـخـمـيـش وانـحـلَّ الإزار
وهـزَّ الـريـحُ أردافـاً ثِـقـالاً ... وغُـصـنـاً فـيـه رُمّـانٌ صـغـار
هـمـمـتُ بـهـا وكـان الـلـيـلُ سِـتـراً ... فـقـام لـهـا عـلـى الـمـعـنـى اعـتـذار
وقـالـت فـي غـدٍ فـمـضـيـتُ حتى ... أتـى الـوقـتُ الـذي فـيـه الـمـزار
وقـلـتُ الـوعـدُ سـيـدتـي فـقـالـت ... كـلامُ الـلـيـلِ يـمـحـوه الـنـهـار

وقال كشاجم:

اكـفـنـا يـا عـذولُ شـرَّ لـسـانِـكْ ... والـهُ عـنـا فـشـأنـنـا غـيـرُ شـانِـكْ
دعْ دمـوعـي عـلـى الأحـبـة تجري ... واجـتـنـبْـنـي فـلـسـتُ مـن أخـدانِـك
فـمـكـانُ الـحـبـيـبِ أكـبـرُ مـن أنْ ... أتـسـلّـى عـن حـبـه بـمـكـانِـك
وهـواه الـمـصـونُ عـنـديَ مـا ذُقْـ ... تُ لِـبـانَ الـرُّقـادِ عـن أجـفـانـك
أيـهـا الـصـبُّ بُـحْ فـقـد شـفَّـك الـشَّـوْ ... قُ وَمَـلَّـكـتَ كـفَّـه مـن عِـنـانـك
أيُّ وَجْـدَيْـك تشتكي وإلـى أيْـ ... يِ خـلـيـلٍ تـحـنّ مـن خُـلّانـك؟

أعَلى خِلّكَ المساعدِ تبكي أم على طيب ما مضى من زمانك؟
علَّ دهراً يُديل من لوعة البين بحالٍ تُدنيك من إخوانك
فيواتيك من تحبّ وتَشْفي ما تُجنّ الضلوعُ من أحزانك

وقال بعضهم:

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطقْ كلاماً تكلَّمنا بأعيننا شَزْرا
نصدّ إذا ما كاشحٌ مال طرفُه إلينا ونُبدي ظاهراً بيننا هجرا
فإن غفلوا عنا رأيتَ خدودَنا تَصافحُ أو ثغراً قرعنا به ثغرا
ولو قذفتْ أجسامُنا[1] ما تضمَّنتْ من الضُّرِّ والبلوى إذاً قذفتْ جمرا

وقال قيس بن الملوح مجنون ليلى:

ألا أيها الواشي بليلى ألا ترى إلى من تشيها أو بمن جئتَ واشيا
لَعمرُ الذي لم يرضَ حتى أُطيعَه بهجرانها لا يصبح الدهرَ راضيا
دعاني أمتْ يا عاذليَّ بدائيا ولا تلحياني لا أحبُّ اللَّواحيا
إذا نحن رمنا هجرَها ضمَّ حبَّها صميمُ الحشا ضَمَّ الجناحِ الخوافيا

(١) جاء في الحاشية بخط المصنف «أجسادنا».

الباب الثالث والعشرون في القيادة

القيادة فن دقيق وبحر غريق، يلزمه فطنة ومكر وحيل ودهاء، ولطف وخداع وفصاحة ومحاورة وذكاء.

** قال كثير: سألني جميل أن آخذ له موعداً من بثينة، فقلت له: هل بينكما موعد؟ قال: بوادي الدوم وهي تغسل الثياب، فجئت أباها وهو جالس فحادثته قليلاً، ثم أنشدته:

وقلتُ لها يا عزُّ أُرسِل صاحبي   على نأي دارٍ والموكَّلُ مُرسَلُ
فإن تجعلي بيني وبينك موعداً   وإن تأمريني بالذي فيه أفعل
وآخرُ عهدٍ منك يومَ لقيتِني   بأسفل وادي الدومِ والثوبُ يُغسَلُ

وبثينة تسمع من داخل البيت، فضربت سجاف البيت وقالت: إخسأ، فقال لها أبوها: ما هذا؟ قالت: كلب يأتينا من وراء هذه الرابية إذا نام الناس، فمضيت وأخبرت جميلاً، فأقبل حتى اجتمعا ليلتهما وساررته كما سلف.

** كان شيخ من بني عذرة في إبل له، وإذا رجل غشاه فنزل به فلما ائتلفا قال له: هل لك أن تصنع معي الخير ما لو كانت لك الدنيا ذهباً وأنفقتها عليَّ لم تبلغ معشاره، فقال له الشيخ: وما هذا؟ قال: تمضي إلى وراء السفح فتنشد لي بكرة صفتها كذا، قال: نعم، ومضى فوجد العرب مجتمعين على جزور ينحر، فاستطلعهم عنها فلم يعلموا عن خبرها، ثم استأذنهم في البيوت وقال لهم: إن النساء أدرى بالمارة فأذنوا له.

فانصرف يتصفح الحي إلى أن اعتلى النهار ولم يظفر بطلبه، فإذا هو بثلاث بنات فسلم عليهن فرددن، ثم استنشدهن البكرة فقالت إحداهن: قد أصبت حاجتك، ثم أدخلته بيتاً وأتته بقدح مفضض فيه لبن وصفحة مفضضة فيها تمر وقالت له: إن بكرتك تأتي هذه الشجرة فتطوف بها الليل.

فرجع الشيخ إلى الفتى وأخبره، فابتهج كالذي أصاب بغيته والشيخ لا يدري، فلما انتصف الليل وظن أن الشيخ قد نام، عمد إلى رحله فاستخرج بُردين ملوكيين فاتّزر بأحدهما واتشح بالآخر ومضى، فتبعه الشيخ من حيث لم يشعر به حتى تلاقيا وتحادثا إلى أن بدا الصبح وأزمعا الفراق سبقه الشيخ ونام في مضجعه.

وجاء الغلام وصلى الصبح ثم نبهه وهو مسرور، فأكل معه وشرب ثم أخبره أنه هو جميل وأن تلك الطفلة هي بثينة، ثم أعطاه أحد البردين واعتذر وقال له: هل لك أن تمضي إليها فتنشدها أبياتاً قلتها بعد منصرفي عنها؟ قال: نعم، فأنشده:

وما أنسَ مِ الأشياءَ لا أنسَ قولَها وقد قربت نحوي أمصرَ تُريدُ؟
ولا قولَها لولا العيونُ التي ترى أتيتُكَ فاعذرني فدتْكَ جدود
خليليَّ ما أُخفي من الوجد ظاهرٌ ودمعي بما أخفى الفؤادُ شهيد
إذا قلتُ ما بي يا بثينةَ قاتلي من الحب قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلتُ رُدّي بعضَ عقلي أعشْ به معَ الناسِ قالت ذاك منك بعيد

فمضى إليها وقال لها: قد جئت بالأمس طالباً واليوم مسلماً، فهل أنت

بارزة إليّ؟ قالت: نعم، فسمع جارية تقول لها: يا بثينة إن عليه برد جميل، ثم خرجت في زينتها وقالت له: يا أخا العرب إن بردك لا يشبه ما عليك، واستخرجتْ ملاءة معصفرةً وأقسمت عليه أن يتشح بها ففعل، وأنشدها الأبيات وانصرف بملحفة بثينة وبرد جميل.

ومما قاله الشعراء في هذا الباب قول بعضهم يصف قواداً:

يُسهّل كلَّ ممتنعٍ شديدٍ ويأتي بالمراد على اقتصادِ
فلو كلَّفته تحصيلَ طيفِ الـ ـخيالِ ضُحىً لزار بلا رقادِ

وقال ابن سناء الملك:

لي صاحبٌ أفديه من صاحبٍ حلوُ التأنّي حَسَنُ الاحتيالْ
لو شاء من رقة ألفاظهِ أَلَّفَ ما بين الهدى والضلال
يكفيك منه أنه ربما قد قاد للمهجور طيفَ الخيال

وقال محيي الدين ابن قرناص:

لي صاحبٌ كملتْ جميعُ صفاتِهِ قد عمَّني بغرائب الإحسانِ
لو لم يكن مثلَ النسيم لطافةً ما بات يعطف لي غصونَ البانِ

وقال الوجيه الدوري:

لا تبعثوا بسوى المهذَّبِ جعفرٍ فالشيخُ في كلّ الأمورِ مهذَّبُ
طوراً يغنّي بالرباب وتارةً تأتي على يده الربابُ وزينبُ

وقال ابن رشيق يهجو شخصاً:

عِـرْسُـه مـن غـيـر ضَـيْـرِ عِـرسُ زيـدِ بـنِ عُـمَـيْـرِ
أبـداً تـزنـي فـإن حا ضـتْ تَـقِـدْ حـبـاً لأيـر
ولـهـا رِجـلان مـن نـاقـةِ كـعـبِ بـن زهـيـر
هـكـذا تُـبـنى الـمـعـالي لـيـس إلا كـلُّ خـيـر

ومراده بزيد بن عمير هو الذي يقول في زوجته:

تقود إذا حاضت وإن طهرتْ زنتْ فَـهِـيْ أبـداً يُـزنـى بـهـا وتـقـودُ

ومراده بناقة كعب بن زهير، قول كعب:

تـهـوي على يَـسَـراتٍ وهـي لاهيةٌ ذوابـلٌ وَقـعُـهـنَّ الأرضَ تحليلُ

كأن هذه المرأة في حاليها لا تقع رجلاها بالأرض، إما لكثرة مباضعة أو شدة مشي في فساد.

وقال آخر:

احـذرْ عـجوزاً تُولّيها على الـحُـرَمِ فالذئبُ ليس بمأمونٍ على الغنمِ

وقال بعضهم:

قـد لـقَّـبـوا الـراحَ بـالـعـجـوز ومـا تـخـرج ألـقـابُـهـم عـن الـعـاده
ألانـتِ الـغـادةَ الـتـي امـتـنـعـتْ فـصـحَّ أن الـعـجـوزَ قَـوّاده

وأنشد بعض العشاق محبوبته يوماً قول الشاعر:

سِــرّي وســرُّك لـم يـشـعـرْ بـه أحـدٌ ... إلا الإلـــهُ وإلا أنـــتِ ثــم أنـا

فقالت له: لا تنسَ القوادة، فإنها تدري بسرنا وهي مطلعة عليه أيضاً.

ومما قاله الشعراء في هذا الباب قول بعضهم يصف قواداً:

يُـســهِّـل كــلَّ مـمـتـنـعٍ شـديـدٍ ... ويـأتـي بـالـمـراد عـلـى اقـتـصـادِ

فلـو كـلَّـفـتـه تـحـصـيـلَ طَـيـفِ الـ ... خـيـالِ ضُـحـىً لــزارَ بـلا رقـادِ

تم الباب

..............[1]

---

(١) بعد هذه الورقة سقط في الأصل.

الباب السادس والعشرون
في السلو وترك الحب والاشتغال بغيره

وفي الخواص والأسماء والأوفاق المتعلقة بالعشق والسلو والعطف والقبول وفي العقاقير والمعادن المجربة في خواص هذا الباب:

قال الشيخ عز الدين الموصلي:

قد سلونا عن الحبيب بخَوْدٍ ذاتِ حسنٍ فيها الجمالُ تَفنَّنْ
ورجعنا عن التهتُّك فيه ودفعناه بالتي هي أحسنْ

السلو قد يعرض للعاشق بلا موجب، بل من المقدرات الإلهية، كما أنه يعشق الإنسان بدون قصد ولا اختيار فكذلك يسلو محبوبه وينسى العشق بغير قصد وهو لا يشعر ولا يدري فيقع السلو بلا موجب أصلاً.

ويقع السلو أحياناً بموجب يقتضي ذلك كغدر أو رؤية مكروه من المحبوب تشمئز نفس المحب منه، أو رؤية جميل آخر فتنتقل المحبة إليه فيسلو المحبوب الأول أو غير ذلك، ويحصل السلو بعض الأوقات بالمعالجة والمداواة والمداراة، والتحفظ من التوغل في العشق، والخوف من سطوة الحب والغرام.

وبعض الأحيان لا ينفع علاج ولا حذر، ولا يدخل السلو قلب المحب ولا يمر بفكر العاشق حتى يدخله القبر، ولو عولج بأصناف العقاقير وجميع الرقى وكل الملاهي والدواعي لما سلا القلب ولا انتهى.

فالحب والسلو كلاهما اضطراري لا اختيار للإنسان في جلبه أو دفعه، ولكن توجد أسباب موجبة لذلك، فإذا تهيأت الأسباب يكون زيادته ونقصانه ودفعه وجلبه بمقتضى تلك الأسباب.

وقال الشيخ يحيى بن إبراهيم الجحاف اليمني:

إنني بعد بُعْدكم قد سُقِيتُ ... من مدام السلوِّ حتى رَويتُ
لم يزل ساقيَ التسلّيَ يَسقيـ ... ـني كؤوساً من بعدها ما ظَميت
أبداً يُصبح الفؤاد ويُضحي ... صاحياً من هواكمُ ويبيت
فكأني على الصبابة والتَّبْـ ... ـريحِ والشوق والهوى ما ربيت
آهِ ما لي على مفارقة الرُّو ... حِ لجسمي يومَ النوى ما خشيت
نُزِعَ الحبُّ من فؤادي فسبحا ... نَ إلهٍ يُحيي الورى ويُميت
وصحا القلبُ من هواكم فلم يَحْـ ... ـلُ لعيني عينٌ وخَدٌّ وَلِيتُ
حبُّ تلك الثغورِ عني تولّى ... ما كأني يوماً عليها وُلِيت
أبلغوا الأعينَ المِراضَ اللواتي ... كنَّ أمرضنني بأني شُفيتُ
واخبروا تلكمُ الخصورَ جميعاً ... أنني بالسلوّ عنها رَضيت
قسماً بالوفاء والعهد والمِيـ ... ـثاقِ لا ضمَّني وأنتم مَبيت
يشهد البرقُ والنسيمُ وذاتُ الطْـ ... ـطَوْقِ أني من الربوع بَريت
فانقصوا في جمالكم أو فزيدوا ... لستُ آسى عليكمُ ما بَقيت
وطئتني الأنعامُ إن أنا يوماً ... في مغانيكمُ برجلي وَطيت
ما الحصى لؤلؤاً بحيث حللتم ... لا ولا الترابُ فيه مِسْكٌ فَتيت

ليت شعري ما لي غداةَ التقينا في زَرودٍ لَبَّيتُ حين دُعِيت
لم أكن منكمُ دُهيتُ ولكنْ من عيوني وقتَ التلاقي دُهيت
كم وكم قد جنيتُ زهرَ التسلّي طيّباتٍ بأنملي كيف شِيت
قد جهلتُ الهوى وعدتُ كأني من سُلُوّي ما كنتُ قِدْماً هويت
يا خليليَّ خَبِّراني بصدقٍ كيف طعمُ الهوى فإني نسيت
سادتي مذهبي الوفاءُ ولكنْ إن بقيتم على الوفاء بقيت
ما عليكم فيما جرى من ملامٍ أنا لا أنتمُ لذلك شِيت

وقال بعضهم في السلو:

وأهجركم حتى يقالَ لقد سلا ولستُ بسالٍ عن هواكم إلى الحشرِ
ولكنْ إذا كان المحبُّ على الذي يحبّ شفيقاً نازعَ الناسَ بالهجرِ

تم الباب

فهرست كتاب مبادي العشق ومنتهى الغرام



